زكريا عبيد

البوسنة والهرسك وأشواك السلام

نظرة إلى آفاق المستقبل



مكتبة مدبولي

البوسنة والهرسك .. وأشواك السلام

زكريا عبيد

البوسنة والهرسك .. وأشواك السلام

نظرة إلى آفاق المستقبل

مكتبة مدبولى

اسم الكتاب : البوسنة والهرسك .. وأشواك السلام

اسم المؤلف : زكريا عبيد

الموزع : مكتبة مدبولي

٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة

ت : ٥٧٥٦٤٢١ فاكس : ٥٧٥٢٨٥٤

الطبعة : الطبعة الأولى : ٢٠٠١

رقم الإيداع : ٢٧٨١ / ٢٠٠١

الترقيم الدولى : ISBN : 977-208-318-3

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

إهـــداء

إلى السـيد حارث سلايدجتش

رئيس وزراء البوسنة والهرسك

أمل البوسـنة فى تحقيق مستقبل

يملؤه العدل والسلام . . والتقدم

" إن السلام لا يتحقق عندما يتوقف إطلاق الرصاص والمدافع .. إن السلام يتحقق عندما يسود العدل والمساواة بين البشر .. وعندما تعود الحقوق إلى أصحابها ، وإلا فإننا بدلا من أن نزرع ورود السلام فإننا نزرع أشواكها فقط " .

زكريا عبيد

مقـــدمة

فى بدايات عام ١٩٩٢ كنت أتابع كما يتابع الكثيرون فى كل بقاع الأرض الأنــباء القادمـــة من البوسنة .. كنا نتابع صراع ما قبل الحرب .. ولسبب ما أصـــبح واضحا لى الآن أن معظم الناس ، فيما عدا المتخصصين ، لم يكن على إدراك كـــامل بمـــا يجـــرى فى يوغســـلافيا بشكل عام ، وفى تلك الجمهورية المحصورة بين الجمهوريات الأخرى فى الاتحاد الذى بدأ ينشطر إلى شظايا قبل عدة أشهر وأقصد بها البوسنة والهرسك بوجه خاص .. وقد اتضح لى فيما بعد أن وسائل الإعلام وعلى مدى سنوات طويلة لم تكن تلقى ضوءا ما على ما كان يحـــدث فى تـــلك الجمهوريـــة رغـــم أنهـــا كانت من أكبر جمهوريات الاتحاد اليوغسلافى مساحة .. بل أزعم أن عددا كبيرا من الناس سواء فى مصر أو فى باقى أنحاء العالم العربى أو الإسلامى بل وعلى المستوى الدولى أيضا لم يكن قد سمع عن مدن مثل سراييفو وموستار وتوزلا وبانيا لوكا وبيهاتش قبل أن تشتعل الحرب هنا ..

وقـــد اتضحت لى أسباب هذا التعتيم الإعلامى بعد ذلك بعدة سنوات عندما قمـــت بزيارتى الأولى لبلجراد فى صيف عام ١٩٩٨ عندما بدأ البركان الذى لم يخمـــد لـــلحظة طوال سنوات طويلة فى كوسوفو فى الانفجار ليهدد العالم كله بالحـــرب . تجـــاه مـــا يحدث .. إلا أن ردود الأفعال تلك كانت مجرد رد فعل

متعاطف فى أغلبه من مسلمين تجاه إخوانهم ، وحتى تلك اللحظة أزعم أننا لم نكن نفهم على وجه الدقة ما يحدث فى البوسنة .

لقد أسرع الجميع آنذاك – وكنت من بينهم – للبحث عن وسيلة للتعبير عن التضامن مع أولئك الذين يبدو جليا أن هناك من يرغب فى محوهم من الوجود ، وعلى الرغم من ذلك فقد اتضح أن الأمور أعمق بكثير من فهمنا السطحى للأحداث ، وأبعد كثيرا من المعلومات التى تصلنا ، بل وأكثر كثيرا من رغبة البعض فى أن تقوم للمسلمين دولة لا تبعد حدودها الشمالية الغربية عن قلب أوروبا سوى عدة دقائق تقطعها أية طائرة من طراز قديم .. وبنفس القدر أكثر من رغبة البعض فى ألا تقوم لهذه الدولة قائمة . وفى الواقع لقد اكتشفت أن البوسنة كانت مسرحا لصراع دولى آخر ، والأغرب من ذلك أنه كان صراعا بين قوى غربية وعلى وجه الدقة بين الولايات المتحدة وباقى دول أوربا .

فى مايو ١٩٩٢ كانت الحرب قد اشتعلت فى البوسنة والهرسك وتزايدت الأنباء عن عمليات التطهير العرقى ضد المسلمين على يد الصرب ، وحتى أكون منصفا فقد جرت عمليات مماثلة من قبل الصرب ضد الكروات فى سلافونيا الشرقية وكينين وغيرها ، وضد كروات البوسنة فى المناطق المتاخمة للمناطق التى استولى عليها الصرب فى جنوب كرواتيا ، وذلك قبل أن يقوموا هم أنفسهم – الكروات – بإذاقة البوشناق – مسلمو البوسنة – ما ذاقوه هم فى البداية على يد الصرب وقبل أن يعودوا للتحالف معهم وتكوين الاتحاد المسلم الكرواتى – الفيدرالية – من خلال اتفاق واشنطن عام ١٩٩٤ ، وهو الوقت الذى أدرك فيه العالم الغربى أنه لا سبيل إلا بوجود دولة تضم المسلمين والكروات وهو الوقت الذى أدرك فيه الكروات أنه لن تقوم لهم قائمة فى البوسنة بدون المسلمين بعد أن خذلهما الصرب معا .

في الـــرابع عشر من مايو طلب مني الصديق الزميل حلمي عبد العزيز – وكـــان مشرفا في ذلك الوقت على إحدى الجرائد التي يصدرها الحزب الوطني الديمقـــراطي في مصـــر – أن أكتب عن البوسنة ، وكنت أتابع وقتها ما يجري هناك .. ولما كان ذلك واجبا وطنيا أيضا ، وعلى الرغم من أن الأمور كانت في الوقـــت نفسه ما تزال مشوشة فقد كتبت أول مقال لي عن البوسنة تحت عنوان (مـــاذا يحدث في البوسنة والهرسك ؟) .. كان السؤال موجها للجميع بمن فيهم الدكـــتور بطـــرس غالي الذي كان قد تولى قبل أشهر قليلة منصب الأمين العام للأمـــم المتحدة .. وكان علي أن أتوجه في اليوم التالي إلى الولايات المتحدة في مـــنحة دراســـــية وهـــناك الـــتقيت مـــع عدد كبير من الصحفيين والسياسيين والمواطـــنين العـــاديين وناقشت مع المهتمين منهم تلك القضية التي كانت تشغل بالفعل حيزا كبيرا من تفكيري .. ومنذ ذلك التاريخ بدأ ارتباطي الحقيقي بالبوسنة ولم أكن أدرك أنني ولسنوات طويلة قادمة سوف أكون شاهدا ليس على ماحدث أثناء الحرب .. بل ماحدث أثناء السلام .

وعلى الرغم من أنني أبدأ في كتابة صفحات هذا الكتاب من إحدى شرفات المـــنزل الذي كنت أسكن فيه في شارع تيتوفا في سراييفو في نهاية عام ١٩٩٩ وبعد نحو أربع سنوات من حلول السلام الظاهري إلا أنني يجب أن أنقل ماقاله لي أحـــد حكمـــاء هذا البلد قبل أن أغادر البوسنة في أواخر ذلك العام إذ قال " البوسنة هي جزء من البلقان .. ويخطئ من يعتقد أن السلام قد حل في المنطقة بانـــتهاء الحـــرب في البوســـنة وكوسوفو ، كما يخطئ من يعتقد أن السلام في الشرق الأوسط قد حل .. فالسلام لن يحل ما لم تنته أطماع الطامعين في البلقان وما لم تنته إلى الأبد أطماع إسرائيل في جيرانها .. وستظل النيران مشتعلة تحت رمـــاد كثيف هنا وهناك .. ما لم يحدث شيء عظيم يطفئها إلى الأبد أو يشعلها من جديد " .

إننى أؤكد منذ البداية أننى لست هنا بصدد تقديم دراسة تاريخية أو سياسية عما حدث فى البلقان وبشكل خاص فى البوسنة ثم كوسوفو من بعدها وقد كنت شاهدا أيضا على ماحدث بها ولكنى بصدد تقديم شهادة عِيان لما حدث فى البوسنة ليس أثناء الحرب بل أثناء السلام وتحليل بعض هذه الأحداث والأوضاع الناشئة عن الحرب واستخلاص العبر منها حتى نضمن أن تكون الرؤى فى المستقبل أكثر وضوحا ، وحتى لا ينسى القارئ العربى البوسنة والهرسك ولكى لا يسود الاعتقاد بأن قضية هذه البلد قد انتهت وأننا يمكن أن نضعها فى خلفية ذاكرتنا .

ومنذ وطأت قدمى أرض كرواتيا فى الأيام الأولى من عام ١٩٩٦ ثم أرض البوسنة فى أكتوبر من العام نفسه ، ولأربع سنوات تقريبا ، أصبح لى كثير من الأصدقاء الذين لم أكن أتوقع أن تجمعنى بهم تلك الصداقة العميقة والحميمة وبتلك السرعة وذلك الدوام .. كانوا لى عونا فى عملى كمراسل لوكالة أنباء الشرق الأوسط فى المنطقة أو فى حياتى ، وفى تغلبى على معاناة الأيام والليالى الطويلة الشاقة وخاصة عندما كانت سراييفو لا تزال مجرد حطام . وكانوا – وهو الأهم – عونا لى فى فهمى للأمور وإرشادى فى طرق وعرة ودروب مظلمة فى أكثر بقاع الأرض تعقيدا رغم أننى كنت بالفعل أعرف أننى أضع قدماى فى منطقة لا مثيل لها فى كل أنحاء الدنيا من مثل هذا التعقيد السياسى والعرقى والدينى وقبل كل شىء هذا التعقيد الاجتماعى .

ولعلى أذكر هنا ودون أن أخل بحق كثيرين من الأصدقاء البوشناق والكروات والمسلمين والمصريين الذين عاونونى فى مهمتى ما قدمه لى من عون كل من السيد حارث سيلايدجتش رئيس وزراء البوسنة المثقف الذى يمثل الجيل الجديد القادم من الزعماء الأكثر تفتحا واستنارة وحبا لبلاده والمدركين

لحقــائق العــالم الجديد والذى أعتقد بل وأتمنى أنه سيكون الزعيم الذى سيتولى قيــادة البوسنة فى سنواتها القادمة بعد انتهاء مهمة الحرس القديم والقدير وعلى رأسهم المناضل على عزت بيجوفيتش .. كما أذكر بكل التقدير السفير أحمد عبد الــرحمن أبو طالب سفير مصر السابق فى البوسنة الذى كان وبحق السند الأول لى فى البوسنة – والسيد ميرزا خيرتش مستشار الرئيس على عزت بيجوفيتش والصديق العزيز الشيخ مصطفى تسيرتش رئيس العلماء ومفتى البوسنة والسيد عزت ستارتشفتش السكرتير العام لاتحاد الغرف التجارية فى البوسنة والهرسك والســفير عبده حضروفيتش القائم بأعمال سفير البوسنة فى القاهرة – سابقا – والسفير هانى خلاف سفير مصر فى ليبيا وسفيرها السابق فى بلجراد .

الفصل الأول

الطريق إلى ســراييفـو

تـراجيديـــا .. لم تنته

فى ركـــن صـــغير عـــلى طائرة نقل عسكرية من طراز سى ١٣٠ تحمل علامـــات الجيـــش الملكى النرويجى تابعة لقوات تنفيذ السلام فى البوسنة كنت مربوطا إلى مقعد مصنوع من شرائط قماشية وحولى العشرات من الوجوه التى تحمل سمات متباينة ، إيطالية وألمانية وأمريكية وغيرها وأزياء عسكرية مختلفة تحمـــل كـــل منها أيضا سمات كل تلك الدول .. كنت أقبع فى ذلك الركن وأنا أحاول أن أنسى ضجيج المحركات الأربعة لهذه الطائرة العسكرية الضخمة وهى تحملنى أخيرا إلى سراييفو .

ولـــم تكن تلك هى المرة الأولى التى أركب فيها طائرة من هذا النوع لكنها كانت بالتأكيد المرة الأولى التى أكون فيها جزء من هذا الخليط الدولى منذ انتهاء حـــرب الخليج خينما كنت أقوم بتغطية عملية تحرير الكويت .. هذا الخليط من العسكريين والمدنيين كان له وجهة واحدة .. وربما اختلفت أسباب كل واحد منا وربمـــــا اختـــلفت نـــتائج الرحلة .. إلا أن كل شىء كان يبدو متجها إلى نفس الهـــدف .. فقـــد توقفت الحرب فى البوسنة ورفع الحصار عن سراييفو .. وبدأ عصـــر جديـــد مـــن السلام هناك .. وبدا كأن من فاتهم استثمار سباق الحرب أصبحوا فى عجلة من أمرهم لاستثمار سباق السلام .

المســـافة من زاجرب عاصمة كرواتيا ، حيث انتظرت هناك عشرة أشهر كاملة لأبدأ هذه الرحلة إلى سراييفو ، لا تتعدى النصف ساعة بالطائرة ، إلا أننى قطعـــتها فى أكـــثر من ثلاث ساعات بتلك الطائرة الضخمة ، فقد كان علينا أن نهـــبط فى مطـــار مدينة توزلا الذى تحول - وقتها - إلى أكبر قاعدة عسكرية

جويـــة أمـــريكية فى البلقان كله انتظارا لانقشاع الضباب من مطار سرايييفو .. وعـــلى أرض المطـــار رحت أتحدث مع الطيار النرويجى وأسأله عن التوقف الطويل وعما إذا كان بمطار سرايييفو أجهزة ملاحية للمساعدة على الهبوط أثناء الضباب .. وعندما عرف أنها المرة الأولى التى أزور فيها سرايييفو ضحك قائلا إنـــه لـــم يـــبق فى سرايييفو شئ حتى تبقى هناك مثل تلك الأجهزة .. وقال لى مساعده "أنه لوعرف من قاموا ببناء هذا المطار ما سيحدث فى المستقبل لما بنوه فى وسط منطقة الجبال صانعة الضباب .. وعلى أية حال عندما تصل سرايييفو ستعرف بنفسك كل شىء" .

وتهدر المحركات مرة أخرى وبعد دقائق قليلة .. وبلا إعلان كالذى تذيعه مضيفات الطائرات المدنية كانت عجلات الطائرة تـــدب بعنف على الأرض .. كـــنت خلال تلك الدقائق كمن يركب آلة الزمن .. أنتقل من مكان إلى آخر دون أن أرى شــــيئا أو أعـــرف شـــيئا ، فليس هناك سوى هذا الخليط العجيب من حـــولى .. وفى الـــنهاية توقفت المحركات وانفتحت مؤخرة الطائرة وقفزنا إلى الأرض .. وتطلعت حولى .. أنا فى سرايييفو ..

منذ اللحظة الأولى يقتنع المرء بأن حربا توقفت هنا قبل أيام .. فالمطار لم يكن مطارا بالمعنى المعروف .. بل كان مجرد مجموعة من الخيام والطائرات العسكرية من كل لون ومن كل بقاع الأرض ، ومبان كانت من قبل يطلق عليها مطـــار ســـرايييفو الدولى لم تعد سوى كومة من الحطام .. وطائرة تقف بعيدًا وحيدة مهملة تحمل علامات شركة الطيران اليوغسلافية قيل لى أنها تقف هناك مـــنذ بداية الحرب .. ولا تزال تلك الطائرة هناك فى مكانها حتى الآن .. وفوق تـــلك المـــبانى والخيـــام رُفع علم فرنسا – التى كان جنودهـــا يسيطرون على المطار ويديرونه – إلى جانب علم قوات الناتو .. والامم المتحدة ..

إجــراءات بســيطة .. بــل ربما لم تكن هناك إجراءات على الاطلاق .. وكــانت تــلك هى المــرة الأولى - والأخيرة - التى أدخل فيها إلى دولة دون تأشــيرة ودون المــرور عــلى جــوازات ودون أن أحصل حتى على تصريح بــالدخول .. كــانت البطاقة الصحفية التى تمنحها قوات تنفيذ السلام للصحفيين كفيــلة بكل شيء .. فعندما طلبت من الصديق الدكتور قاسم ترنكا وكان وقتها ســفيراً للبوســنة فى كرواتيا - وهو أيضا أحد مهندسى اتفاق دايتون للسلام - تأشيرة دخول إلى البوسنة ، قال لى .. " ياسيدى نحن نريدكم هناك .. وعليك أن تذهب فقط ولن تجد هناك من يمنعك .. إن بلادنا مفتوحة للجميع " .. ولقد رأيت ذلك .

أعبر مجموعة المبانى المدمرة ثم بوابة حديدية صغيرة حيث أجد الصديق الشاب عاصم رواشدة .. وهو صحفى أردنى لم يكن قد بلغ التاسعة عشرة من عمره وقتها ، وكان هذا الشــاب أكبر عون لى فى ســرايبفو حتى غادرتها بعد هــذا الــتاريخ بثلاث سنوات .. وفى سيارته الصغيرة وضعت حقائبى وبدأت رحلتى الطويلة فى ذلك العالم المجهول .

قــبل اثــنى عشر عاما تقريبا من يوم وصولى إلى سرايبفو كانت المدينة وقــتها تستعد لاستضافة دورة الألعاب الأوليمبية الشتوية ، وكرست يوغسلافيا الاتحاديــة كل جهودها لكى تبدو المدينة فى أجمل صورها .. وكان قد تم بناء العديــد من الملاعب الرياضية الشتوية الجديدة واستاد ضخم وآخر مغطى وهو المعــروف باســم (زيــترا) بل تم بناء أحياء بأكملها ومن بينها ، نوفى جراد ودوبرينيا وكذلك عدد من الفنادق كان من بينها فندق هوليداى إن ، وقد قدر لهذه المنشــآت جميعا أن تدمر تماما أثناء الحرب ، فيما عدا فندق الهوليداى إن الذى

قــدر له أن يكون شاهدا على أحداث الحرب التى اندلعت بعد ذلك بثمانية أعوام بل وناله الكثير من ويلاتها .

فى ذلــك التاريخ أصبحت سراييفو - كما كانت دائما - واحدة من أجمل مــدن أوربــا وأضيئت على مدى الأشهر التالية مآذنها القديمة وقبابها النحاسية الخضــراء ومنارات كنائسها الكاثوليكية والارثوذكسية .. ولم يكن لأى شخص مهمــا بلغت قدرته على الوصف أن يحدد على وجه الدقة ملامح صورة الحرب التى عاشتها تلك المدينة الصغيرة .. ولا يمكن أيضا لأى كتاب مهما بلغ حجمه أن يجمــع كل الروايات والحكايات والقصص التى وقعت ما بين لحظة إطلاق أول رصاصـــة فى الحــرب والــتى راح ضحيتها - سعادة أول شهيدة - وبين إطلاق آخر طلقة سقطت فوق سوق ماركالا التى قتلت أكثر من سبعين شخصا فى ثــوان فى عــام ١٩٩٥ .. ففى غابات البوسنة ، وفوق جبالها ، وفى قراها الــبعيدة عن العيون وقعت أبشع الجرائم التى يمكن أن تكون الأسوأ فى التاريخ الحديث أو القديم على السواء .

فى لحظـــة غفلة من الزمن فتحت جهنم أبوابها لتصب نارها وحممها فوق المديــنة الســاكنة فى قــلب الوادى الضيق الذى يخترقه نهر ملييتسكا .. لحظة اســتمرت أربع سنوات !! وعندما أغلقت جهنم أبوابها كانت قد تركت (سراى البوســـنة) أطلالا حزينة وبقايا جمال هنا وهناك .. وشظايا صور جميلة .. بقايــا .. لم يعد هناك سوى بقايا من كل شىء .. وكانت الصورة تتكرر فى كل مدينة وقرية ..

وهكــذا وفى اليــوم الثامن من شهر أكتوبر عام ١٩٩٦ كنت أخطو أولى خطــواتى نحــو قلب المدينة التى كانت ولأربع سنوات طويلة حديث العالم .. المديــنة الــتى أطلقت من أجلها صرخات الملايين من كل أنحاء العالم " انقذوا

ســـرايـيفو " .. لكـــن يبدو لحسن الحظ أن الاوان لم يكن قد فات تماما .. فعندما وصـــلت إلى قلب المدينة كان كل شىء يسير ببطء ، لكن الحياة كانت رغم ذلك تسير .. وقد طلبت من صديقى أن يسير ببطء حتى يمكننى أن أتفحص كل جزء مـــن الطريق الذى نسير فيه .. فلم أستطع صبرا حتى أصل إلى مكان إقامتى . شـــارع تيـــتوفا أو شـــارع تيتو هو الشارع الوحيد الرئيس الذى يخترق المدينة كلها ، فى بدايته يوجد ثلاثة مبان كانت فى الماضى جميلة ، أولها مبنى صحيفة أوسلوبودجينيا – أو الحرية – ثم مبنى رعاية كبار السن ومبنى سكن الطلاب ، وعلى الناحية الأخرى كانت تقع المنطقة الصناعية .. وكانت جميعها قد دمرت فى الســـاعات الأولى للحصـــار ، وعلى الرغم من أن معظم هذه المنشآت أعيد بـــناؤه بمـــا يشـــبه المعجزة فى فترة وجيزة بعد الحرب ، إلا أن المسئولين فى المدينة قرروا أن يتركوا الجانب الأكبر من الجريدة المدمرة كما هو رمزا على العدوان الذى وقع وربما حتى لا ينسى أحد ما حدث ، وهكذا كانت الأشواك التى زرعها الحقد أثناء الحرب تنمو مع بداية السلام .

كـــانت صـــدمتى فى الواقـــع كـــبيرة .. وعلى الرغم من أننى شاهدت ما تعرضـــت له مـــدن كـــثيرة مـــن جراء الحرب سواء فى بلدى مثل السويس والإســـماعيلية ، أو فى بـــلاد أخرى مثل الكويت .. إلا أن مشهد سرايـيفو كان مختـــلفا ، ففى هذا الشارع الطويل الذى يخترقه خط الترام ، لم يكن هناك وقتها ســـوى تـــرام واحـــد ذو عربتين يذرع المدينة جيئة وذهابا مكدسا بعشرات من المواطـــنين .. وأعادتـــنى الصـــورة إلى مـــا كانت عليه القاهرة فى منتصف السبعينيات بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، وجاءنى الرد على سبب وجود هذا الترام الوحيد بأسرع مما توقعت ، فهناك إلى جوار المبنى الذى مازالت تحتله مكاتب الأمم المتحدة كانت المأساة مجسدة .. على اليمين عشرات من عربات الترولى الكهـــربية ، تقـــف عـــلى مساحة شاسعة من الأرض وقد تفحمت ، وما لم يكن

محترقا منها فقد ناله من التدمير والفساد بفعل أربع سنوات من الحرب والأمطار والثـلوج ما يجعل منها مجرد قطع حديدية لا تصلح لشيء . أما على الجانب الأيسر من الشارع فى نفس المنطقة فقد كانت هناك عشرات من عربات الترام ترقد بنفس الطريقة فى صورة مكررة .. أما منازل المدينة فكانت - بلا استثناء يذكـر - بلا نوافذ زجاجية وقد غطتها قطع من البلاستيك كتب عليها الحروف المميزة للمفوضية العليا للاجئين .. وبدا لى للحظة أن المدينة ليست إلا معسكرا كبيرا للاجئين . والأغرب من ذلك أنه حتى السيارات القليلة التى كانت تسير فى شوارع المدينة كانت هى أيضا بلا زجاج .

كـان صديقى صامتا بعد أكثر من نصف ساعة قضيتها منذ وصولى إلى المديـنة ، وعـندما تحـدث أخيـرا قال لى إننى لم أشاهد سوء جزء يسير من الصـورة وغـدا نـبدأ جولة حقيقية فقد حل الظلام فجأة ولا تزال سراييفو بلا كهرباء .

على مدى نحو شهر كامل منذ ذلك التاريخ كانت مهمتى الأولى فى البوسنة أن أرى وأسمع وأدون وأن أتحدث مع الناس ، حتى يمكننى أن أرسم فى ذهنى بوضـوح صورة ما حدث هنا على مدى أربع سنوات ، وما يمكن أن يخلفه من آثار فى المستقبل .. وقد أتيحت لى فرصة نادرة قلما تتاح لصحفى .. ففى تلك الفترة الزمنية القصيرة تمكنت من أن أقطع البوسنة طولا وعرضا لأشاهد معظم قراها ومدنها من بيهانتش فى أقصى الشمال الغربى إلى موستار فى الجنوب إلى توزلا فى الشرق وحتى زينتسا فى الوسط ، فقد ساعدنى على ذلك السفير أحمد عبد الرحمن أبو طالب(*) بشغفه الشديد فى معرفة كل جزء من أجزاء البوسنة ،

(*) تـولى السـفير احمد عبد الرحمن أبوطالب منصبه فى يونيو ١٩٩٦ حتى يوليو ١٩٩٩ . وكان يشغل منصب قائد قوات الدفاع الجوى برتبة الفريق .

وكــان فى الوقت نفسه يحاول تحديد أكثر المناطق المتضررة التى يمكن توجيه المســاعدات المصـــرية لها . وفيما بعد عندما قمت بزيارة مدينة بالى - معقل المتشددين من صرب البوسنة - كنت أيضا فى صحبة السفير النشط وتلك قصة تحــتاج إلى تفصــيل ستتضــمنها صفحات الكتاب .. والمهم أن ما رأيته خلال الســاعة الأولى من وجودى فى سراييفو لم يكن سوى افتتاحية لفصول الدراما التى شاهدت آثارها فيما بعد .

لشــخص مثــلى يعيش فى واحدة من أكبر مدن العالم وأكثرها ازدحاما - القاهــرة - فإن سراييفو لا تعدو أن تكون ضاحية صغيرة لم يكن يزيد كل عدد ســكانها في ذلــك الوقت عن سكان شارع غير مزدحم من شوارع القاهرة أو نيويورك أو طوكيو ، بل وينطبق عليها ذلك حتى بعد أن وصل عدد سكانها فى بداية عام ألفين إلى نحو نصف مليون نسمة . وهى مدينة لا تختلف فى طابعها العام عن أى مدينة في يوغسلافيا السابقة بل وفى أوربا بشكل عام . إلا أن أكثر مــا يميزها عن تلك المدن هو مآذنها ذات الطراز المميز التى ترتفع سامقة هنا وهناك وخاصة فى الحى القديم المعروف باسم الباشتشارشيا ، وعلى الرغم من ذلك فإن ما يميز مدينة عن أخرى فى العالم كله ليس إلا صفات أهلها .

فى قــلب سراييفو شارع يقع على الضفة الغربية لنهر ميليتسكا هو شارع فيسونوفو شبيتاليشتا وهو يشبه أحد شوارع القاهرة الشهيرة فى الخمسينيات وهو شارع الجبلاية الذى يطل على النيل فى حى الزمالك ، بل إن هذا الشارع يحمل نفس الصفة التى أطلقها عليه العامة فى القاهرة بأنه شارع العشاق .. ويقال إن أجمــل حكايات الحب التى شهدتها سراييفو بل والبوسنة كلها كان ذلك الشارع الجميــل مهــدا لهــا .. كــان الشارع أيضا أهم متنفس لأهل المدينة فى ليالى الصــيف ، وكانت نزهتهم فيه لا تعادلها إلا النزهة فى حدائق ايلدجا المعروفة

باسم – فريلو بوسنة – والتى ينبع منها النهر الذى اكتسبت البلاد اسمها منه . ولقد شاء قدر الشارع الجميل أن يكون هو الآخر ولأربع سنوات طويلة أن يكون الخـط الفاصل بين المتحاربين .. الصرب فى الشرق والبوشناق والكروات فى الغـرب ، وعندما سرت فى هذا الشارع للمرة الأولى رحت أتخيل الجمال الذى زال وأدركته النيران فاحترقت كثير من أشجاره وذهبت ذكريات جميلة ، وحتى بعد سنوات من انتهاء الحرب كانت ضفتا النهر فى تلك المنطقة تخبئان عشرات من الألغام تحت سطحها ، والغريب أن أهل سراييفو كان همهم الأول بعد انتهاء الحرب هو إعادة الشارع الجميل إلى سيرته الأولى .

وقد شاءت الصدفة وحدها أن أسكن فى الجانب الذى كان يقتطعه الصرب من سراييفو أثناء الحصار فى حى جربافيتسا ، وقد راعنى فى البداية أننى كنت أسـكن فى هـذا المبنى الضخم وحدى تقريبا .. فقد كانت جميع شققه لا تزال مدمـرة بشكل غريب وبعد أكثر من شهرين من إقامتى فى هذا المكان استطعت أن أفهم من صاحبة الشقة ، وهى سيدة طاعنة فى السن ، أن معظم سكان المبنى لـم يعـودوا بعد إليه ، وأن الصرب قبل أن يغادروه – بعد أن تم الاتفاق على عودة الحى لينضم إلى باقى العاصمة تحت سيطرة المسلمين والكروات – قاموا بـنهب كـل مـا هو موجود فيه وحطموا كل شىء وما لم يستطيعوا نقله معهم أحـرقوه بـل أنهم قاموا بإشعال النار فى مبان كاملة ولم يتركوا شيئا فى الحى يمكن للآخرين استخدامه .. ولذلك كان هذا الحى الذى لم يمس تقريبا طوال فترة الحـرب أكـثر مـناطق سراييفو تخريبا .. والغريب أن ذلك كله تم بعد انتهاء الحـرب رسـميا .. خلال الأشهر الأولى من عام ١٩٩٦ . بعد أن سمعت هذه القصة رحت استعيد تلك المشاهد التى كانت تعرضها شاشات التليفزيون العالمية قبل أشهر قليلة ..

كـــان المشـــهد غريـــبا حقـــا .. فقـــد كـــان الجميع على الجانبين يهتفون ويتصـــايحون ، لكـــن هـــدف كل جانب كان مختلفا فى هتافه وصياحه .. كان يفصلهم نهر ميليتسكا الصغير الذى لا يتجاوز عرضه أكثر من عشرين مترا .. على الجانب الشرقى كان الصرب غاضبون ويهددون .. وعلى الجانب الغربى كـــان البوشـــناق والكـــروات يهللون فرحا .. ويهتفون أخيرا رفع الحصار عن سراييفو وانطلقت من صدورهم زفرات طال كتمانها لسنوات أربع أو يزيد على أحـــد شـــاطئى النهر كان بكاء وصراخ وغضب وعلى الآخر كان بكاء الفرح بالســـلام فقد تم فى مدينة دايتون الصغيرة فى ولاية أوهايو الأمريكية قبل قليل توقيـــع اتفاق السلام الذى أنهى الحرب التى أقضت مضاجع أوربا وانتهت بذلك أطـــول وأبشع حرب عرفها التاريخ الحديث منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وولـــدت فى أوربـــا أخيرا دولة مستقلة كادت أن تصبح ثانى دولة إسلامية فى أوربـــا بعـــد البانيا لولا أن العالم وبشكل خاص أوربا لم تكن مستعدة لقبولها .. وعـــلى أية حال وفى ذلك اليوم ارتفع بحرية فوق مآذن المساجد التى تبقت آذان الصلاة ودقت الكنائس الكاثوليكية أجراسها ابتهاجا بالسلام ، وعلى الجانب الآخر كان حريق يشتعل فى بداية طريق طويل تملؤه أشواك السلام الدامية .

صورة عن قرب

لا يعـــادل البـــلقان فى تعـــدد شـــعوبها ولغاتها وعاداتها واختلاف – بل وتـــناقض – الاتجاهات السياسية والدينية فى هذا الإقليم التاريخى سوى الهند ، وهذا الإقليم يضم نحو عشر دول .. وأزعم أن تقدم أوربا واستقرارها أو عرقلة هـــذا الـــتقدم وتهديد الاستقرار فيها مرتبط كثيرا بهذه المساحة من الأرض التى تشكل فخا أو حتى لغما تحت أقدام أوربـــا .

اليونـــان ورومانيـــا وبلغاريا والمجر وألبانيا وخمس دول كانت تشكل فى الماضى القريب دولة واحدة من أجمل وأقوى بلدان أوربا كلها هى يوغسلافيا ..

هـذا هو المسرح التاريخى لمعظم الحروب والصراعات فى القارة الصغيرة .. كـانت تلك المساحة من الاراضى الواقعة فى جنوب شرق القارة مطمعا – ولا تزال – لكل القوى الكبرى فى العالم فقد كان هناك دائما من يقول إن من يسيطر عـلى البـلقان يسـيطر على العالم .. وهكذا ومنذ الامبراطورية اليونانية إلى الامـبراطورية الـرومانية فى العصـر القديم وإلى الامبراطورية العثمانية فى العصور الوسطى إلى الامبراطوريات الألمانية والسوفيتية والأمريكية فى العصر الحديث كانت منطقة البلقان مهدا للأحداث وهدفا لكل من كان يطمع يوما فى أن يحكم العالم .

منذ منتصف ثمانينيات القرن الماضى كان العالم يتجه وبسرعة مذهلة نحو الـتغيير ، فخلال سنوات قليلة وقع الانهيار العظيم للاتحاد السوفيتى ، وتشققت أجزاؤه ثم انفصلت بعضها عن البعض ، وبدا كأن العالم كله يتجه نحو الانشطار السياسـى فانقمسـت كـثير من الدول مثل تشيكوسلوفاكيا ثم انهار حائط برلين وتوحـدت ألمانيا من جديد .. وبدأ العالم الغربى يطارد فلول الشيوعية .. وعلى الـرغم مـن أن يوغسـلافيا كانت تعد الدولة الشيوعية الأكثر اعتدالا فى عهد مؤسسها الماريشال جوزيف بروس تيتو ، إلا أن الوضع اختلف بعد سنوات من وفاته ، وبدأت الأنظار تتجه إلى تلك المنطقة من البلقان حيث كان يتعين تفريغها هى الأخرى من بقايا الشيوعية فى العالم لتصبح أوربا نظيفة .. وعلى الرغم من الاعتقادات التى سادت تلك الفترة من أن بداية الانهيار كانت ستأتى من كوسوفو بسبب الأحداث التى مرت بها منذ وفاة تيتو عام ١٩٨٠ إلا انها كانت فيما يبدو الخاتمة .. أما البداية فكانت فى سلوفينيا عام ١٩٩١ .

فى عـام ١٩٩٠ أجـريت أول انتخابات متعددة الأحزاب فى الجمهوريات السـت فى الاتحـاد اليوغسلافى ، وفى ديسمبر من العام نفسه تولى سلوبودان ميلوشـيفيتش رئاسـة جمهوريـة صربيا .. وبعد عدة أحداث مدبرة من جانب

الجيــش الاتحادى اليوغسلافى ضد الكروات ، قرر البرلمان الكرواتى فى ٢٢ فــبراير ١٩٩١ الانفصــال عــن الاتحــاد .. وبعــد هــذا التاريخ بأربعة أيام اعلنت المناطق الصربية – وهى سلافونيا وبارانيا وسلافونيا الغربية – سرييم الغربية – فى كرواتيا إعلان الحكم الذاتى ، ثم أعلنت الاتحاد فيما بينها بعد ذلك وقــررت الانفصــال عــن كرواتيا وإطلاق اسم جمهورية صرب كرايينا على نفســها ، وجعلت من مدينة كينين الواقعة على ساحل بحر الادرياتيك عاصمة لهــا .. وقــد حــاول الرئيس الكرواتى فرانيو تودجمان وقتها تدارك هذا الأمر فاجــتمع فى ٢٥ مارس من نفس العام مع سلوبودان ميلوشيفيتش رئيس صربيا فى ذلك الوقت – فى كاراديوريبفو – ثم اجتمعا مرة اخرى بعد عشرين يوما فى تكفــاس وفى هذيــن الاجتماعين اتفقا على مبدأين هامين ، الأول اقصاء رئيس وزرء الاتحــاد اليوغســلافى وقتها انتو ماركوفيتش – وكان كرواتيا – بهدف القضــاء على اصلاحاته الاقتصادية أما المبدأ الثانى والأكثر خطورة هو تقسيم البوسنة والهرسك الى مناطق نفوذ بين كرواتيا وصربيا .. والمبدأ الثانى هو ما كشفه الرئيس المقدونى كيرو كليجروف فى بدايات عام ٢٠٠٠ .

ووســط أحــداث متســارعة كان رؤساء الجمهوريات اليوغسلافية الست يحــاولون تحديد مصير الاتحاد ، وفى ٢١ يونيو عام ١٩٩١ اعلن البرلمان فى ســلوفينيا الاستقلال عن الاتحاد اليوغسلافى ، وقامت قوات الشرطة باقامة نقاط حدود ية على جميع خطوط الحدود بينها وبين كرواتيا وايطاليا والمجر والنمسا، وفى اليوم التالى أقامت كرواتيا نقاطاً مماثلة وقامت الجمهوريتان بسحب ممثليهم من البرلمان اليوغسلافى الاتحادى .

يعتبر يوم ٢٧ يونيو ١٩٩١ هو يوم بداية الحرب فى يوغسلافيا السابقة بل يعتــبر هو يوم بداية الانهيار الحقيقى للاتحاد الذى اصبح هشا .. فى ذلك اليوم

بــدأ تدخل الجيش الاتحادى فى سلوفينيا لمحاولة إزالة نقاط الحدود التى أقامتها الشـــرطة الســلوفينية وبدأت حرب الأيام السبعة بين الجانبين ، ولكن الأمر لم يستغرق طويلا فعلى الرغم من أن إعلان سلوفينيا الاستقلال كان بمثابة انفجار داخــلى صــغير الا أنـــه مــن الواضح أن السياسى المغمور – وقتها – ميلان كوتشــان كــان قــد أعــد عدته جيدا فقد جمع حوله وبتأييد من ألمانيا – الأب الــروحى – وإيطاليــا – الجــارة الطيبة – عددا كبير من المثقفين والسياسيين القوميين الذين أدركوا أن يوغسلافيا شأنها شأن الاتحاد السوفيتى يجب أن تختفى من عالم يبحث عن مستقبل جديد .. ولم تكن ثورة ميلان كوتشان – الذى أصبح فيمــا بعد الرئيس الديمقراطى لشعب صغير ودولة ربما كانت واحدة من أصغر دول أوربــا – ثورة بمعنى الكلمة رغم أنه تم الترتيب لها منذ شهور طويلة وتم الحشــد المعنوى المطلوب داخليا وخارجيا ، فقد كانت سلوفيينا فى كل مراحل الاتحاد اليوغسلافى منذ نشأته تعتبر نفسها جزءا من أوربا الغربية وثقافتها فهى الأقرب جغرافيا لقلب الوسط الأوربى وكذلك الأقرب إلى نهج اقتصاده الحر .. إلا أن ســلوفينيا كــانت تعتبر حائط الصد الشمالى لكل يوغسلافيا ضد الأطماع الغربية التى لم تكن فى شكلها الظاهرى تعادل الأطماع القادمة من الشرق ذلك لأن يوغســلافيا حــافظت ولسنوات طويلة على علاقات جيدة مع جيرانها مثل النمسا وألمانيا وإيطاليا .. ولذلك فقبل أن ينتهى العام – ١٩٩١ – كانت مجموعة دول الاتحاد الأوربى قد اعترفت بسلوفينيا كدولة مستقلة .

ولكن قبل أن تنتهى آثار الانفجار الأول كانت كرواتيا قد أعلنت الاستقلال بدورهــا وفى اســتفتاء ديموقراطى تم وفقا لشروط الغرب من أجل الاعتراف بهــا – وبــدأ الانفجار الثانى والأخطر ينذر بقدوم الحرب ، وعلى الرغم من بعــض الأحــداث الدموية المتفرقة التى ارتكبها صرب كرواتيا بمعاونة الجيش

الاتحادى اليوغسلافى إلا أن بداية الحرب الحقيقية فى كرواتيـــا يؤرخ لها بيوم ٦ يوليو عام ١٩٩١ عندما قامت وحدات من الجيش الاتحادى بإشعال النار فى مديـــنة تسليى فاحرقتها بالكامل وقتلت معظم سكانها وطردت الباقين منه ا لتمتد الحـــرب بعدهـــا الى كل مكان ، وأصبح الجيش الاتحادى متورطا بالكامل فى الحـــرب إلى جانب المتمردين الصرب وقام باحتلال العديد من المدن الكرواتية حـــتى يوم ١٤ سبتمبر وهو موعد بدأ مأساة مدينة فوكوفار .. وفى اليوم التالى أطـــلقت صفارات الإنذار من الغارات الجوية فى سماء العاصمة زاجرب للمرة الأولى .. وبدأ الهجوم ضد مدينة دوبروفنيك التاريخية ..

كـــان الانفجـــار الـــثانى أقـــوى من الأول وأكثر خطورة وأكبر تأثيرا .. فكـــرواتيا هى أكـــبر جمهوريات الاتحاد – الذى كان – وأغناها ، وهى تضم معظـــم ســـواحل الاتحـــاد على بحر الادرياتيك وفى شرقها تقع حقول البترول الوحيدة فى كل أوربا – إذا ما استثنينا بحر الشمال – وهى أيضا البوابة الشمالية والغـــربية للاتحـــاد على أوربا ، وكان إغلاق هذه البوابة وهذه السواحل يعنى انفصال صربيا عن القارة أو عزلتها بحزام يشبه الهلال وكذلك باقى جمهوريات الاتحـــاد .. لقد كان انفصال كرواتيا يعنى أيضا أن حلم صربيا الكبرى سينهار وسيصـــبح الصـــرب أقـــلية تحـــت سيطرة الأعداء التقليديين والتاريخيين فى كـــرواتيا .. ولذلك كان هناك مبرر قوى لأن تعلن بلجراد الحرب لسنوات حتى عـــندما اعترفت أوربا باستقلال كرواتيا فى أواخر العام وتم الاتفاق على إنهاء الأعمال العدائية بين قوات الحرس الوطنى الكرواتى والجيش اليوغسلافى – وقد تم الاتفاق فى سراييفو – وانسحاب الجيش اليوغسلافى إلى البوسنة ، ظلت هذه القـــوات مـــتورطة فى الحـــرب بمساعدة المتمردين الصرب الذين أعلنوا الآن جمهوريتهم المستقلة فى كرواتيا ..

كان البركان الذى ظل خامدا لأربعين عاما قد استيقظ وكانت يقظته عنيفة أشعلت من جديد كل الخلافات التقليدية القديمة بين تراثين وحضارتين وعقيدتين مختلفـتين فى ديـن واحد .. وتكررت أحداث الماضى ، صدام مروع وضحايا بعشـرات الآلاف وتشريد مئات الآلاف وقد قدر لى أن أشاهد عن قرب نتائج هـذا الصـدام وآثاره – كما سبق وأشرت – والتى ستظل باقية لسنوات طويلة قادمـة ، ذلـك عـندما أتيحـت لى الفرصة بالتجول فى أنحاء ما كان يسمى بجمهورية كرايينا الصربية التى شقت أنحاء كرواتيا إلى نصفين غير متصلين ، شـاهدت فى فوكوفار ما كان كفيلا وحده بأن يدق للعالم ناقوس الخطر حول ما يمكـن أن يحدث بعد ذلك فى البوسنة لكن أحدا لم ينتبه .. فى فوكوفار لم يكتف أربعيـن ألـف جندى من جنود الجيش اليوغسلافى والميليشيات الصربية شبه العسكرية – التشتنيك – باحتلال المدينة وطرد سكانها من الكروات .. لقد راحوا يدمـرون بيوتهـا بيـتا بعد آخر حتى أصبحت أطلالا خربة ومات تحت هذه الأطلال وتحت جنازير الدبابات عشرة آلاف إنسان ودفن من أسعده حظه منهم فى مقـبرة جماعيـة تم اكتشافها وانتشال من فيها بعد خمس سنوات من سقوط المدينة .

كانت فوكوفار رمزا للصدام بين عقيدتين وإرادتين .. وكان الصدام مروعا كمـا قـلت وكـانت أطماع فرانيو تودجمان ، الذى لم يكن قد سيطر بعد على الأراضـى الكرواتية ، قد ذهبت أدراج الرياح بعد تدمير المدينة .. لكن الرجل كـان مـثابرا وعـنيدا وظل لسنوات طويلة يعد العدة لاستعادة كرواتيا من يد الصرب . وبعد أربع سنوات فاجأ العالم بعمليتين عسكريتين متزامنتين فى عام ١٩٩٥ أسـقط فيهما الجمهورية الصربية المزعومة ورد الصاع صاعين انتقاما لفوكوفـار ، فدمر مدينة كينين وأعاد إلى كرواتيا ما اقتطع منها وطرد الصرب

منها وأعلن كرواتيا نظيفة من الصرب ، وبعد انتهاء الحرب أعيدت المناطق الثلاث فى الشرق - سلافونيا الشرقية وغرب سريم وبارانايا - إلى كرواتيا بقرار من الأمم المتحدة .

منذ بداية العام ١٩٩٢ كانت الأنظار تتجه إلى البوسنة .. فقد كان المرجل يغلى منذ زمن .. فقد قررت الأمم المتحدة أن يكون مقر قوات حفظ السلام فى كرواتيا فى سراييفو .. لكن الأحداث مضت بسرعة .. ففى السابع والعشرين من فبراير وبعد أن استقرت الأمور على الجبهة الكرواتية لم ينس الجانبين المتحاربين البوسنة التى أعلنت أنها سوف تجرى إستفتاءا على الاستقلال واجتمع ممثلو فرانيو تودجمان وسلوبودان ميلوشيفيتش فى مدينة جراتز النمساوية القريبة من الحدود السلوفينية وترأس الجانب الكرواتى جوزيب مانوليتش - الساعد الأيمن للرئيس الكرواتى - وفى الجانب الصربى كان هناك رادوفان كارادجيتش رئيس الحزب الديمقراطى الصربى فى البوسنة ومعه كوليفيتش ، وهناك بحثا امكانية قيام اتحاد - كونفيدرالى - فى البوسنة كخطوة أولى لتقسيمها بين صربيا وكرواتيا .. وللمرة الثالثة فشل الجانبان فى الوصول إلى اتفاق ، وخرج كل جانب وفى ذهنه الاستيلاء على البوسنة والهرسك .

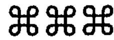
بعد يومين من ذلك التاريخ جرى الاستفتاء فى البوسنة والهرسك وعلى الرغم من مقاطعة الصرب له إلا أن ٩٩,٤ فى المائة من الأصوات اختارت الاستقلال عن الأتحاد اليوغسلافى .. وهنا وقع الانفجار الثالث الذى هز أرجاء أوربا وأستمر يدوى لأربع سنوات كاملة فى أعنف حرب تشهدها أوربا منذ أنتهاء الحرب العالمية الثانية .. وقبل أن يقع الانفجار الأخير فى كوسوفو قبل أن ينتهى القرن .

فى اليوم التالى لإعلان نتيجة الاستفتاء بدأت الحرب فى البوسنة وقام الصرب بالهجوم على مدن موستار واوسيك وستولاتس وترافنك وفاراش

وتربيــنيا وغيرها ، ودخلت دبابات الجيش اليوغسلافى شوارع بيلينا واحترقت بوسانســكى بــرود .. وأخيرا بدأت الميليشيات الصربية مدعومة بقوات الجيش اليوغســلافى فى حصـــار ســرايفو اعتبارا من أول أبريل ١٩٩٢ وبعدها بدأ الــتفاوض من جديد بين كروات البوسنة وصرب البوسنة فى جرانتز ، وترأس الوفــد الكــرواتى هــذه المــرة ماتى بوبان زعيم كروات البوسنة بينما ترأس كارادجيــتش لــلمرة الثانية وفد صرب البوسنة وأعلن الجانبان بعدها أنه لم يعد هــناك ســببا للعداء بين الجانبين فى البوسنة .. كانا يريدان أن يظهرا للعالم أن المســلمين وحدهــم هــم المسئولين عن الحرب فى البوسنة لكن هدفهم انكشف وتسارعت الاحداث وتصاعدت لتستمر أربعة أعوام طويلة .

إن الحديث عن يوميات ما حدث بين الأول من أبريل ١٩٩٢ وتوقيع اتفاق ديــتون للسلام فى نوفمبر عام ١٩٩٥ إنما يحتاج لعدة كتب منفصلة حتى يتاح لــلمرء أن يعــرف حقيقــة ما جرى وأن يطلع على البطولة التى أبداها الشعب البوســنوى تحــت الحصـــار فى جوراجدة وبيهاتش وموستار وسرايفو .. وقد سطرت هذه اليوميات فى كثير من الكتب بالفعل وما يعنينا هنا هو المستقبل .. فالبوسنة والهرسك تحتاج منا لا أن ننكأ مزيدا من الجراح بل أن نضع أصابعنا عــلى مصـــادر القوة والضعف فى هذا البناء الوليد حتى يمكن أن يرتفع ، وأن يــأخذ شــعب هذا البلد المكانة التى يستحقها بين شعوب أوربا والعالم .. ولست ممــن يرون أن هذا الهدف بعيد المنال .. كما أننى مع من يرون أن البوسنة لم تعــد بحاجــة إلى مساعدات إغاثية إنسانية .. بل تحتاج إلى إعادة بناء الإنسان والوطن وهو ما يحتاج منها إلى أن تبذل كثيراً جداً من الجهد مع جهد آخر من المجــتمع الــدولى . وتلك كانت وجهة النظر المصرية .. فقد روى لى مسئول

مصرى أن بعض المسئولين فى المشيخة الإسلامية فى البوسنة طلبوا من السفير المصـــرى فى البوســـنة مســـاعدتهم عـــلى إقامة شواهد رخامية لمقابر شهداء الحرب ، وكان تقديرهم أنها سوف تتكلف عدة ملايين من الدولارات ، وما كان مـــن الســـفير إلا أن قال إن مصر سوف تقدم هذه المساعدة ولكن ليس للشهداء وإنما لأبناءهم ، فسيكون الشهيد أكثر سعادة عندما يرى أن البوسنة التى استشهد مـــن أجلها ترفع رأسها بإعادة بناء مصانعها ومدارسها ومستشفياتها أكثر مما يسعده أن يقام له شاهد تكتب عليه قصة بطولته ..



الفصل الثانى

أشـــواك الســـلام

ماذا تملك البوسنة ؟

حتى قبل عام ١٩٩٢ وقبل تفكك الاتحاد اليوغسلافى القديم كان اقتصاد الجمهورية التى تحمل اسم البوسنة والهرسك واحدا من أقوى اقتصاديات الاتحاد كله .. بل إن ميزانها التجارى كأقليم اقتصادى مستقل مع الخارج كان يميل دائما لصالحها .. ولا شك أن موقعها الجغرافى الوسيط بين جمهوريات الاتحاد الأخرى وطبيعتها المناخية قد منحاها ميزات كثيرة فضلا عن توفر مصادر الثروة من قوى بشرية تتميز بالكفاءة والنظام إلى ثروة طبيعية سخية من فحم وحديد ومعادن أخرى وطاقة كهربية وأرض زراعية خصبة ربما لا يوجد مثيل لها فى كل أوربا ، إذ على الرغم من صغر مساحتها إلا أنها تملك تنوعا مناخيا فريدا جعلها تنتج العديد من المحصولات غير التقليدية فى أوربا مثل التبغ فضلا عن الغابات التى تمثل ثروة لا تنتهى ، إلى جانب وجود احتمالات للعثور على البترول فى مناطق الهرسك .. وفضلا عن ذلك فإن الطابع الثقافى الذى كانت تمثله البوسنة وسط جمهوريات الاتحاد كان يجعلها إقليماً متفرداً .. وفى الوقت نفسه لا يمكن إغفال أن البوسنة بما تملك من تاريخ ثقافى متنوع سواء كان ذلك ثقافة دينية أو حضارات شرقية وغربية امتزجت فيها يجعلها متفردة فى كل أوربا بالاضافة إلى طبيعتها يمكنها من أن تأخذ مكانا بارزاً فى عالم السياحة ، وهى صناعة لا تزال البوسنة تفتقد الكثير من حرفيتها على الرغم من وجود مقوماتها وبشكل خاص السياحة الشتوية التى تتميز برخصها ..

وباختصار فإن البوسنة كانت تملك منذ البداية مقومات الدولة اقتصاديا .. ولم تكن على جانب آخر تفتقد مقومات الدولة السياسية خاصة أنها كانت تتمتع

ببرلمان متعدد الطوائف - بغض النظر عن ممارسات ذلك البرلمان فى فترة ما قبل الحرب - إلا أن كل هذه الثروات والقدرات والمقومات كانت تخضع لتمييز عنصرى بالغ الوضوح .. فنظرا لطبيعة الدولة الشيوعية وسيطرة القومية الصربية على معظم مؤسسات الدولة السيادية سواء السياسية أو العسكرية أو الاقتصادية فقد تم تركيز السلطات ومصادر الثروة فى أيدى القوميين الصرب ، ولم يترك للبوشناق سوى بعض الوظائف الرمزية فى الصفوف العليا وقاعدة عريضة من الوظائف فى الصفوف الأقل تأثيرا .. وفى الأيام الأخيرة قبل إعلان الاستقلال كانت هناك عمليات استنزاف لكل الثروات التى يمكلها المسلمون والكروات فى البوسنة .. وفى سراييفو على وجه الخصوص .. فقد تم سحب معظم العملات الأجنبية من الأسواق ، وبدا للجميع بمن فيهم المسلمون والكروات أن الصرب يعدون لشيء ما .. وعلى الرغم من التحذيرات الكثيرة التى وجهها بعض المثقفين إلى المواطنين من ضرورة الاحتفاظ بثرواتهم - الضئيلة - إلا أن الفكرة التى كانت متمكنة من العامة هى أن شيئا لن يحدث ، وعندما بدأ الحصار فى مايو ١٩٩٢ لم يجد مواطنوا العاصمة شيئا .. حتى جميع الاحتياطيات الاستراتيجية من سلع وأموال وصكوك وغيرها كانت قد اختفت مع اختفاء صرب المدينة .. وما حدث فى سراييفو حدث فى مدن كثيرة .. كانت الخطة هى تحطيم مقومات الدولة .. حتى إذا ما أعلنت كان الفشل حليفها إلى زمن طويل .. وما لم يتمكن صرب البوسنة من تحطيمه هو إرادة البوشناق فى أن تكون لهم دولتهم .. وهى الدولة التى شارك فيها الكروات بحكم مصيرهما المشترك ..

وإذا فالبوسنة قد أثبتت على مدى سنوات الحرب وما بعدها أنها يمكن أن تصبح دولة جيدة بمقوماتها التى تملكها بالفعل .. إلا أن هناك أهدافا يتعين

تحقيقها حتى تقف من جديد على قدميها .. ولنقل إن هناك أشواكا لا تزال تدمى أقدامهـا يـتعين نزعها حتى يمكن أن تلحق بالركب الذى فاتها طوال سنوات الحرب ..

وفى اعـتقادى أن أهم الأهداف التى يتعين أن تتركز عليها جهود المجتمع الـدولى والبوسـنويين أنفسـهم تتلخص فى ست نقاط رئيسية هى : الاقتصاد باعتـباره العمـود الفقـرى فى وضع أى دولة على خريطة النشاط الدولى فى عصـر تتسارع خطواته وتضيق حـدوده التجارية والاقتصادية وتوفير المناخ المناسـب لـلعمل والأمان والأمن اللازمين لإحياء الاقتصاد ، ومن بين ذلك إدراك أهميـة اكتشاف الأمراض الاجتماعية التى سببتها الحرب والبحث عن السبل الكفيلة بمعالجتها مع إدراك أن مجتمع يتمتع بالصحة البدنية والنفسية هو مجتمع مؤهل لدخول عالم جديد يكاد يصل إلى حد الاندماج ، وهو عالم بالقطع لن يرضى بدخول غير الأصحاء فيه ، ويضاف إلى ذلك القضاء على الألغام وإعـادة النظر فى النظام الحاكم وإصلاح الهياكل السياسية بإعتبار أن حكومة واعية ومترابطة ومنسجمة هى أساس نجاح الدولة فى إدارة دفة السفينة فى هذا العـالم المـتغير .. عودة اللاجئين واعتقال مجرمى الحرب . وفى هذا الفصل نتـناول بـبعض التفصـيل تلك المشكلات والآفاق المستقبلية لتحقيق المعادلة الصعبة فى إمكان حلها ..

١ ـ بدءا من تحت الصفر

فى بدايـــات شـــهر يوليـــو من عام ١٩٩٩ كان الصيف قد حل أخيرا فى ســـرايفو .. وبعد اعدادات مضنية كلفت البوسنة التى كانت تحاول أن تتعافى اقتصـــاديا أكـــثر من خمسة ملايين مارك ألمانى .. بدأ أكبر زعماء العالم فى الوصـــول إلى المدينة التى كانت تستعد لأكبر حدث فى تاريخها منذ استضافة دورة الألعـــاب الشـــتوية الاوليمبية .. كان الحدث هو أول مؤتمر قمة أوربى يستهدف إعادة التوازن الاقتصادى والسياسى والاجتماعى لدول البلقان .. والذى تم أختيار قاعات استاد زيترا المغطاة لانعقاد المؤتمر فيها .. وعلى مدى شهر قـــبل هـــذا الـــتاريخ كـــان الجميع يتساءلون . ماقيمة هذا الحدث الكبير ؟ ماذا ستســـتفيد البوسنة منه بالاضافة إلى وضعها مرة أخرى وربما أخيرة فى بؤرة الأحـــداث .. وتحـــدث الجميع وتناقشوا وهم يرون ملايين الماركات تنفق على تنظيف المدينة وتخلق عشرات الوظائف التى لن تزيد مدتها عن أيام قليلة من أجل مؤتمر اليوم الواحد .

فى صباح يوم المؤتمر بدأ توافد كبار الزعماء المشاركين فى الوصول .. وفى نفس اليوم بدت سرايفو كمدينة أشباح .. لم يكن فى شوارعها سوى بضعة أشخاص أما الغالبية فقد ذهبوا إلى الشواطئ الكرواتية لاستغلال عطلة إجبارية بسبب المؤتمر .. ولم يستقبل الزعماء فى شوارع المدينة سوى الصمت ومئات مـــن قوات حفظ السلام والشرطة الدولية التى لم تكن تعطى سوى انطباعا بأن انقلابا عسكريا وقع قبل لحظات .. ولم يكن يشق سكون المدينة سوى صفارات الدراجـــات الـــبخارية التى كانت تسبق مواكب الزعماء .. وفى الواقع لم تكن بحاجـــة إلى تلك الصفارات .. وكان هذا هو رد الفعل الأول والأخير من سكان البوسنة تجاه ما سمى بمؤتمر الآمال العظيمة .

إنهم يكذبون !!

وعلى مدى نحو ساعتين هى عمر المؤتمر قام المئات من الصحفيين والإعلاميين بأقلامهم وكاميراتهم بتسجيل واحدة من أكبر مسرحيات القرن العشرين وأتيح لكل رئيس دولة أو رئيس حكومة فرصة الكذب لمدة خمس دقائق ، وأتيح للرئيس الأمريكى بيل كلينتون فترة مضاعفة وأتيح لبعض رؤساء المنطقة أن يحلموا فى يقظتهم لنفس المدة .. وعندما حان دور الرئيس على عزت بيجوفيتش قال : " إن البوسنة تحتاج إلى أفعال .. لقد شبعت البوسنة من الكلام .. وما تحتاجه البوسنة تحتاجه كل دول البلقان " . وعندما انتهى الحفل الإعلامى لم تحصل البوسنة وكل دول البلقان إلا على أرقام هزيلة ، وعلى كلام كثير ، وآمال عريضة عظام . وعندما عاد سكان سراييفو من الشواطئ الكرواتية قالوا كنا نعلم ولذلك لم نضع وقتنا فى الترحيب بهم .

فى ذلك المؤتمر أقر زعماء أوربا - وروسيا - خطة وصفت بانها "مارشال جديدة " للبلقان .. كانت تقضى بإنفاق خمسة مليارات دولار على مدى السنوات الخمس من عام ٢٠٠٠ إلى عام ٢٠٠٤ لإعادة التوازن الاقتصادى والسياسى لتسع دول بلقانية هى البوسنة وكرواتيا وسلوفينيا ومقدونيا وألبانيا وبلغاريا ورومانيا والمجر إلى جانب صربيا والجبل الاسود - بعد ابتعاد ميلوسيفيتش عن السلطة - ولم تشمل الخطة اليونان بالطبع لأنها دولة عضو فى الاتحاد الأوربى بالفعل .

وعلى الرغم من أن الميزانية المقترحة لخطة مارشال البلقانية كانت تبدو ضخمة للوهلة الأولى إلا أنها كانت تتعارض بشكل سافر مع ما جرى فى البوسنة على مدى أربعة أعوام من الحرب ، فقد خرجت باقتصاد كارثة دمر ٨٠ فى المائة من بنيتها الأساسية بما فى ذلك البنية الأساسية الصناعية ، ومع

ماجـــرى على مدى أربعة أشهر فى يوغسلافيا التى دمر جـــانب لابأس به من اقتصادها الثقيل ولاسيما محطات الطاقة والصناعات الثقيلة .

فى عام ١٩٩٨ قال رورى أوسوليفان ممثل البنك الدولى فى البوسنة "أننا لا يجـــب أن نخـــفى الحقيقـــة ، إن مجموع المساعدات التى قدمت وستقدم إلى البوســـنة منذ عام ٩٦ وحتى عام ٢٠٠١ لن تزيد عن خمسة مليارات دولار - ومائـــة مليون دولار - وأن ما تحتاجه البوسنة لإعادة اقتصادها إلى الحد الذى كان عليه قبل بداية الحرب عام ١٩٩٢ هو ٢٤ مليارا !!!! " .

ولا شـــك أن زعمـــاء أوربا والولايات المتحدة وروسيا عندما جاءوا إلى ســـراييفو فى مظاهرة يوليو ١٩٩٩ كانوا يدركون تماما تلك الحقيقة المؤلمة ، وعـــندما أجمعوا بشكل غريب على أن الخطة الاوربية الجديدة سوف تعيد إلى دول البـــلقـــان إلى مســـتوى دول أوربـــا الغربية فقد كانوا يعلمون أيضا أنهم يكذبون ، وكان البوسنويون يعرفون ذلك أيضا .

ولاشـــك أن هـــناك مـــن كان يعلم أن الأمر لم يكن سوى مشهد مثير من مسرحية دولية تم الاعداد لها جيدا .. فقد ثارت أصوات من داخل الدوائر التى تورطـــت فى إعـــلان مشروع ما سمى باعادة الاستقرار إلى البلقـــان للمطالبة بـــإبداء قدر من المصداقية أمـــام دول المنطقة وأمام العالم ، ولذلك وقبل أن يمضى عام واحد على إنتهاء مؤتمر ســـراييفو وفى أبريل من عام ٢٠٠٠ عاد خافييـــر سولانا - الذى لم يشارك شخصيا فى المؤتمر - إلى سراييفو بعد أن تـــرك منصـــبه كأمين عام لحلف الناتو وأصبح مفوضا ساميا لشئون السياسات الأجنـــبية والأمنية المشتركة بالإتحاد الاوربى وكان بصحبته هذه المرة كريس باتن مفوض الإتحاد الأوربى وهناك أكد مجددا " أنه يتعين على السلطات فى البوســـنة الإســـراع فى إجراءات الإصلاحات الاقتصادية ، والعمل على عودة

اللاجــئين كشــرط مسبق لتحسين العلاقات بين البوسنة والاتحاد الأوربى " .. وقــال " إن زيارتــه هــذه للبوســنة تحمل رسالة واحدة لجيمع المسئولين فيها وللشعب أيضا .. وهى أن اقتراب البوسنة من أوربا سوف يعتمد على مدى تقدم الإصــلاحات .. أما كريس باتن فقال " إن الاتحاد الأوربى سوف يظل المساهم الرئيسى فى المساعدات المالية إلى البوسنة .. إلا أن حسن نوايا الدول المانحة سوف يعتمد على الأسلوب الذى تستخدم فيه البوسنة هذه المساعدات على أرض الواقــع . وأن الإتحــاد الأوربى سوف يقدم على مدى العام ٢٠٠٠ مائة مليون يورو - أى أقــل قليــلا من مائة مليون دولار - وهو ما يزيد عما يمنح للهند والصــين معــا !!!! وهــو ما يعطى فكرة واضحة عن أهمية البوسنة للاتحاد الأوربى "..

وفى الشهر التالى - مايو ٢٠٠٠ - تعرضت المفوضية الأوربية لانتقادات عــنيفة بسبب خطتها - الطموحة - لإنفاق نحو خمسة مليارات دولار على ما يســمى بخطة إعادة بناء البلقان ، وهى الخطة التى كان مقررا لها أن تبدأ مع بدايــة العام نفسه ، ولم يكن الانتقاد بسبب قلة هذه المبالغ وإنما لأن الحكومات الــتى تمــثل دول الاتحــاد الأوربى كانت قد بدأت فيما يبدو فى التراجع عن تعهداتهــا فى مؤتمر قمة سراييفو وخاصة فيما يتعلق بالبوسنة لأن الأخيرة لم تنــته بعد من الإصلاحات المطلوبة وهكذا كان الأوربيون يضعون العربة أمام الحصان مرة أخرى .

وعــندما عقــد أول مؤتمر للدول المانحة للبوسنة فى عام ١٩٩٦ حيث تم الاتفــاق عــلى أن هذا البلد سيتلقى على مدى خمس سنوات ٥,١ مليار دولار أمــريكى جاء فى إعلانه الأخير أن الدول المانحة تأمل أن تستخدم الحكومات فى البوســنة والهرســك هذه المبالغ - الموعودة - من أجل التغييرات الهيكلية

الضرورية للتحول من المرحلة الشيوعية إلى المرحلة الرأسمالية " . ولكن هذا الهـدف الكـبير لم يكن فى مقدرة البوسنة أو فى مقدرة حكومتها المركزية أو حكومـتى الكيانين .. فالمبالغ التى وعد بها المجتمع الدولى كانت تكفى لإجراء هـذا التحول لو لم تكن البوسنة قد شهدت حربا أدت كما قلت إلى تدمير ٨٠ فى المائة من اقتصادها وتعطيل الباقى ، مما يعنى أنه كان عليها أن تبدأ من الصفر إن لم يكن أدنى من ذلك .. فقد كان الهدف من خطة الإعمار والتحول هو تمهيد الطريق أمام الاستثمارات الأجنبية فى البلاد ، ولكن هذه العملية فشلت – وبكل صـراحة – فشلا ذريعا لعوامل كثيرة ، وقد فشلت كثير من الشركات الأجنبية فى تثبيت وجودها بينما أغلقت العديد من الشركات المحلية أبوابها قبل أن تحتفل بعيد ميلادها الأول .. فمن ناحية كانت معظم الشركات المحلية أو الأجنبية تقوم بتسويق سلع تم إنتاجها خارج البوسنة لأن من حاولوا إنتاج مثيلها فى المصانع الصغيرة الباقية ، مثلما حدث فى مصنع الملابس الضخم فى ترافنيك ، قد فشلوا فى تسـويقها نظـرا للمنافسة الضخمة .. لقد كانت هناك مشكلات التحويلات البنكية والضرائب الجمركية التى لا تعادلها نسبة فى أى دولة أخرى فى العالم سـوى فى كرواتيا – حتى ذلك الوقت – حتى قوانين الخصخصة نفسها والتى كـان لابـد أن تسمح بتملك الأجانب العقارات ومؤسساتها فى الداخل كانت قد تأخرت كثيرا ثم نظم المراقبة المالية التى لا شـك أنهاكانت تنتمى هى والنظام المـالى بأسـره إلى الفترة الشيوعية .. وكان هناك بشكل يمثل خطرا كبيرا ، الفساد .

ولا شك أن قضية الاقتصاد فى البوسنة إنما تعنى قضية النمو ، ففى دولة لايـزيد معدل النمو فيها وفقا لإحصائيات المؤسسات المالية الدولية لا يزيد عن واحد فى المائة فى حين أن المطلوب هو زيادة معدل النمو إلى ٣٩ فى المائة ،

ولا تزيد الاستثمارات الصناعية فيها عن ٢ فى المائة من مجموع الإنفاق العام فى حين أن المطلوب هو رفع قيمة هذه الاستثمارات إلى ٤٠ فى المائة فإن الأمر يتطلب وقفة غير طويلة إلا أنها فاحصة لبحث الأخطاء التى أدت ولا تزال تؤدى إلى تعطيل الإسراع فى عملية النمو . غير أنه من المؤكد أن المشكلات الاقتصادية فى البوسنة متصلة ومتقاطعة ومتشابكة إلى أقصى الحدود ، وفى الواقع لا يمكن حل كل منها بشكل فردى ، فإن كان يتعين حل هذه المشكلات فينبغى حلها فى اطار شامل وموحد . وعلى الرغم من الخطط المحكمة التى تم إعدادها إلا أن المناخ الاقتصادى وخاصة المسؤلين عنه لم يكن ولم يكونوا مؤهلين لمثل هذه الخطط .. وهنا فإننا نلقى باللوم وبشكل أساسى على السياسة والسياسيين كما سيحدث فى كل المشكلات الأخرى التى تعيق تقدم البوسنة على النحو الذى سنراه فى كل أنحاء هذا الفصل .

من بين السلطات التى منحها المجتمع الدولى " للممثل الدولى فى البوسنة " الذى تحول إلى "المفوض السامى " فيما بعد هى حق فرض القوانين بصفة مؤقتة إذا لم تتمكن الأطراف الثلاثة من الإتفاق على صيغة هذه القوانين .. وكأنما كان المشرعون الدوليون يدركون أن هذا البند فى مهام الممثل الدولى سيكون الأهم .. فعلى مدى عامى ١٩٩٨ و١٩٩٩ لم يكن بيد الممثل الدولى أو المفوض السامى فى البوسنة سوى فرض نحو ١٣ قانونا يتعلق معظمها بنواح اقتصادية بحتة مثل الاتفاق على شكل العملة الموحدة " المارك التحويلى" الذى حل محل الدينار اليوغسلافى القديم والدينار البوسنوى والكونا الكرواتية ، إلى قوانين الضرائب وأخرى تتعلق برموز الدولة مثل العلم والنشيد الوطنى وشعار الدولة وغيرها .. وقد فرضت هذه القوانين ، وهى قوانين معمول بها حتى الآن ، لأن الجميع كانوا يفتقدون إلى الإرادة السياسية وكانت الأفكار القومية

القديمـــة تـــتحكم فى قراراتهم حتى أن البرلمان المركزى وعلى مدى مناقشات وجلســـات طويـــلة فشـــل فى التوصـــل يومــــا إلى حل وسط ينبع من إتفاق ، فالإخـــتلاف كان هو الأمر السائد ، وحتى تلك الأمور التى كان يمكن الإتفاق عـــليها وهى أمـــور شكلية على الرغم من خطورتها كإختيار شكل عملة الدولة وعـــلمها إلا أن الجميـــع تـــركوا بمحض إرادتهم للمفوض السامى حق فرض الشـــكل الذى يراه المجمتع الدولى ، وهكذا جاء علم الدولة وشعاراتها وعملتها خاليا من أى خلفية وطنية بغض النظر عن صور الشخصيات التى طبعت على العملات الورقية ..

فى ظـــل هـــذا المـــناخ السياســـى الـــذى يتحكم فيه مجلس دولة لا يملك الصـــلاحيات الكافيـــة ، وفى ظـــل مجلس وزراء لا يملك نفس الصلاحيات ووزراء يقـــل عددهـــم عن أصابع اليد الواحدة ، وفى ظل الخلاف العميق بين الإتجاهات والمصالح تضيع قضايا الاقتصاد ويظل العنصر السياسى عقبة كؤود أمام النمو .

إن نظـــرة ســـريعة عـــلى الميزان التجارى بين البوسنة وأكبر شركائها التجاريين – كرواتيا – يشير إلى أن الميزان التجارى بين البلدين يميل لصالح كرواتيا بمعدل ٦ إلى واحد وهو ما يشير إلى الهيمنة الاقتصادية التى تفرضها كـــرواتيا على البوسنة .. وعلى الرغم من كل الاتفاقيات التى وقعت فى أواخر عـــام ١٩٩٨ وخـــلال عـــام ١٩٩٩ بشأن تعديل هذه الموازين إلا أن كرواتيا لا تـــزال تمثل – بهيمنتها وتحكمها فى طرق المواصلات إلى البوسنة – عقبة أمام التنمية . وفى اعتقادى أن الاتفاق الخاص بمنح البوسنة ميناءا كرواتيا هو ميـــناء بلوتشـــا عـــلى ساحل بحر الأدرياتيك ، بدلا من المنفذ البحرى الوحيد للبوســـنة عـــلى هذا البحر وهو مدينة نايوم ، ربما يحل جانبا كبيرا من مشكلة

الاقتصاد البوسنى إذا ما صدقت نوايا كرواتيا في العمل ببنود اتفاق تاجير الميناء ، وهو اتفاق اتخذته كرواتيا كورقة ضغط لسنوات طويلة ضد البوسنة .

التحول الاقتصادى ونظرية المؤامرة

لا شك أن التحول الذى تشهده البوسنة هو تحول صعب ، والتحول الاقتصادى هو عصب هذه الحركة التاريخية كلها . ويتعين الاعتراف أن البوسنة التى تملك جميع العناصر الفنية والثروات التى تؤهلها إلى إحداث تحول سريع وسهل تفتقد أيضا إلى التوزيع الجيد للثروة .. وأتحدث بشكل خاص عن عملية الخصخصة أو التحول من اقتصاد الدولة إلى الاقتصاد الحر وبيع ممتلكات القطاع العام إلى القطاع الخاص فى الاتحاد المسلم الكرواتى .. فما يحدث بالفعل فى البوسنة من بيع لممتلكات الدولة سيسهم إلى حد ما فى إعادة تكريس الفكر الطائفى .. فمن المعروف أن البوشناق أُستخدموا طوال تاريخ الدولة اليوغسلافية كعمال مهرة .. أو فى وظائف ادارية غير هامة بينما كان الكروات هم افضل التجار والاقتصاديين .. وهم وفقا لتجربتى سواء فى كرواتيا نفسها أو فى المناطق الكرواتية من البوسنة يعرفون كيف يستثمرون أموالهم وفى أى المشروعات .. وقد استمر هذا النمط من التقسيم حتى بعد استقلال البوسنة وخاصة فى السنوات التى بدأت فيها عمليات التحول وبيع القطاع الخاص ..

ولست أتفق مع نظرية المؤامرة على البوشناق .. ولكنى أؤيد بشدة نظرية المصالح .. ووفقا لهذه النظرية فقد وجد كروات البوسنة فى رجال الأعمال فى كرواتيا سندا قويا مكنهم من البدء مبكرا فى السيطرة على المصادر الاقتصادية فى البوسنة .. وسواء كان ذلك بهدف السيطرة على البوسنة فى النهاية أو أنه مجرد استثمار اقتصادى فقد تمكنوا من الحصول على أفضل المشروعات مثل

مشـــروع مجمـــع الالومـــنيوم الكبير فى موستار وغيره ، فى حين أن أياً من الاقتصـــاديين البوشـــناق لـــم يـــتمكن وحـــتى الآن من السيطرة على أى من المشروعات الهامة .. ويرجع هذا إلى سبب رئيسى وهو أن المساندة الإسلامية للبوشناق تركزت طوال الوقت على المساعدات الإنسانية وإعادة إعمار المساجد والمـــدارس الدينية أو على الأكثر إعادة إعمار المساكن المهدمة .. والاستثناء الوحيـــد الـــذكى والهـــام الذى خرج عن نطاق هذه المساهمات غير الفعالة – وبجهـــود مضنية من حارث سيلايدجتش رئيس الوزراء المناوب – هو تدخل الكويت للاستثمار فى مشروع مجمع الحديد والصلب الضخم فى زينتسا .. وفى اعـــتقادى أن محـــاولات الـــدول الاسلامية فيما عدا تركيا – على تأكيد الهوية الإســـلامية للبوشـــناق ورفـــع مآذن المساجد من جديد فى وسط أوربا – هى محـــاولات جيـــدة إلا أنه لن يعادلها ولن يؤكد حق البوشناق فى الحياة بطريقة كـــريمة ســـــوى مســـاعدتهم على امتلاك وسائل الإنتاج والاقتصاد بحيث لا يضـــعفوا مرة أخرى .. ومن ناحية أخـــرى يتطلب تحقيق هـــذا الهـــدف من جـــانب البوشـــناق أن يتخلوا عن أفكارهم الاقتصادية القديمة ، وبشكل خاص تخـــليهم عـــن فكـــرة الحصول على أقصى مـــيزة من الاســـتثمارات الأجنبية وبشـــكل محـــدد تـــلك القادمـــة من دول إسلامية .. فقد خسروا وقتا ثمينا فى مفاوضـــات عقيمة طوال عامى ١٩٩٨ و١٩٩٩ مع مستثمرين جاءوا من دول عربية وإســـلامية من أجل تحقيق هـــذا التوازن فى الاقتصاد داخـــل الإتحـــاد المســـلم الكـــرواتى .. ومـــا ينطـــبق على الاتحـــاد ينطبق أيضا على الكيان الصربى .. ومرة أخرى لن يتمكن البوســـنويون – بوشـــناق كانوا أم كروات أم صـــرب – أن يحققوا هدف التحول دون أن يتحرروا تماما من محاولات تكـــريس القوميـــة عـــن طريق السيطرة على الاقتصاد فهذه فى النهاية عملية مشتركة تحتاج إلى أيدى الجميع .

فساد ومفسدون

لم يكن غريبا على دولة وليدة مثل البوسنة ، خرجت لتوها من حرب مدمرة وباقتصاد منهار وبأطماع تنهش جوانبها من الشمال والجنوب وبتحول اقتصادى جذرى من المرحلة الشيوعية إلى المرحلة الرأسمالية أن تتعرض لموجة من الفساد وإساءة استخدام السلطة وتفشى الرشوة والوساطة وغيرها .. لقد تعرضت وتتعرض دول العالم كلها إلى مثل تلك الحالات .. وفى البوسنة كان الأمر واضحاً .. فالدولة صغيرة ودخلها محدود .. وهكذا ظهرت بوضوح آثار الثراء غير المشروع على الكثيرين الذين لم يستطيعوا إخفاء جرائمهم وفسادهم .. وظهرت طبقة جديدة من أثرياء الحرب الذين استخدموا كل الطرق غير المشروعة فى الاستفادة من الأموال التى حصلوا عليها أثناء الحرب بالمتاجرة فى كل شيء بدءاً من السجائر وانتهاءاً بالسلاح ..

ومنذ منتصف عام ١٩٩٨ كانت الشكوى المرة التى كان الجميع يرددونها تتحدث عن انتشار الفساد الذى بدأت رائحته تزكم الأنوف أفرادا ومؤسسات ومحليين وأجانب .. كان الجميع يهمسون حتى ذلك الوقت عندما بدأت وسائل الإعلام تنشر شيئا فشيئا بعض القضايا والتلميحات التى تحولت بعد حين إلى حملة قومية .. كان الفساد يخنق أول ما يخنق الاقتصاد البوسنوى .. وفى النهاية اضطرت الحكومة المركزية ثم حكومة الاتحاد المسلم الكرواتى أخيرا إلى الاعتراف رسميا بوجود عمليات فساد ، واضطرت فى الوقت نفسه لتقديم بعض الضحايا .. وهنا فقط أمكن حصار الفساد لكن لم – ولن – يتم القضاء عليه .

كان السبب الرئيسى وراء انتشار الفساد هو النظام المالى والقوانين الاقتصادية العتيقة التى كانت مطبقة حتى ذلك الحين ، وحتى الجديد منها كان

لا يـزال يطـبق بـروح الفكـر القديم .. هذا النظام كان يشرف عليه صغار المسـئولين فى الحكومة الذين لم يكن أفضلهم يحصل سـوى على مرتب نحو مائتى مارك ألمانى فى ظل تضخم يحتاج إلى عدة أضعاف هذا المبلغ لممارسة حياة اجتماعية عادية أو أقل من ذلك .. وقد استغل الكثيرون من الأثرياء الجدد هذه الناحية الضعيفة من النظام الاقتصادى البوسنوى .. ومن خلال تلك الناحية جـرت عمـليات التهرب من الضرائب والتهريب وانتشرت الرشوة وظهرت جماعـات احتكارية تتولى تهريب السلع الاستراتجية أو استيرادها دون دفع أى ضرائب ، مما كان يضيع على الاتحاد الفيدرإلى وحده أكثر من ثمانمائة مليون مارك - أى ما يوازى ميزانيتها فى عام كامل - ضرائب جمركية فقط .. وفى ظـل نشوء جماعات مافيا منظمة ضاع الكثير من أراضى الدولة ومؤسساتها وعقاراتهـا .. لقـد طالت رائحة الفساد الكثيرين .. حتى أن مسئولين كبار فى الدولـة ، وعـلى رأسهم الرئيس على عزت بيجوفيتش ، وجهت إليهم اتهامات بالفسـاد .. وعـند هـذا الحد كان ينبغى أن يدرك الجميع أن هذه التهمة كانت تستخدم فى هدم رموز الدولة .. وعندما نشرت صحيفة نيويورك تايمز تقريرا عن الفساد تضمن بعض الأسماء التى تمثل رموز الدولة ومن بينها على عزت بيجوفيـتش .. كـان على الرجل أن يأمر بتشكيل لجنة دولية للتحقيق فى هذه الاتهامـات بل إن الكونجرس الأمريكى قام بتشكيل لجنة للتحقيق وقام المفوض السامى بتشكيل لجنة مماثلة وفى النهاية اكتشف الجميع الخدعة .. وبرأت ساحة الرجل ..

لقد استخدم الاتهام بالفساد سلاحا ضد جانب واحد من الأطراف الثلاثة فى البوسنة فى محاولة لإثبات أن هذا الجانب لا يمكن الاعتداد به ولا بقدرته على إدارة الدولـة أو حـتى المشاركة فى إدارتها .. وفى النهاية خرجت القيادات البوسنوية من الأزمة .. وعلى الرغم من أن عدداً كبيراً من قضايا الفساد قد تم الكشـف عـنه إلا أن إثـارة القضـية كـان له ردود فعل متعددة وعلى جميع

المستويات وكان له ضحايا له ، وأبرز ضحاياه هو نائب وزير الداخلية الاتحادى - بوزو ليوتار - وهو من كروات البوسنة - وتوفى بعد أيام من انفجار قنبلة فى سيارته بالقرب من منزله فى وسط سراييفو فى يونيو ١٩٩٩ وكان مسئولا عن ملف مكافحة قضايا الفساد فى الاتحاد .

وبدءا من عام ٢٠٠٠ أصبح يتعين على البوسنة أن تواجه الواقع .. ففى نهاية هذا العام تنتهى فترة السماح التى حددتها الدول المانحة للبوسنة .. ففى مايو من العام نفسه عقد آخر اجتماع لهذه الدول ولم يعد يتبقى للبوسنة سوى استغلال اخر دولار من المنح السابقة .. ولذلك يتعين علينا قبل أن نترك هذا الجزء أن نؤكد من جديد أنه إذا ما ارادت البوسنة والهرسك أن تقف مرة أخرى على قدميها - بعد أن انتهى بالفعل دور الدول المانحة - فليس أمامها إلا خيار واحد يعتمد على قاعدتين أساسيتين ، وهذا الخيار الوحيد هو أن تستكمل مسيرتها الاقتصادية ذاتيا .. والقاعدة الاولى لهذا الخيار هو قوتها البشرية .. وهى قوة لاشك جيدة بشرط أن تتخلى هذه القوة عن التعقيدات السياسية الطائفية والبيروقراطية .. أما القاعدة الثانية فهى منح المزيد من الدعم للقطاع الخاص المستنير والوطنى .. والاقتداء بتجارب الدول الأخرى فى التحول الاقتصادى وبشكل خاص بولندا ومصر وسلوفاكيا .. وفى كل الاحوال فإن السياسيين فى البوسنة والذين لا يزالوا يفتقرون إلى الشجاعة ويتمسكون وبحرص على مصالح قومية ذات طابع ضيق عليهم ، الآن أن يخرجوا إلى الواقع الذى يدور حولهم وهو واقع يؤكد أنه لا مخرج للبوسنة سوى باقتصاد واحد وبفكر واحد .. وبأيدى الجميع .

٢ ـ ألغام ومفقودون وضحايا

فى أثناء الحرب تكون عملية زرع الألغام وسيلة لإعاقة تقدم العدو عن اختراق صفوف جيش ما .. وعندما تنتهى الحرب تكون تلك الألغام نفسها سببا فى إعاقة البلاد عن التنمية والتقدم ..

حدث ذلك فى بقاع مختلفة من العالم .. وعلى الرغم أنه ومنذ الثمانينات من القرن الماضى تقريبا تقلص استخدام الألغام فى الحروب وخاصة فى آسيا وأفريقيا – باستثناء الحرب الأفغانية والحرب العراقية الإيرانية – وحالات متفرقة فى أفريقيا مثل رواندا وأريتريا – إلا أن حرب البوسنة وهى أعظم حرب شهدتها أوربا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية – وبغض النظر عن الحملة الجوية الغربية ضد صربيا فى عام ١٩٩٩ – كانت سببا لعودة تلك الشياطين المدفونة تحت الارض وبأعداد ضخمة .

والغريب أنه رغم مرور أكثر من خمس سنوات على حلول السلام فى البوسنة فإن مشكلة الألغام لا تزال تشكل أحد أهم العوائق أمام التنمية وعودة اللاجئين ، بل وتعوق عمليات البحث عن المفقودين الذين يصل عددهم إلى نحو عشرين ألفا وفقا لتقديرات اللجنة الرسمية للبحث عن المفقودين فى البوسنة والذين يرقدون فى سلام فى مقابر جماعية فى أماكن بعضها معروف والأخر مجهول تحوطه الألغام لحراستها أو ربما لمنع من يحاول الاقتراب منها لاكتشافها وبالتالى اكتشاف جريمة جديدة وقعت هنا أو هناك .

ولم يكن من زرعوا الألغام فى أرض البوسنة – أيا من كانوا – يعتقدون عندما زرعوها – أنهم يزرعون الأشواك التى ستدمى ولسنوات طويلة أقدامهم وأيديهم وربما أقدام وأيدى أبنائهم وأحفادهم ، وأن أول ضحايا ها سيكونون هم الأبناء والأحفاد ، فقد أشار الخبراء إلى أن البوسنة تحتاج إلى نحو عشرين عاما

قادمـــة لتتخلص من آخر لغم فى أرضها ، هذا إذا لم يتوقف العمل على مدى هذه السنوات كلها .

المأساة بالأرقـــام

تبـــلغ مساحة البوسنة واحد وخمسون ألف وستمائة كيلو متر مربع .. من بيـــن المساحة قدر مركز مكافحة الألغام التابع للأمم المتحدة فى البوسنة UN MINE ACTION CENTER والمعـــروف اختصارا بإسم UNMAC أنه من بيـــن هـــذه المساحة يوجد نحو ثلاثمائة كيلو متر مربع تضم حقول ألغام بشكل مؤكـــد ، وأن هناك نحو مائتى كيلو متر أخرى يشتبه فى أنها تضم حقول ألغام بنسبة أقل ، وأن معظم هذه الخمسمائة كيلو متر تقع على خطوط الفصل الحالية بين الكيانين .. أو تلك المناطق التى كانت تشكل يوما خطوط القتال الأولى بين الجانبين المتحاربين .

ويقـــدر عـــدد الألغـــام المـــزروعة فى أراضى البوســـنة بكيانيها وفقا لتقديرات الـــ UNMAC بنحو ثلاثة ملايين لغم ، وهناك تقديرات أقل تتراواح بين مليونين ومليون ونصف مليون لغم تتناثر فى أكثر من ١٩ ألف حقل ألغام وحتى شهر مارس من عام ٢٠٠٠ لم تكن قوات الأمم المتحدة أو قوات الناتو أو المـــنظمات التطوعية أو حتى المؤسسات الحكومية والخاصة - بعد أن دخلت مؤسســـات خاصـــة إلى هذا النشاط - قد استطاعت على مدى السنوات السبع الماضية من أن تقلل حجم هذا الخطر الهائل إلا بقدر قليل للغاية لا تزيد نسبته عن واحد فى المائة ..

وشـــأنها شأن جميع المشكلات التى تواجه البوسنة فإن العائق الرئيس أمام المشكلة يظل هو التوجهات السياسية المختلفة فى كل من الكيانين .

عقب انتهاء الحرب وفى بدايات عام ١٩٩٦ تم انشاء أول مؤسسة بوسنوية رسمية للبحث عن الألغام وإزالتها ، إلا أن هذه المؤسسة وعلى مدى عام كامل تقريـبا فشلت فى تحقيق أى من أهدافها ، وهى العمل على نزع الألغام فى كل أراضـى البوسـنة .. وأعـاق السياسـيون عملها . ونتيجة لذلك انهارت تلك المؤسسـة واخـتفت .. وفى فبراير عام ١٩٩٧ تم إنشاء اللجنة الوطنية لإزالة الألغام NATIONAL DEMINING COMMISSON والتى عرفت اختصارا باسم NDC وبدورها لم تتمكن هذه اللجنة من أن تبدأ نشاطها – فى كل أنحاء البوسنة – سوى فى نوفمبر من العام نفسه ، وتم وضع نشاطها فى إطار عمل مجـلس الوزراء المركزى وهو ما كان كفيلاً بالقضاء عليها .. فبعد عدة أشهر مـن عمـلها ورغم تعاونها الوثيق مع مركز الأمم المتحدة إلا أنها لم تقم بعمل يذكر نتيجة لإختلاف الأراء داخل المجلس فانهارت من تلقاء نفسها .

لا شـك أن خمسـمائة كيـلو متر مربع من أراضى البوسنة – صغيرة المساحة – ملوثة بالألغام – إنما تشكل خطراً بالغاً على هذه الدولة الصغيرة .. فعـلى الـرغم من أن هناك حقول ألغام تبلغ مساحتها عشرات أضعاف مساحة البوسـنة نفسها تنتشر فى صحراء مصر الغربية والشرقية وسيناء وغيرها من آثـار الحرب العالمية الثانية والحروب مع إسرائيل إلا أن هذه الألغام لم تؤثر بشكل مباشر فى سير الاقتصاد المصرى ونموه نظراً لأن هذه الألغام تقع بعيداً عـن مناطق العمران وعن المراكز الزراعية والصناعية وإن كانت تشكل عائقا أمام مد هذه المراكز إلى المناطق الملغومة . . ولكن الأمر يختلف فى البوسنة.. معظم الاراضى الملغومة يقع إما فى مناطق سكنية أو فى المنازل نفسها أو فى المناطق الصناعية والزراعية والحدائق والغابات .. وبمعنى آخر يقع فى أكثر المناطق ازدحاما وأنفعها للاقتصاد .

وعلى مدى سنوات أربع قضيت معظمها فى البوسنة وخلال وجودى فى سراييفو لم يكن يمر يوم واحد دون أن نسمع انفجار لغم .. وما لم يكن الانفجار فى إطار عملية تطهير فهو يعنى ضحايا ومعظمهم من الأطفال .. وربما كانت المفاجأة الكبرى هى فى مكان وضع اللغم ثم انفجاره من بعد .. وبغض النظر عما وجد من الغام فى أحياء سراييفو مثل دوبرينيا وبوتمير واليدجا باعتبارها كانت تشكل خط القتال الاول إلا أن أحداثا تتسم بالفعل بالغرابة كان يتم اكتشافها يوما بعد يوم ، وعلى سبيل المثال وفى أواخر عام ١٩٩٨ اكتشف أشخاص وبمحض الصدفة حقل ألغام كان يضم العديد منها على بعد أمتار قليلة من مبنى البرلمان البوسنوى والذى كان يستخدم كمقر لاجتماعات مجلس الرئاسة ومجلس الحكومة المركزية وسط المدينة تماما . بل إن الحديقة الخلفية للمتحف الوطنى البوسنوى – ويقع أيضاً وسط المدينة – والذى كان طوال ثلاث سنوات بعد انتهاء الحرب مقرا لاجتماعات المجلسين وكذلك البرلمان – حتى تلك الحديقة كانت مزروعة بالألغام – ولا زالت كذلك – وبمصادفة أخرى اكتشف بعض الأطفال لغما حيا فى حديقة تفصل بين المنزل الذى كنت أعيش فيه ومنزل آخر فى شارع تيتوفا فى حى تشنجتش فيلا .. وكان ذلك فى صيف عام ١٩٩٩ .

على الجبال المحيطة بسراييفو وفى حدائق المنازل المدمرة بل وداخل المنازل نفسها يرقد الموت ممثلا فى لغم وضعه من يعرف جيدا أن أطفالا ونساء سيعودون وسوف يستقبلهم الموت إن لم يأخذوا حذرهم قبل ذلك .

ولا شك أن عملية إزالة وتطهير الألغام هى عملية محفوفة بالمخاطر على الرغم من كل الوسائل الحديثة المستخدمة فى هذه العملية .. وأكثر من يتعرضون لمخاطرها هم خبراء إزالة الألغام ، وكثيرا ما تكون حياتهم هى الثمن الفادح الذى يدفعونه .. إلا أن الغريب فى عملية زرع الألغام وخاصة تلك

المضـــادة للأفراد لا تتسبب غالبا فى موت من يوقعه حظه العاثر فى أحدها ، فهـــو لا يخرج منها حيا أو ميتا بل معاقا ببتر ما .. وهذه هى غالبية الألغام فى البوســـنة . والمعاق أكثر ضرراً سواء فى الحرب أو فى السلام سواء لمجتمعه أو لأسرته .

وتقول الإحصائيات أن أربعين شخصاً يصابون شهريا فى البوسنة نتيجة انفجار ألغام فيهم ، وأن عشرين فى المائة منهم يلقون حتفهم نتيجة الاصابة وأن عشـــرين فى المائة منهم من الأطفال وأن أربعين فى المائة منهم يخرجون من اصـــابتهم باعاقة مستديمة وأن أكثر هؤلاء الضحايا من العائدين ، إن أكثر من ٨٠ انفجـــاراً يـــتم تســـجيلها شهريا فى البوسنة وفقا لأحصائيات UNMAC . وخمسين وفقا لإحصائيات اللجنة الدولية للصليب الأحمر .

ومـــنذ بـــدأت الحرب فى البوسنة عام ١٩٩٣ راح خمسين جنديا دوليا – سواء من قوات الأمم المتحدة أو قوات الناتو – ضحية انفجار ألغام وأصيب فى الفترة نفسها نحو مائتى جندى دولى ونحو مائة آخرين من الجنود من الكيانين . أمـــا المدنييـــن فـــليس هناك حصر كامل لهم وأن كان يعتقد انهم يزيدوين عن ثمانمائة شخص بين قتيل وجريح .

ما الذى يعوق إزالـــة الألغـــام ؟

مـــنذ انـــتهاء الحرب وعلى مدى السنوات التالية لم تشارك القوات الدولية الـــتى عمـــلت فى البوسنة خلال وبعد الحرب فى عمليات إزالة الألغام إلا من المـــناطق التى كانت تشكل خطرا على القوات نفسها .. وعلى الرغم من تزايد النشـــاط فى العـــامين الماضيين إلا أن هذا النشاط لا يزال محدودا بينما ينص اتفاق دايتون صراحة على أن " تقوم قوات IROR بتطهير وإزالة جميع الألغام

والمواد المتفجرة وغيرها فى البوسنة فوراً " . ونتيجة لذلك فلم يتم حتى بدايات عــام ١٩٩٩ ســوى تطهيــر وإزالة الألغام من نحو ١٢ كيلو متراً مربعاً من المســاحة المســتهدفة (خمسمائة كيلو متر مربع) وتعود أسباب تأخر عمليات الــتطهير فضلا عن الأسباب السياسية وتقاعس القوات الدولية إلى أسباب مالية وإدارية معقدة ففى بداية عمله فى البوسنة أعلن مركز الأمم المتحدة UNMAC أنه بحاجة إلى ٣٨,٩ مليون دولار للبدء الجاد فى عمليات التطهير لعام ١٩٩٧ وحده من بينها نحو سبعة ملايين دولار لإعداد الكوادر والفرق المحلية وتدريبها على عمليات إكتشاف الألغام وإزالتها على أن يتم انفاق المبلغ الباقى فى عمليات التطهير نفسها ، إلا أن المركز لم يتمكن من الحصول على المبلغ كاملا ، وما حــدث فى ذلــك العام حدث فى السنوات التالية له . وعلى الرغم من ذلك فقد بذلت حكومة كندا جهودا منفردة من جانبها لتشجيع عمليات التطهير خاصة بعد انضمام البوسنة لمعاهدة حظر إنتاج ونشر الألغام .

وفى الوقــت نفســه يجب الاعتراف بأن عملية تطهير الألغام نفسها هى عمــلية جديدة بالنسبة للبوسنة ، فمنذ نهاية الحرب العالمية الثانية لم تشهد هذه البلاد أى تجارب على عمليات التطهير بشكل واسع وهى عمليات كان يحتكرها الجيــش اليوغســلافى الاتحاد قبل الانفصال ولذلك افتقدت البوسنة إلى الخبرة اللازمة لمواجهة مثل هذه الكارثة وخاصة أنها كانت – ولا تزال – على نطاق واســع يصــعب عليها التعامل معه بمفردها ودون الاستعانة بخبرات الاخرين خاصــة وأن تقــنيات ازالــة الألغام على المستوى العالمى لا تزال تسير ببطء بالنظر إلى التقدم العلمى فى المجالات العسكرية الأخرى .

وتشــكل المعوقــات الاداريــة جانــبا آخــر من مشكلة ازالة الالغام فى البوســنة .. فــالخلاف بين الكيانين البوسنويين كان – على الأقل فى المراحل

الأولى لعمــلية السلام – سببا فى تعمد إخفاء البعض الخرائط التى تحدد مواقع الألغــام بهــدف تأخير عودة اللاجئين إلى المناطق الملغومة .. إلى جانب أن الموظفيــن – الــبيروقراطيين – الذين كانوا يتولون المناصب المتصلة بعملية الــتطهير مثل النقل والمواصلات والإسكان وغيرها بأفكارهم التقليدية لا يزالوا وبشــكل واسع النطاق يسيطرون على هذه المناصب حتى الآن ، وعلى الرغم مــن أن هذا العامل قد يعد سياسيا فى المقام الأول إلا أنه يعد عاملاً اجتماعيا أيضــا .. فهــؤلاء الموظفيــن لا يزالوا يتعاملون مع المواقف التى تحتاج إلى قرارات سريعة بنفس العقلية البيروقراطية التى تحتاج إلى قرار من المناصب الأعــلى فى كل كبيرة وصغيرة لدرجة أن إحدى الأسر قضت شتاء كاملا فى العــراء فوق أحد التلال المطلة على سراييفو لأن المسئولين تكاسلوا عن الأمر بتفتيش المنزل الذى كانت تلك الأسرة تعيش فيه قبل الحرب للشك فى أن ألغاماً كــانت مزروعة بداخله ، وعندما قاموا أخيراً بالبحث عن تلك الألغام لم يعثروا على شىء .

وفى اعــتقادى أن الســبب الرئيسى وراء تعطيل عمليات إزالة الألغام فى البوســنة ترجع بشكل أساسى إلى أن المؤسسات الدولية وجهت جانباً كبيراً من جهودها إلى عملية الإصلاح السياسى بهدف إعطاء البوسنة شرعية دولية مثل إجراء الانتخابات وتشكيل مؤسسات الدولة وغيرها .. وعلى الرغم من الأهمية القصــوى لمــثل هذه العملية إلا أنه من المؤكد أن توفير المناخ المناسب لعودة اللاجئين يعد عاملا هاما فى إعادة الاستقرار فى هذه البلاد ..

وممــا لا شك فيه أن قضية الألغام فى البوسنة ستظل قضية ساخنة لفترة طويــلة قادمــة باعتــبارها إحــدى القضايا الاقتصادية ، فالألغام تعوق عودة اللاجئين .. وتؤدى إلى زيادة عدد الضحايا يوما بعد يوم وتتسبب فى زيادة عدد

المعوقيـــن يومـــــا بعد يوم وتعوق عـــودة مراكز صناعية وزراعية وتجارية كـــثيرة .. فضــــلا عن أنها تمثل عنصرا هـــاما من عناصر حساب المخاطرة وتـــزيد مـــن نسبة مخاطر الحرب فى البوسنة وهو ما يؤدى بدوره إلى إحجام الكـــثيرين عن الاســـتثمار هناك إذ أن عامل الأمن سيظل هو العنصر الحاســـم فى اقتصــــاد أى دولــــــة .. وعندما تفتقد الدولـــة إلى الأمن والأمـــان فسيظل اقتصادها مهزوزا .

٣ ـ مجتمع يبحث عن هوية

أربعة ملايين نسمة هم تعداد سكان البوسنة والهرسك .. ووفقا لآخر الإحصائيات السكانية التى أجريت قبل الحرب فإن ٤٢ فى المائة من سكانها هم من المسلمين – البوشناق – و ٣٦ فى المائة من الصرب و ١٨ فى المائة من الكروات والباقين من قوميات أخرى من يهود ومجريين وسنجق وألبان ويوغسلاف (أو الذين يرفضون الانتماء إلى إحدى القوميات السابقة) .. وعلى الرغم من محاولات الرئيس الراحل جوزيف بروس تيتو على مدى سنوات حكمه الطويلة فى محو الخلافات العرقية و تشكيل الهوية اليوغسلافية بين جميع أطراف الاتحاد الذى كان يجمع أيضا قوميات مقدونية ومجرية وسلوفينية وألبانية بل وتركية ومصرية – فى زعم يقول إن معظم الغجر فى كوسوفو هم من أصول مصرية – وغيرها .. إلا أن هذه المحاولات نجحت فقط أثناء حياته .. وبعد رحيله عادت الأمور إلى ما كانت عليه بل وازداد الخلاف العرقى عمقا .. وبعد الانفصال ورثت البوسنة أكثر هذا الخلاف العرقى .. فمسلمو البوسنة المتمسكون بإنتمائهم الدينى كانوا موزعين أيضا بين هذا الانتماء وبين انتمائهم الجغرافى الاوربى كما أن صرب البوسنة اصبحوا أكثر تمسكا بهويتهم الصربية وانتمائهم إلى الأرض الأم فى صربيا وفى الوقت نفسه كانوا يتطلعون إلى الشمال والغرب حيث أوربا الحديثة أما كروات البوسنة فقد كان الأمر واضحا تماما لهم بهويتهم الكاثوليكية وهى عقيدة الأوربيين ومن ثم كان تطلعهم إلى أوربا تاريخيا وجغرافيا أمراً مشروعا ومنطقيا ..

ووفقا لهذه الخريطة المتشابكة من العرقيات والطموحات المختلفة ، كان من الصعب بل من المستحيل أن تتفق هذه الاتجاهات معا نحو تشكيل دولة موحدة دون النص صراحة على هوية كل من هذه القوميات ، وكذلك النص

علـى دور كـل مـنها فى حكم هذه الدولة المختلطة .. وهنا حدث الاختلاف وتدخـلت الأطمـاع لتفشل مشروع الدولة منذ البداية .. والواقع يقول أنه لولا إصـرار البوشـناق – وحدهم – على أن تكون هناك دولة مستقلة تضم جميع الأعراق لما وجدت هذه الدولة حتى الآن وكان أكثر السيناريوهات إحتمالاً هو انضـمام الجانب الأكبر منها إلى صربيا على غرار ما حدث مع الجبل الاسود وانضـمام جزء آخر لا يقل أهمية إلى كرواتيا . ومنح البوشناق قدر من الحكم الذاتى فى إقليم يتم تحديد حدوده مسبقا بين صربيا وكرواتيا . وهو سيناريو لم يـتم بسبب إصرار البوشناق على أن تكون للبوسنة والهرسك هويتها المستقلة وكـان ذلك هو سبب الحرب .. وقد كشف الكثير من أسرار محاولات التقسيم هـذه فيمـا وصـف بأنه يالطا مصغرة عدة مرات كان آخرها ما أكده رئيس مقدونيا كليجروف من اجتماع تم بين الرئيس الصربى – وقتها – واليوغسلافى فيما بعد سلوبودان ميلوشيفيتش والرئيس الكرواتى فرانيو تودجمان عام ١٩٩٣ فى مـنطقة عـلى الحدود بين صربيا وكرواتيا لمناقشة خطة القضاء على حلم الدولة البوسنوية وتقسيم الأرض فيما بين البلدين .

وعـلى الرغم من أن الحرب أسفرت فى النهاية عن ظهور الدولة الجديدة الـتى يعـترف بها العالم يغطيها علم واحد وشعار واحد وحدود تؤكد سيادتها واسـتقلالها عـن كل ماحولها إلا أن الأمر فى الواقع يختلف كثيرا ، فما زالت قضـية البحث عن هوية تشغل بال الشعب والرئاسة ولا أعنى الهوية السياسية فقط بل الهوية الاجتماعية والثقافية والاقتصادية أيضا ..

أطفال البوسنة .. جيل الخوف والأمل

فى أوائل عام ١٩٩٧ أجريت تحقيقا حول الحياة الاجتماعية والنفسية تحت نفس العنوان السابق ، وقد رأيت أن أنقل هنا أجزاءً من هذا التحقيق كما كتبته

وقـتها وهـدفى من ذلك هو التأكيد على أن ما أثير فى هذا الوقت بعد الحرب بشـأن الأمراض الإجتماعية التى تهدد البوسنة لا تزال هى نفسها التى لا تزال تهددهـا حـتى الآن على الرغم من التقدم الكبير الذى تم إحرازه نحو معالجة بعـض جوانـب هذه القضية التى تمثل فى رأيى واحدة من أهم المشكلات التى تواجه البوسنة فى طريقها المزروع بالأشواك .

" يحدد علماء النفس والاجتماع فى البوسنة بداية الربيع القادم – ١٩٩٧ – كموعـد نهـائى لإنفجـار ما يطلقون عليه القنبلة الموقوتة وهو صبر الشعب وخاصـة الشباب منه ، وعلى الرغم من إدراك هؤلاء العلماء بأن فترة ما بعد الحرب – أى حرب – فى أى دولة هى فترة انتقالية يشهد فيها الاقتصاد حالة ما مـن الـتحول إلا أنهم يشيرون إلى أن أبعاد ما بعد الحرب فى البوسنة تتعدى حـدود الفكرة الاقتصادية فتصل إلى مرحلة المرض النفسى فى بعض الأحوال نـتيجة كـثير مـن الضغوط النفسية التى تعرض لها هذا الشعب وخاصة فى سـراييفو التى تمثل أكبر عدد من السكان وقت الحصار والذى دام نحو أربعة أعـوام وعلى وجه التحديد الأطفال الذين ولدوا قبل وقت قصير من الحرب أو أثناءها .

ويرى العلماء أنه يمكن تحديد عناصر المشكلة الاجتماعية فى البوسنة فى مجموعة من العناصر ، وأن جميع أفراد الشعب البوسنى بلا استثناء – فيما عدا تجـار الحرب وأثرياءها – يمثلون طرفا مؤثرا على هذه العناصر وأن كل فئة شعبية لها مشكلتها الخاصة .. وعلى سبيل المثال فإن نسبة كبيرة من الأطفال – أطفـال الحـرب – تعـانى من عقدة الخوف والظلام أو الأصوات المفاجئة والعاليـة – مـثل انفجـار أو صوت اصطدام أو غيره – وأن نسبة كبيرة من الأطفال مروا بتجارب يصعب على الكبار أحيانا تحملها وعندما تكون التجربة

مصـــحوبة بعدم الإدراك كما هو الأمر مع الأطفال فالنتيجة عقدة نفسية تصحبه خلال حياته إذا لم يتم علاجها فى مراحلها المبكرة .

والعنصر الأول والذى يشكل أهم وأخطر عناصر المشكلة الاجتماعية فى البوسنة فى فترة مابعد الحرب هى مشكلة الإعاشة اليومية بمفرداتها الشهيرة من غـــذاء وميـــاه للشرب والخدمات الأخرى مثل الكهرباء والإسكان والمواصلات والاتصالات والتدفئة فى مناخ دولة يطلق عليها – ثلاجة أوربا – . أما العنصر الثانى وفقا لما طرحه علماء الاجتماع فى البوسنة فيشمل الصحة والتعليم .. ثم البطالة التى تشكل كابوسا اجتماعيا وقنبلة تهدد بالانفجار .

وتذكر الإحصائيات أن ١٥ فى المائة من ضحايا الحرب فى البوسنة كانوا مـــن الأطفـــال وأن عـــدد المصابين من الأطفال كان يشكل ٢٠ فى المائة من مجمـــوع الذين أصيبوا خلال تلك الحرب .. وتقول هذه الإحصائيات أن بعض الإصـــابات تـــرك آثـــاراً لن تمحى وهى تتراواح بين الإعاقة والتشوه ، وعلى الرغم من ذلك فإن التشوهات النفسية على حد التعبير الذى أطلقه علماء النفس فى البوسنة يعد أخطر أثر تركته الحرب .. وعلى الرغم أيضا من أن الحرب لم تفرق بين أطفال البوشناق وأطفال الصرب والكروات إلا أن نصيب الأطفال من المســـلمين كان هو النصيب الأكبر من الخوف والألم والفقد إذ أنه من بين ٦٩ ألف طفل يتيم الأب والأم أو أحدهما أفرزتهم هذه الحرب فإن أكثر من ٧٠ فى المائة منهم من المسلمين .

ومـــن الآثـــار التى قد يرى فيها البعض قدرا من الطرافة على الرغم مما تحملـــه مـــن ألم ، أن كثيرا من أطفال الحرب وخاصة الذين ولدوا قبل الحرب مباشـــرة أو أثـــنائها أصـــبحوا يرفضون الجلوس على المقاعد وأنهم يفضلون افـــتراش الأرض فى حياتهم اليومية .. ويرجع ذلك إلى أنهم كانوا أثناء الحرب

يمارســون حياتهم فوق أرضية الغرف بعيداً عن النوافذ ، فالقذائف التى لم تكن تــنقطع ليــلا أو نهاراً كانت شظاياها تتطاير فى كل مكان وتدخل من النوافذ المحطمة ولذلك ابتعد الجميع عن الجلوس على المقاعد ..

أمــا الظاهرة الثانية فهى أن معظم هؤلاء الاطفال لم يكونوا قد رأوا العالم خارج غرفهم لسنوات طويلة ، وعندما سكتت المدافع أخيرا كان إدراكهم لوجود عالم خارجى أمراً مفاجئا .. لهم حتى أن أحد الاطفال – كما ذكر لى والده أنه فى بداية الحرب كان عمره عامين فقط وعندما انتهت الحرب كان عمره سبعة أعوام – وأنه بعد إنتهاء الحرب بنحو عام وبينما كانا يسيران فى الشارع راح الطفــل يتساءل عن معنى تلك الألوان المضيئة فى أحد الأعمدة بالشارع وراح الوالــد يشــرح لأبنه معنى إشارات المرور الضوئية – بينما الاطفال فى مثل عمــره فى دول أخرى كانوا يتعاملون مع الكمبيوتر كأداة شائعة .. ولعله لهذا السبب وغيره كان من الصعب على كثير من أطفال البوسنة التعايش بسرعة مع هذا الواقع أو العالم الجديد .. وفى تلك الفترة القاسية من الحصار والحرب كان عــلى الوالدين – إن كانا على قيد الحياة – أن يصبحا المدرسة والمعلم ووسيلة الــترفيه الوحيــدة فى العالم .. وبعد انتهاء فترة الحرب بدأت عقدة الخوف فى الظهــور على نطاق واسع .. الخوف من الآخرين والأصوات العالية ومن كل شــئ .. هــذا الجيل أطلقوا عليه جيل الخوف .. وفى الوقت نفسه أطلقوا عليه جيل الأمل .. فالعلماء يعتقدون أنه يجب أن يبدأ علاج جماعى لهؤلاء الأطفال عــلى مستوى الأمة كلها ، فوفقا لرأيهم لو تركت هذه الجراح النفسية لجاء بعد عشــر سنوات أخرى جيل من الشباب الضعيف الخائف الذى تحتل الامراض النفسية عقله وجسده .. وبالتالى تفقد الأمة بمرضه ما حاولت أن تجنبه بالحرب والصمود .. وهو خلق دولة قوية ..

شباب حائر ..

أميلا وعايدة ويادرانكا وسفيتلانا وغيرهن ، فتيات لا تتجاوز أعمارهن العشرين وبعضهن يقل عمره عن السادسة عشرة . جميعهن تسيطر عليه فكرة واحدة هى الرحيل .. وهن من الجيل الذى عاش الحرب والحصار ، وهؤلاء هن اللاتى يرغبن فى الحياة بعيدا عن البوسنة .. فالعائدات اللواتى عشن فترة الحرب فى الخارج وخاصة دول أوربية بعد أن عملن وحصلن على المال والثروة والحرية لم يعد بإمكانهن البقاء فى البوسنة بكل ما تمثله من تخلف عن تلك الدول ، وما يبقيهن حقا هو عدم القدرة على الرحيل لأسباب كثيرة .. رغم أن الكثيرات افلحن فى ذلك .. وما ينطبق عليهن ينطبق على الشبان والرجال ، وقد كان من الطبيعى أن يحدث الصدام المتوقع بين لاجئى الخارج وأولئك الذين عاشوا الحرب والحصار . فالاخيرون لم يجدوا من الحكومة ما يعينيهم على العيش ، وفى الوقت نفسه زاد عدد العائدين وزادت أعداد السيارات الفارهة فى الشوارع .. وظهرت ثروات لا يملك الكثيرين مثلها وبدأت الحسرة تجتاحهم .

وعلى الرغم من أن الصدام بين لاجئى الخارج والداخل لم يكن صداما بالمعنى المعروف .. إلا أن علماء الاجتماع فى البوسنة يحذرون من أن الصدام الخفى هو الأكثر خطورة .. فهناك من فقدوا كل شيء وهناك من حصلوا على الكثير وبين هؤلاء وهؤلاء يتوقعون أن يحدث الصدام ، وهو فى هذه الحالة ليس صداما بين أفراد ولكنه صدام مع الدولة التى فى نفس الوقت لا تملك الحل .

وفى الوقت نفسه فإن البوسنة تواجه ما هو أخطر من ذلك ، فمع توقف طلقات المدافع بدأت فى الظهور بعض الظواهر التى عادة ما تصحب أى

حـــرب مثل انتشار الجريمة والدعارة وغيرها ، وظهرت بشكل واضح جريمة السـرقة بالاكـــراه ، فهـناك سلاح كثير ولم تستطع السلطات بعد جمعه فالكل لا يزال يخشى ما هو آت فى المستقبل .

أمـــا أخطـــر هذه الظواهر على الإطلاق فهى ظاهرة الانتحار .. ويقول الدكـــتور بورو ديوكانوفيتش رئيس قسم الأمراض النفسية بمستشفى كوشفو – وهـــو أكـــبر مستشفيات سراييفو – أنه يتوقع أن يزداد عدد محاولات الانتحار وخاصـــة فى العاصـــمة ، كما أنه يتوقع نجاح الكثير من هذه المحاولات نظرا لـــلطرق الغريـــبة والعنيفة التى يسلكها المنتحر لإنهاء حياته ، ويأتى ذلك كله كنتيجة مباشرة للحرب وكذلك لما بعد الحرب .

يقـــول الدكتور بورو إن حالات الانتحار بدأت فور إعلان السلام وحدثت محاولتان كل شهر فى البداية فى سراييفو فقط إلا أن هذا العدد أخذ فى التصاعد شـــهرا بعد شهر .. وهى حالات لا تتوقف عند سن معينة فالبعض أقل من ١٦ عامـــا والـــبعض أكثر من ٤٠ عاماً ، والأمر لا يتوقف فقط عند حد الانتحار فهناك أيضا ارتفاع هائل فى معدل الجريمة وبشكل خاص بين الشباب ، وهنا تتراوح تلك الجرائم بين نزوع الشباب إلى انتهاك القانون عمداً إلى المقامرة إلى الدعارة وإدمان الخمور والمخدرات .

أمـــا أهـــم أســـباب الانتحار كما يحددها الدكتور بورو ديوكانوفيتش فهى عمليات الانفصال والتشتيت التى حدثت خلال فترة الحرب بين الأبناء والوالدين أو بين الأزواج وزوجاتهم سواء بلجوء بعض أفراد الأسرة إلى دولة أخرى أو توجه الزوج – ثم غيابه أو فقده – بعد انضمامه للجيش . ولعل أهم الأسباب هو فقد عائل الأسرة أو أحد أفرادها أو الأقارب أو الأصدقاء وفقد الأبناء على وجه الخصـــوص . وتشير الأبحاث الدولية – والكلام للدكتور ديوكانوفيتش – التى

أجريت هنا حول حوادث الانتحار ، أو جرائم الانتحار كما يسميها ، تشير إلى أن نحـــو ١٧ فى المائـــة من المحاولات كان وراءها أشخاص فقدوا أقارب - مقربين جداً - لهم وربما فقدوهم منذ فترة طويلة إذ أن معظم حالات الانتحار لم يـــتم بشكل مفاجئ بل أن نسبة الانتحار خلال الحرب نفسها كانت معدومة فيما بعض حالات فردية لمغتصبات ومن المؤكد إن هذه النسبة سوف ترتفع إلى ٢٧ فى المائـــة خلال الفترة القصيرة القادمة . وهو ما دفعنا إلى إقامة مركز أطلقنا عـــليه اسم مركز الأزمات ويشرف عليه علماء نفس وأطباء متخصصون لتقديم يد العون ومساعدة المرضى وحل مشكلاتهم كوسيلة أساسية لمنع الانتحار . .

يبقى أن أقول إن الدكتور بور ديوكانوفيتش هو نفسه صربى من مواطنى ســـرايبفو ويعـــترف بأنه واحد من قلائل أدركوا شرف مهنتهم وأبوا أن يتركوا ســـرايبفو الـــتى عاشوا وتعلموا وعملوا فيها .. ولذلك فقد كان يحظى باحترام الجميع وحبهم وليس هناك مفاجأة فى أن القسم الذى يرأسه الدكتور ديوكانوفيتش فى المستشـــفى كان يرأســـه من قبله الدكتور رادوفان كارادجيتش الذى يرجع إليـــه الفضـــل الأول والأخير فى كل حالات الانتحار التى جرت أثناء الحرب وبعدها " .

وبعـــد نشـــر هذا التحقيق الذى أجريته فى منتصف عام ١٩٧٧ بأكثر من ثلاث سنوات وتحديدا فى نهاية يوليو ٢٠٠٠ نشرت صحيفة " دنفنى أفاز " التى تصـــدر فى ســـرايبفو دراســـة علمية أشارت إلى أن ما يزيد عن نصف سكان البوسنة من الذين عاشوا سنوات الحرب والحصار يعانون من واحد أو أكثر من الامـــراض العصبية أو النفسية الناجمة عن رواسب تلك المرحلة والتى تنعكس على سلوكهم اليومى وعلاقاتهم مع المحيطين بهم .

وأشـــارت الدراســـة إلى أنـــه على سبيل المثال فإن حالات الانتحار بين البوسنويين المسلمين هى الأكثر قياسا بالبوسنويين من غير المسلمين وذلك لأنهم

كـــانوا الاكـــثر معانـــاة مـــن الحرب ، كما أشارت إلى أنه لايمكن تقدير نسبة الانـــتحار بيـــن الســـكان بشكل دقيق لأنها تظل الأعلى بين الشعوب الأوربية وخصـوصـــا شـــعوب الدول الاسكندنافية حيث نسبة المنتحرين هى الأعلى بين الشـــعوب الأوربيـــة ، كمـــا أوضــــحت الدراسة أن هناك ظاهرة شاعت بين المتضـــررين من الحرب والشك والخوف من الغرباء كأحد الأمراض النفسية الشائعة الآن فى البوسنة كما أن هناك حالة أكثر تناقضا وهى الشعور باللامبالاة بســـبب الشـــعور بالعجزعن التغيير ، ويفسر ذلك استمرار الحصار والقصف العشوائى المركز على المدن والقرى البوسنية دون استثناء لفترات طويلة امتدت لأكثر من أربع سنوات .

وتقـــول الدراســـة أن ظاهـــرة الهروب من الواقع تبرز من خلال رغبة الكثيرين ممن عاشوا أشد وأسوأ مراحل الحرب فى الهجرة من البلاد رغم أنهم كـــانوا يســـتطيعون ذلـــك أثناء الحرب لكنهم كانوا يصرون آنذاك على البقاء والمقاومة .

واعتـــبرت الدراســـة أن الأسباب الاقتصادية وطلب الحصول على فرص عمل ليس هو السبب الوحيد لطالبى الهجرة والذين يقدر عددهم بالآلاف والذين يحصـــلون فى الغـــالب عـــلى تأشـــيرات سفر أو هجرة إلى استراليا وكندا أو الولايات المتحدة الأمريكية كما أشارت إلى أن هناك سببا إضافيا لتلك الموجات من الهجرة والتى تتزايد مؤخراً إلا وهو الرغبة فى الابتعاد ونسيان كل ما من شـــأنه الـــتذكير بالحرب المدمرة أو الابتعاد عن مواقع الأحداث المأساوية التى تحمل العديد من السكان ذكريات أليمة .

إن المـــتعمق فى دراســـة المجتمع المختلط الأعراق فى البوسنة يمكنه أن يـــدرك مـــنذ البداية أنه كانت هناك فترات طويلة من الاندماج القصرى أحيانا

والأخـــتيارى أحيانا .. ونتيجة لذلك الاندماج أصبح من الطبيعى فى إطار دولة اشتراكية أقرب للشيوعية الروسية أن تلغى – إلى حد كبير – الحواجز الدينية .. وعـــلى سبيل المثال كان من السهل على رجل وامرأة أحدهما كرواتى والآخر صـــربى الـــزواج طالما أن الزواج يتم بطريقة التعاقد المدنى إلا أن هذا الأمر أيضا كان ينطبق على المسلمين .. وعلى الرغم أن الإسلام يحرم زواج المسلمة مـــن غير المسلم بينما يتيحه بالنسبة للرجل إلا أنه من المعروف أن نسبة غير قليلة من مسلمات البوسنة تزوجن من كروات أو صرب فى ظل تشجيع الدولة لمثل هذا الاندماج .. ولكن هذا الأمر الذى انتهى تماما مع الاعتراف بحقوق كل طائفة بعد الحرب أدى إلى آثار جد كثيرة بل وخطيرة على أبناء هذه الزيجات المختـــلطة .. ولقد شاهدت بنفسى آثار هذه الجريمة .. فالتشتت والضياع الذى كـــان يشـــعر بـــه بعض أبناء هذه الأسر المختلفة كان يسبب آلاما تفوق آلام الآخـــرين ، فـــالأم صربية والأب مسلم أو العكس ، وعلى الأبناء الإختيار بين أحدهمـــا لينضم إلى أحد المعسكرين .. لقد فقد الكثير من هؤلاء الأبناء هويتهم الحقيقيـــة ومـــن هؤلاء نشأت الفئة الكبرى من المنحرفين والمصابين بأمراض نفسية .

وعلى الرغم من هذا الوضع الغريب فإنه من المؤكد أن الشعب البوسنوى يدرك حقيقة الهوية التى ينتمى إليها فى ظل قدرته على الحفاظ على ما اكتسبه نتيجة الحرب ومما لا شك فيه أن هذا الأمر لا ينطبق على المسلمين وحدهم بل أنـــه ينطـــبق أيضا على الكروات والصرب على الرغم أن الأمر أكثر سهولة بالنســـبة لهم . وسيظل الأمل العالق فى عقول السياسيين – الحكماء – وأفراد الشعب هو أن ينتمى البوشناق وصرب البوسنة وكروات البوسنة إلى بلد واحد هـــو البوسنة والهرسك .. بحيث يفخر أى منهم فى النهاية بأنه بوسنوى وليس فقط لانتمائه إلى أحد هذه الأعراق .

ولا شك أن قضية الهوية والإنتماء ستكون أحد الأشواك الدامية التى يتعين علـى الكثيرين أن يسيروا فوقها سواء رغبوا فى ذلك أم لم يرغبوا ولا شك أن حل هذه المعادلة الصعبة ليس فى يد مراقب للأحداث مثلى بل إنه سيكون أولاً وأخيراً خاضع لعوامل أخرى من داخل هذا المجتمع ، ففى اعتقادى أن حل هذه القضـية بالـتحديد لن تستطيع أية قوة سواء دولية أو إقليمية أن تفرضه على المجتمع البوسنوى ما لم يكن راغبا هو فى حل متناقضاته بنفسه .

٤ ـ اللاجئـون

لم يحدث فى تاريخ البشرية أو تاريخ الشعوب أن أدت حرب ما إلى تشريد شعب بالكامل وهروبه من دياره كما حدث فى البوسنة عام ١٩٩٢ وما بعدها .. وما حدث فى كوسوفا فى عام ١٩٩٩ وما قبلها .

عـندما تـم توقيـع اتفاق دايتون للسلام كان عدد اللاجئين الذين غادروا البوسـنة مـن مسلمين وكروات وصرب بنهاية عام ١٩٩٥ قد وصل إلى ٢,٢ مـليون لاجئ .. وهو ما يزيد قليلا عن نصف سكان تلك الدولة . وفى الداخل بـلغ عدد المهاجرين من أماكن إقامتهم الأصلية نحو مليون شخص آخرين أى نحو ربع السكان .. أما من بقى منهم فى مدن وقرى البوسنة فقد بقوا لأنهم إما لم يستطيعوا الخروج منها أثناء الحرب وإما لأنهم أعلنوا أنهم – سيموتون دون أرضـهم – وقد حدث ذلك فى بيهاتش وموستار وزينتسا وتوزلا وجوراجدة ، وحدث بالطبع مع أكثر من سبعين ألف شخص ظلوا محاصرين داخل سراييفو لأكـثر من أربع سنوات وبعد مرور خمس سنوات من السلام لا يزال أكثر من نصـف مليون لاجئ لا يستطيعون العودة إلى بلادهم .. ولا يستطيع أكثر من مـليون آخرين أن يعودوا إلى مواطنهم الأصلية رغم أنهم يعيشون داخل حدود الدولـة ، والسـبب ببسـاطة أنه لا يوجد ما يعودون إليه .. لا منزل ولا عمل ولا خدمات .. لاشئ .. وإن وجد فإنهم لا يستطيعون الحصول عليه .

ليسـت تلك صورة قاتمة عن الوضع فى البوسنة .. بل هى مجرد صورة واقعيـة فرضتها سنوات الحرب الطويلة .. وعلى الرغم من ملايين الدولارات التى تدفقت على البوسنة منذ بداية فترة السلام إلا أن هذه الملايين لم تكن كافية لإعـادة مئات الآلاف من المشردين إلى منازلهم ليعيشوا من جديد حياة طبيعية كباقى البشر .

إن عـــودة هـــؤلاء اللاجئين ليست بالأمر اليسير .. ففى بلد مثل البوسنة بتركيبـــتها الســـكانية العـــرقية المعقدة لابد من حلول ثورية .. وقبل تقديم هذه الحلول ينبغى أن ندرك حجم هذه القضية ، فبنظرة سريعة إلى الخريطة السكانية قبل الحرب يمكن أن ندرك أن المدن الملاصقة للحدود الكرواتية وبشكل خاص فى غرب البوسنة فى مناطق إقليم الهرسك كانت تتمتع بأغلبية سكانية كرواتية أما المدن التى كانت ملاصقة للحدود مع صربيا فقد كانت تتمتع بأغلبية سكانية صربية .. أما المسلمين فقد تجمعوا فى الوسط .. وفى سراييفو بشكل خاص ، وعـــلى الـــرغم مـــن ذلك فقد كانت الاستثناءات تشكل قاعدة واسعة وهامة ، فبرتشـــكو عـــلى سبيل المثال كانت ملاصقة للحدود الكرواتية وهى قريبة فى الوقـــت نفســـه من الحدود مع صربيا إلا أن معظم سكانها كانوا من المسلمين والأمـــر نفســـه ينطـــبق على مدن مثل سربرينتسا وفوتشا . كما كان الكروات يشـــكلون أغلبية فى مدينة فيسوكو التى لا تبعد عن سراييفو سوى نحو عشرين كيـــلو مترا .. أما فى الغرب فقد كان الصرب يشكلون أغلبية فى مدينة درفار رغم أنها تقع فى وسط اقليم الهرسك الذى يعد معقل الكروات .

هـــذه التركيـــبة السكانية تغيرت بشكل جذرى فلم يعد فى سربرينتسا مسلم واحـــد ، بينما يعانى الصرب العائدين إلى درفار من مشكلات لا حصر لها مع الكـــروات .. والغريب فى الأمر أن المسلمين تقبلوا على الفور عودة الصرب والكروات إلى قراهم رغم وجود مشكلات فردية هنا وهناك ..

إن مرور خمس سنوات على انتهاء الحرب لا تعد فى عمر الشعوب سوى لحظات لا يمكن معها أن ينسى شعب البوسنة تلك الكراهية التى خلقتها سنوات الحرب بل إن الأمر يحتاج إلى سنوات طويلة حتى ينسى الجميع ما حدث .. إن استطاعوا .

أشــواك فى جـنب الســلام

لاشـــك أن مشكلة اللاجئين هى أهم وأخطر المشكلات التى تواجه البوسنة ويتعين أن يجد لها الشعب البوسنوى أو المجتمع الدولى أو كلاهما حلا سريعا ، إذ أنهـــا أكـــبر شوكة فى جنب الســـلام .. وستظل تدمى الأقدام حتى يمكن أن تحل ..

ولعله من الواضح أن قضية المهاجرين أو اللاجئين فى البوسنة تحمل فى أعماقها عدداً آخر من التناقضات ، وفى اعتقادى أن أهم هذه التناقضات تتعلق بالقوى العاملة .. ففى الوقت الذى أصبح فيه عدد كبير من اللاجئين يعملون فى قطاعـــات مختــلفة بــدول الـــلجوء وبشـــكل خاص فى ألمانيا التى تحملت – ولا تـــزال – العـــبء الأكبر ، وهم بالتالى يحصلون على مصدر ثابت للدخل المـــرتفع الـــذى قل أن يحصلوا على مثله فى بلادهم فقد أدى ذلك إلى إنعاش الأحـــوال الداخلية ظاهريا بسبب تدفق الأموال من هؤلاء المهاجرين إلى الأهل فى الوطـــن أو مع عودة الكثيرين الذين استثمروا أموالهم بشكل أو بآخر إلا أن معظـــم هذه الاستثمارات تمت بنمط استهلاكى إذ أن معظم هذه الأموال أنفقت عـــلى تجديـــد المنزل أو الملابس أو شراء سيارة وتغيير أسلوب المعيشة وهو الأمر الذى يتناقض بشكل صارخ مع الواقع الاقتصادى لهذا البلد . وفى معظم الأحوال تم استثمار جانب كبير من الأموال العائدة فى مشروعات صغيرة غير منـــتجة ، وقـــد لوحظ أنه فى الفترة من بداية عام ١٩٩٧ إلى نهاية ١٩٩٩ فقد تحولـــت معظم محلات العاصمة سراييفو إلى مقاه أو متاجر لبيع الملابس التى يتم استيرادها جميعا من الخارج وبشكل خاص من تركيا .. وقد أدى التوسع فى هذا النشاط إلى توقف عدد كبير من المشروعات بعد عدة أشهر ..

والملاحـــظ أن معظم أصحاب الحرف الهامة والفنيين لا يزالون يرفضون العودة إلى البوسنة حتى بعد استقرار الأحوال الأمنية والاقتصادية بشكل كبير ،

وعلى الرغم من ذلك فإنهم يرفضون العودة قبل أن يضمنوا عملا مناسبا – وهو قليل – وهو أيضا أحد أهم أسباب عدم عودة الجانب الأكبر من اللاجئين .

إن النقص الحاد الذى تواجهه البوسنة حاليا فى مجال الحرف المهنية يرجع إذن إلى رفض أصحاب الحرف الهامة العودة إلى البلاد .. وفى الوقت نفسه فإن الكثير من المصانع لا يزال متوقفا بسبب الدمار الذى لحق بها فترة الحرب . وفى اعتقادى أن عودة الحياة إلى هذه المصانع لن يتم إلا فى حالة عودة العمال وتغيير قوانين الملكية والاستثمار فى البوسنة .. وهو تناقض آخر غريب .

وفى الوقت الذى لا تزال فيه دول اللجوء تحتفظ بأعداد كبيرة من أصحاب المهن الهامة من اللاجئين البوسنويين فإن عددا كبيرا من المصانع والمناجم فى البلاد اعتمد على عمليات التشغيل الدورى للعمال نتيجة زيادة عددهم على عدد فرص العمل الحقيقية .. فبعض المصانع التى أعيد تشغيلها جزئياً لا تزال تتحمل عبء العمال الذين كانوا يعملون بها قبل الحرب وقد أصبح عددهم أكبر كثيرا مما تطلبه عمليات التشغيل والإنتاج ولذلك لجأت تلك المصانع إلى تشغيل جانب من العمال يوما أو أسبوعا ثم تشغيل الجانب الآخر لفترة مساوية حتى يحصل الجميع على فرص العمل . وبالطبع فإن الأجور تعطى مقابل أيام العمل الفعلى ، وهو ما يعنى أن عددا كبيرا من عمال البوسنة يعيش على نصف أجر الشهر أو أقل لمجرد الاستمرار .. إلا أن هذا الأسلوب يستهلك بالطبع أى أرباح يمكن أن تحققها هذه المصانع وبالتالى لا يمكنها من تطوير نفسها أو إعادة بناء ما تم تدميره أثناء الحرب .

وفى الوقت نفسه فإن دول أوربا الغربية التى لا تزال تعتمد وبشكل كبير على العمالة الواردة من الدول الأقل نموا – ومن بينها البوسنة والهرسك – قد

ساهمت فى تعميق هذا التناقض بشكل كبير ، إذ أنه فى الوقت الذى تحاول فيه هذه الدول إعادة ما تبقى من اللاجئين إلى بلادهم بعد أن أصبحوا يشكلون عبئا يصـــعب عليها الاستمرار فى تحمله فإن هذه الدول نفسها قدمت كل الإغراءات الكفيـــلة ببقاء العمال المهرة منهم للاستفادة بمهارتهم ورخص أجورهم .. بينما يشـــكل الآخرون غير المهرة عبئا كبيرا مثل الأطفال والنساء والشيوخ ، وعلى الرغم من مثل هذا التفكير العملى فإن من حق اللاجئين أن يعودوا عندما تكون الظـــروف مهيئة لعودتهم ، وهو واجب يتعين على الدول الأوربية تحمله إذا ما كـــانت بـــالفعل ترغب فى أن تعيش أوربا بلا حرب جديدة تهددها تكون أكثر كثيرا من تكلفة إعاشة هؤلاء اللاجئين .

وفى الوقت نفسه تسببت عودة اللاجئين الذين عاشوا فى دول أوربية على وجه الخصوص أثناء فترة الحرب إلى ما يشبه ضغينة اجتماعية كادت تتسبب فى انقسام المجتمع البوسنوى بشكل لا يحمد عقباه .. فالعائدين كانوا قد اعتادوا حيـــاة مختـــلفة وحصلوا على أموال تكفى حياة ميسرة ظهرت فى شكل الحياة ومظاهرها ونمطها الجديد وهو ما وقع على أولئك الذين بقوا داخل البلاد أثناء الحرب وقعا أليما .. إذ لم يكن هؤلاء يجدون قوت يومهم .. فما بالك بمظاهر الحيـــاة الأخـــرى .. وكان من الممكن أن تدرك الفرق الظاهرى بين اللاجئين العائدين والمواطنين المقيمين ، وقد أدى ذلك كما سبق أن ذكرت إلى ما يشـــبه عـــــداء اجـــتماعى داخـــلى .. إلا أن هذه الظاهرة لم تستمر طويلا .. لحسن الحظ .

مهاجرو الداخل

كما ســـبق أن أوضحت فهناك أكثر من ٨٠٠ ألف لاجئ بوسنوى مشردين فى الداخـــل .. فـــفى بدايـــة الحرب وأثناءها جرت أكبرعملية هروب متبادلة

بين أقسام البوسنة الثلاثة .. وعقب الحرب وضع المجتمع الدولى برنامجا أطلق عـليه اســم المدن المفتوحة ، ويعنى عودة اللاجئين سواء من الخارج أو من الداخــل إلى مواطــنهم الأصلية بغض النظر عن العرقية التى ينتمون إليها فى مقابل قيام المجتمع الدولى بدعم هذه المدن فى جميع المجالات بما فى ذلك إعادة إعمـــار المســاكن وإيجاد فرص العمل وتوفير الخدمات على أن تحرم من هذه المعونـــات المدن والقرى التى ترفض عودة الأقليات إليها .. وعلى الرغم من مشـــروعية هــذا الاســلوب وانضمام العديد من مدن البوسنة إلى هذا البرنامج إلا أنـــه حمــل فى باطــنه ظــلما فادحــا بالجانب المسلم الكرواتى على وجه الخصوص .

فقــد بدأ برنامج المدن المفتوحة بمؤتمر دولى عقد فى سراييفو فى أوائل عـــام ١٩٩٨ وأصـــدر المؤتمـــر بيّانا عرف بإسم " إعلان سراييفو " ، وفيه تم اعتبار العاصمة أول مدينة مفتوحة ، وبعدها عاد إلى المدينة نحو عشرين ألف صربى من اللاجئين . إلا أن هذه الخطوة كان لها تأثير سيىء على المواطنين المسلمين والكروات .. فالمدينة التى تضم نحو ٢٥ فى المائة من سكان البوسنة كــلها وقعــت تحــت ظلم جائر بسبب هذا البرنامج ، فمع بداية الحرب هرب الصـــرب من المدينة وكذلك هرب المسلمون والكروات من مدن مثل بانيالوكا وبرتشـــكو وفوتشـــا وكـــلها تقع داخل الكيان الصربى حاليا ، واحتل كل منهم مســـاكن الآخـــر ، ولكـــن الـــبرنامج قضى بأن يعود الصرب إلى منازلهم فى ســـراييفو دون أن يجـــبر الجانب الآخر على تطبيق نفس الإجراء وخاصة إلى بانيالوكـــا التى يعتبرها البعض عاصمة لصربسكا رغم أن مؤتمرا ثانيا أقر بأن تـــتخذ نفـــس الإجراءات فى تلك المدينة .. وعلى حين عاد نحو عشرين ألف صربى من بين ٤٥ ألفا غادروا سراييفو وضواحيها أثناء الحرب إلى المدينة فلم يعد إلى بانيا لوكا سوى ١٠٦ أشخاص – معظمهم يعملون فى منظمات دولية –

مـــن بيـــن نحو ٣٦ ألف مسلم وكرواتى طردوا منها مع الأيام الأولى للحرب لا يزال يعيش الجانب الأكبر منهم فى ضاحيتى فوجشتشا وايليدجا فى سراييفو فى حيـــن لم يعد أى مسلم أو كرواتى إلى مدن مثل سربرينتسا أو برتشـــكو أو فوتشا حتى الآن .

لقـــد أدى هذا الوضع إلى حدوث مواجهات عنيفة .. وقد شهدت ضاحية فوجوشتشـــا مواجهـــة بيـــن اللاجئين المسلمين الهاربين من سربرينتسا وبين الصـــرب العـــائدين إلى الضاحية ولم يمنع حدوث كارثة إلا تدخل جنود القوة المصرية فى سراييفو فى أواخر عام ١٩٩٨ .

والأمر نفسه ينطبق على مدن مثل موستار .. فالمدينة التى لا تزال عمليا مقســـمة بيـــن المسلمين والكروات تعيش فى تناقض كبير رغم أنها تمثل قلب الاتحاد المسلم الكرواتى ، فالكروات يعودون إلى موستار الشرقية – فى الجانب المسلم – بينما المسملين لا يستطيعون العودة إلى الجانب الغربى – الذى يسيطر عـــليه الكـــروات – الذين يرفعون فـــوق كل بناية فيه علم جمهورية الهرسك بوسنة المنحلة ..

ولا تـــزال المشكلة قائمة فى موستار ورغم إعلانها مدينة مفتوحة وإعادة بـــناء الجسور ما بين الشطرين الشرقى والغربى – فيما عدا ستارى موست أو الكوبـــرى الاثـــرى القديـــم الذى ترعى اليونسكو إعادة بناءه حاليا – فالجرح لا يـــزال غائرا ومن الصعب مداواته .. وما ينطبق على موستار نفسها ينطبق على عشرات من القرى والمدن المحيطة بها ومنها ما لا يزال مهدما لا يعيش فيها إنسان واحد تنتظر يد الإعمار ..

وســـوف تظل مشكلة اللاجئين شوكة حادة فى جنب السلام ما لم يتم إيجاد حـــل جـــــذرى وثورى لها ، ولكن مثل هذا الحل لا يمكن أن يتم وحده بل أنه ينبغى أن يأتى فى إطار حل شامل للمشكلات الأخرى .. ولن يتأتى هذا الحل ما

لـــم يتم وقف عمليات الإرهاب ضد العائدين وتدمير منازلهم . . فمدينة واحدة مثل ستولاتس والقرى التابعة لها فى منطقة الهرسك شهدت تفجير نحو عشرين منزلا أو أكثر خلال عام واحد كلها تمت عندما حاول مسلمون لاجئون العودة إلى تـــلك المـــنازل بعـــد إعادة إعمارها ، وقد فشلوا فى ذلك الأمر الذى أبقى الكثيرين بعيدا دون تكرار المحاولة .. لقد نجحت سياسية التفجير والتلغيم التى طالت فى كثير من الأحيان حتى المقابر نفسها فى إحباط جانب كبير من محاولة عـــودة لاجئى الداخل أو الخارج إلى مواطنهم . وهذا الأمر ينطبق على جيمع القوميات دون استثناء .

إن محاولـــة بســـيطة لزيارة مقابر إحدى القوميات فى مدينة أو قرية تقع تحـــت ســـيطرة أغلبية قومية أخرى يستدعى حراسة من شرطة الأمم المتحدة ومراقبة من المفوضية العليا للاجئين وربما حماية من قوات حفظ السلام وقوات الشرطة المحلية . وعلى الرغم من ذلك فإن الزائرين غالبا ما تعرضوا للأذى ، والتاريخ القريب يذكر عشرات من هذه الحوادث وقعت فى كافة أرجاء البوسنة دون استثناء ..

وتشـــكل بعـــض الحالات مفارقة أكبر .. ففى مدينة مثل سربرينتسا التى لا يقطنها مسلم واحد فى الوقت الحالى وكان سكانها من المسلمين يشكلون ٨٠ فى المائـــة مـــن تركيبتها السكانية قبل الحرب ، فاز المسلمون فى الانتخابات المحـــلية عام ١٩٩٨ بأغلبية ساحقة فى مجلس ادارة المدينة – وقد صوتوا فى امـــاكن الـــلجوء بالطبع – وعندما حاول النواب الفائزين دخول المدينة حدثت مصادمات رهيبة مع الشرطة الدولية وممثلى منظمة الأمن والتعاون فى أوربا وتخـــلت قـــوات – اسفور – وسقطت إحدى طائرات الهليكوبتر الدولية وفشل المجلس فى الاجتماع .. ولا يزال هذا الوضع مستمرا .

في أعقـــاب انـــتهاء العمليات العسكرية في إقليم كوسوفا في يوليو ١٩٩٩ كـــانت القـــوات الدولية تحمي العائدين إلى ديارهم ، ولم يستغرق الأمر سوى شـــهرين أو ثلاثة حتى عاد أكثر من مليوني لاجئ ألباني إلى منازلهم وعاد في الوقـــت نفســـه معظم الصرب اللاجئين ، وظلت تلك هي المهمة الأولى للقوات الدولية في الإقليم لفترة طويلة .. حتى أن تلك القوات اضطرت لاستدعاء مزيد مـــن القـــوات لحمايـــة عودة اللاجئين بعدما وقع من صدامات في مدينة مثل متروفيتشا . وقد ألهم هذا الإجراء الذي قام به المجتمع الدولي دون حتى طلب من الألبان إلى مطالبة بعض القيادات البوسنية وعلى رأسها حارث سيلايدجتش بتشـــكيل قـــوة مماثـــلة تكـــون مختصة بحماية عودة اللاجئين البوسنويين إلى ديارهم .. وفي اعتقادي أن هذه القوة لا تزال هي الحل الجذري الوحيد لإعادة الاستقرار إلى البوسنة .. ففرض عودة اللاجئين على جميع الأطراف وحمايتهم سيظل هو المهمة الأولى للمجتمع الدولي إذا ما أراد أن تعود البوسنة إلى سابق عهدها .. ولن يفوق تلك المهمة إلا القبض على مجرمي الحرب .

إن البوسنة تعيش تناقضات ساخرة أحيانا بسبب مشكلة اللاجئين ، وقد كنت شاهدا على تلك التناقضات الصارخة ، ولعل أكثرها طرافة - إن صح التعبير في هذا الموضع - أو ربما أكثر مأساوية ما حدث في عام ١٩٩٩ عندما شهدت البوســـنة أكـــبر مفارقة يمكن أن تشهدها دولة في العالم .. فمع الهروب الكبير الـــذي جرى في إقليم كوسوفو في مارس وما بعده من عام ١٩٩٩ بدا لكثيرين مـــن الألبان أنه لا ملاذ آمنا لهم غير البوسنة ، وهكذا توجهت في البداية أعداد قليلة منهم - وعلى استحياء شديد - إلى مناطق متفرقة من البوسنة .. وبعد عدة أشهر كان هناك ما يزيد عن ثلاثين ألف لاجئ ألباني يحتلون معسكرات كبيرة في تـــوزلا وســـراييفو وزينتسا ، وما يزيد عن عشرة آلاف صربي من سكان

الإقــليم نفســه تفرقوا فى عدد من مدن صربسكا ، فقد وجد كثير من الصرب أنفســهم مضطرون للتوجه إلى مواطنهم الأصلية التى كانوا يعيشون فيها مثل درفــار - عــلى الــرغم من أنها تقع داخل الاتحاد المسلم الكرواتى - وعلى الأرجــح فإن معظم الصرب الهاربين ، وكان معظمهم من الشباب الذى كان قد رفــض الحرب فى البوسنة ، قد رفض أيضا الحرب فى كوسوفو وهربوا من نظام ميلوشيفيتش حتى لا يقوم بتجنيدهم للحرب هناك ..

لقــد استغاث المسئولون فى البوسنة وناشدوا المجتمع الدولى المعاونة فى رفع هذا التناقض الصارخ . ففى الوقت الذى لم يكن يستطيع فيه مئات الآلاف من اللاجئين البوسنويين العودة إلى بلادهم فإذا بالبوسنة تستقبل عشرات الآلاف مــن اللاجئين الألبان والصرب فضلا عن نحو ١٣ ألفا من مسلمى السنجق - وهم بالأساس من مسلمى البوسنة - هربوا من إقليمهم الواقع فى غرب صربيا خشية أن يبطش بهم مليوشيفيتش كما بطش بالألبان .

ولقد عشت هذا التناقض لستة أشهر كاملة أو يزيد .. ولعلى أشير هنا إلى الــدور الذى قامت به وحدة مصرية صغيرة لا يزيد عدد أفرادها على ثلاثمائة فــرد من أجل مساعدة آلاف من لاجئى كوسوفو بتقديم الغذاء والأغطية لهم ، ومــا فعله السفير المصرى أحمد أبو طالب من أجل أن يرسم ابتسامة صغيرة على شفاههم فى وقت كانت مدنهم تحترق على أيدى الصرب .

٥ ـ أزمـة الحكم

في سبتمبر من عام ١٩٩٦ أجريت فى البوسنة أول انتخابات عامة لاختيار نــواب الشعب فى الدولة الجديدة فى ظل السلام .. وفى أكتوبر عام ٢٠٠٠ أى بعــد ما يقرب من أربعة أعوام على إجراء الانتخابات الأولى لم يتغير الوضع كــثيرا فى البوسنة .. وفى كل الانتخابات التى جرت بين التاريخين كانت آمال الأوربييــن بــل والمجتمع الدولى كله تنصب فى هدف واحد هو تغيير الرؤية القوميــة لــلحياة السياســية ونظــام الحكم فى البوسنة . فهل تم ذلك فعلا .. ؟ والإجابة منذ البداية بالنفى فماذا يعنى ذلك ؟ .

عــلى الرغم من ظهور العديد من الأحزاب المستقلة والجماعات السياسية الــتى تضم فى عضويتها أعضاء من القوميات الثلاث مثل الحزب الاجتماعى الديمقــراطى أو مجموعة التسعة والتسعين المعروفة باسم الدائرة ٩٩ – وهى جماعة تضم مثقفى البوسنة من جميع الاتجاهات والقوميات – .. وعلى الرغم من أن هذه الأحزاب على اختلاف أسماءها وتوجهاتها السياسية أصبحت راسخة الأقدام نوعا ما فى الحياة السياسية فى البوسنة والهرسك إلا أن نظرة عميقة إلى داخــل المجــتمع البوسنى تؤكد أن الأحزاب الثلاثة الرئيسية وهى حزب العمل الديمقــراطى بزعامة الرئيس على عزت بيجوفيتش وحزب الاتحاد الديمقراطى الكــرواتى والحــزب الديمقراطى الصربى ظلت هى الممثل الرئيسى للقوميات البوســنية مــن بوشــناق وكروات وصرب .. وفيما بين هذه الأحزاب القومية الــثلاث وجــدت أحزاب أخرى تخدم هى الأخرى فكرة القومية .. بما فى ذلك الحــزب من أجل البوسنة وحزب الديمقراطية الكرواتية الجديد وحزب الشعب الصــربى أو تحــالف الشــعب الصربى وغيرها وذلك على الرغم من أن هذه الأحــزاب الأخيــرة أبــدت عــند ظهورها قدرا كبيراً من المرونة إزاء فكرة الاندماج – التدريجى – بين فئات الشعب البوسنى وقومياته .

والواقع أن تفتت القوى السياسية فى البوسنة فى شكل أحزاب – معظمها هامشى – بلغ عددها أكثر من سبعين حزبا فى دولة لا يزيد عدد سكانها – بكيانيها – عن أربعة ملايين نسمة أدى إلى استمرار إن لم يكن تعميق الفكر القومى ، فقد انهارت فى كل مرة أجريت فيها الانتخابات سواء برلمانية أو رئاسية أحلام المجتمع الدولى بأن يسيطر على مقاليد الأمور سياسيون لا يؤمنون بالفكر القومى .

ولعل السبب الرئيسى كما سبق أن أشرت هو الخوف السياسى .. فالمسلمون والكروات والصرب على اختلاف عقائدهم الدينية اجتمعوا على أن المستقبل لا يزال مظلما ، وأنهم لن يفرطوا بسهولة فى تمسكهم بالقومية باعتبارها العامل الذى يحفظ لكل منهم حتى الآن وجوده وهذه القومية يمثلها حزب من الأحزاب الثلاثة ..

والخوف السياسى تشكله أيضا عوامل اقتصادية واجتماعية وسكانية وعسكرية فى المقام الأول . وهو خوف تغلغل على مدى أعوام طويلة من القتال فى نفوس الصغار قبل الكبار ، وعلى الرغم من دعاوى السلام ومحاولات الاندماج فإن البوسنوى – كما أثبتت الانتخابات الأخيرة – سواء كان بوشناقيا أو كرواتيا أو صربيا – عندما يقف أمام صندوق الاقتراع فإن صورة الماضى وأشباحه تنبعث أمام عينيه .. وتصبح أفكاره القومية وانتماؤه العرقى هى التى تقرر ماذا يفعل بورقته الانتخابية ..

وسوف تمر سنوات طويلة قبل أن يفوز حزب مستقل مثل الحزب الاجتماعى الديمقراطى بأغلبية تمكنه من تشكيل حكومة أو أن يتولى رئيسه – زلاتكو لاجومدجيا – عضوية مجلس الرئاسة الجماعى أو حتى الحصول على منصب رئيس أحد الكيانين .

ولعل نظرة سريعة على التركيبة السياسية فى البوسنة والهرسك تؤدى إلى فهم الواقع السياسى هناك بشكل أكبر وبالتالى فهم ما يحدث وما يمكن أن يحدث فى غضون السنوات القليلة القادمة .. بل ويمكننا من خلال ذلك وضع أصابعنا على مواطن الداء من أجل علاجه .

فمثلما هو الحال فى أى دولة ناشئة أو مستقلة حديثا دخلت البوسنة والهرسك فى عالم التعددية الحزبية على النمط الغربى دون تجربة طويلة .. فمعظم القيادات السياسية فى الأحزاب الحاكمة فى البوسنة حالياً هى نفسها الأحزاب التى كانت تمثل السلطة الأولى قبل الاستقلال فيما عدا بعض الاستثناءات على الجانب البوشناقى .. وهذه القيادات سوف تستمر لفترة طويلة فى الحكم .. فالأحزاب الناشئة غالبا ما كانت هى التى قامت بالنضال أو قيادة الدولة إلى التغيير .. وبالتالى فإن السلطة التى حازتها بعد الاستقلال أصبحت سلطة تاريخية وأصبح الولاء لها أمرا حتميا من قبل الجماهير .. وفى حالة البلقان بشكل عام أصبحت كرواتيا الآن وبعد رحيل زعيمها فرانيو تودجمان تمثل خروجا على المألوف .. فكان تودجمان زعيما لحزب الاتحاد الديمقراطى الكرواتى ، وهو الحزب الذى قاد كرواتيا إلى الاستقلال عن يوغسلافيا وهو الحزب الذى قاد البلاد فى حرب خرج منها منتصرا ، وبحدود بلاده التاريخية مضافا إليها اجزاء من هنا وهناك ، وخرج بها بعد أن أعطى الصرب درسا مضادا فى القومية والعنصرية .. وفى أول انتخابات جرت بعد وفاته فى أواخر عام ١٩٩٩ فشل حزبه فى الاستمرار فى الحفاظ على ولاء الشعب له وفقد مكانته وسيطرته على الحكم بل والحكم نفسه .. إلا أن الحالة الكرواتية الفريدة كان وراءها ديكتاتور انفرد حزبه بحكم البلاد بنفس الأسلوب الشيوعى القديم ، فحاول الإطاحة بكل معارضة أو رأى مستقل يخالفه ، وعندما أطاح به الموت

أخيــرا ، ذهب حزبه أدراج الرياح لأن الجماهير لم تعد تؤمن بأن نظامه يمكن أن يستمر .

ولعــل التجربة الكرواتية تكون مقياسا لما سيحدث فى كل البلقان مستقبلا باخــتفاء زعاماتهــا القديمة وهو ماحدث وبشكل محدد مع الاتحاد اليوغسلافى وزعيمــه الأوحــد سلوبودان ميلوشيفيتش .. على أن التجربة الكرواتية نفسها تختلف كثيرا عن الأمر فى البوسنة رغم وجود فكرة الولاء .

فالجماهيــر البوســنوية لا تزال مؤمنة بأن هناك واجبا عليها أن تلتزم به إزاء الأحــزاب التى خاضت الحرب من أجلها .. ورغم كذب هذا الزعم وفساد هــذه المقولــة .. إلا أنهــا واقع لا يمكن تغافله .. فمن ناحية خاض البوشناق جميعا الحرب ضد العدوان الصربى والكرواتى دون حاجة لانتماء حزبى .. فقد كان الانتماء عرقيا فى المقام الأول .. وواقع الامر أن الرجل الذى قاد البوسنة خلال الحرب كان فى الوقت نفسه زعيما لكل البوشناق فى تلك الأيام الأليمة .. ومن هنا أصبح يتعين على معظم البوشناق احترام هذا التاريخ وأن يدين بالولاء لعــلى عزت بيجوفيتش وحزبه .. وعلى الرغم من انشقاق حارث سيلايدجتش عــن هــذا الحزب – بعد الحرب – وهو ما أعتبر وقتها خروجاً على المألوف إلا أن ســيلايدجتش نفسه – فى اعتقادى – لا يزال يدين بالولاء للرئيس الذى يعتــبره ابــنه بالتبنى وخليفته فى حكم البوسنة . بل أن خلافات قيادات حزب العمــل الديمقراطى لسلايدجتش التى تصل أحيانا إلى الكراهية كانت مبنية فى الواقــع على حقيقة أن الأخير لم يعد يدين بالولاء لمن حققوا ا لاستقلال .. على الرغم من أنه كان أحد المقاتلين من أجل النصر والاستقلال .

ليــس الــولاء وحده هو العنصر الحاسم فى استمرار قوة النزعة القومية واستمرارها بين المواطنين فى البوسنة على اختلاف أعراقهم ، فالبوشناق بشكل

خاص لا يزال لديهم مخاوف - لها أساس - من عودة محاولات نزع جذورهم الوطـــنية والإطاحـــة بهـــم وبعـــثرتهم إلى أنحاء أوربا .. وهو وضع لا يزال جزئيا - قائما حتى الآن أو إلى تركيا أو إلى البلاد الإسلامية التى ينتمون إليها دينيا ، وهى المقولة التى كان يطلقها زعماء الصرب والكروات أثناء الحرب ، خاصـــــة وأن الصحف والزعامات الصربية لاتزال حتى هذه اللحظة تتحدث عن - الأتراك - عندما يكون المقصود هم البوشناق .

وفى الواقـــع فإن هذا الشعور بالخوف هو شعور عام لا يختص بالبوشناق وحدهم ، فليس الولاء وحده هو الدافع لتمسك صرب البوسنة وكروات البوسنة باســـتمرار الأحزاب السياسية القومية القديمة فى السيطرة على مقاليد الأمور . فمخـــاوف صرب وكروات البوسنة إزاء احتمالات تجدد آلام الماضى لا تزال قويـــة ولا يزالون يشعرون بأن هذه الأحزاب هى الوحيدة التى يمكنها أن تقف بصـــلابة ضد أى محاولة لإحياء آمال المسلمين فى تشكيل دولة - إسلامية - تكون لهم اليد العليا فيها .

ومـــن الصحيح أن حزب الاتحاد الديمقراطى الكرواتى فى البوسنة - وهو بالأســـاس فرع للحزب الأصل فى كرواتيا - هو الذى قاد عملية بقاء الكروات داخـــل البوســـنة ودخولهم إلى الاتحاد المسلم الكرواتى منذ عام ١٩٩٤ باتفاق واشـــنطن بعد فشله فى إعلان دولة مستقلة يعترف بها العالم فى البوسنة وهى الهرســـك بوسنة - على الرغم من نجاحه حتى الآن فى احتفاظه بمكونات هذه الدولة التى لا تزال تعيش عمليا داخل الاتحاد بما فى ذلك علمها القديم - وهو نفســـه علم كرواتيا دون علاماته الخمس المعروفة - وبما فى ذلك قوات جيش الدفـــاع الكـــرواتى التى لا يزال جانب كبير منها يتمركز فى مناطق الهرسك بوسنة - وعلى الرغم من انشقاق عدد من قيادات الحزب فى أواخر عام ١٩٩٨

وقيامهم بتشكيل حزب جديد على نحو مافعله حارث سيلايدجتش الا أن ولاء قادة الحــزب الأخيــر لأفكار الحزب القديم لا يزال قائما ، فالكروات لم يتخلوا عن فكــرة استقلالهم بكيان ثالث داخــل الدولة البوسنية طالما أن الصرب استقلوا بجمهوريتهم .. وطالما أن المسلمين – وهنا يكمن الخطر – هم الذين يسيطرون عــلى مقــاليد الأمور فى الاتحاد المسلم الكرواتى وهو أمر بعيد كل البعد عن الحقيقــة . لقد أراد الكروات أن تصبح البوسنة مقسمة إلى كانتونات على نمط الكانــتونات السويســرية وهو تصور رفضه المسلمون والمجتمع الدولى إذ أنه أعاد للأذهان شبح الحرب من جديد ، فالحرب كلها بدأت من أجل الوحدة وليس الانقســام ، وما ينطبق على كروات البوسنة ينطبق أيضا على صرب البوسنة الأكــثر تشدداً والأكثر تمسكاً بالأفكار القومية ، فهم الأكثر ميلاً إلى الإنضمام إلى صــربيا والأكــثر إيمانا بدولة كبرى تضم كل الصرب معا ، وهى الأفكار التى تبنتها الأحزاب القومية فى الكيان الصربى إن لم يكن جميعها وعلى رأسها الحزب الديمقراطى الصربي .

وكما سبق أن أشرت فإن المسألة القومية فى البوسنة – كما هو الأمر فى باقى دول البلقان – ستظل عاملا حاسما فى بقاء الأمور على ما هو عليه لفترة طويلة قادمة ، وأن ذوبان أو اندماج القوميات الثلاث بشكل نهائى داخل الدولة هــو مــن الأحــلام الممكــنة المستحيلة فى الوقت نفسه ، ولن يبلغ البوشناق والصــرب والكروات هذا الحد حتى يحصل الجميع على الأمان الكافى . وقبل ذلك كله انتهاء عصر الحرس القديم وأعنى القيادات القديمة التى لا تزال تحتل السـلطة ، تلك القيادات التى عاشت فترة الحكم الشمولى ، وحتى يظهر صف جديــد مــن القيــادات التى تؤمن بأن مستقبل البوسنة وآمالها فى الاندماج مع المجتمع الأوربى والانطلاق نحو العالم بمفهوم جديد لن يتم إلا بإبداء قدر أكبر

مـــن الثقة بين جميع الأطراف ونسيان الماضى . ولكن تلك الخطوة تحتاج إلى كـــثير مـــن الجهـــد ولا شك أن نظام الحكم الحالى فى البوسنة والهرسك ليس إلا صورة مكررة من نظام الحكم فى يوغسلافيا بعد وفاة الماريشال تيتو ، فعلى الـــرغم مـــن الشكل الديموقراطى الذى يتخذه هذا النظام - رغم الاعتراف بأن الظروف قد أملته - إلا أنه وفى الوقت نفسه يعد تكريسا لعملية الانقسام وتعميق الفكـــر القـــومى وهو الفكر الذى أطاح بيوغسلافيا كلها عندما رفض سلوبودان ميلوشـــيفيتش وهـــو رئيس لصربيا أن يتولى كرواتى رئاسة الاتحاد فى الوقت الـــذى يتولى فيه كرواتى رئاسة حكومته بناء على نظام الدور الذى كان متبعا بعـــد تيتو وهو النظام المتبع الآن فى البوسنة .. إن وجود مجلس رئاسى ثلاثى لدولـــة البوســـنة -مكـــون من بوشناقى وصربى وكرواتى - ومجلس وزراء مركزى يرأسه - مناوبان - أحدهما بوشناقى والآخر صربى يتولى كل منهما رئاسة الحكومة أسبوعا واحدا وعدد من الوزراء - لا يزيد عن ثلاثة أو أربعة- ونوابهـــم المقسمين بالتساوى بين القوميات الثلاث هو أحد الأمور التى عطلت وســـوف تعطـــل مسيرة الإصلاحات فى البوسنة لفترة طويلة وهو أحد الأمور الشـــائكة التى إذا كانت تضمن استمرار الدولة فى الوقت الحالى فهى لا تضمن بقائهـــا فى المســـتقبل ، ولذلك فمن المتعين أن يتم التخلص من هذا النظام فى أقرب وقت ممكن بعد أن أصبح عمل هـــاتين المؤسستين هامشيا أمام قوة نظام الحكم فى الكيانين المستقلين ولكل منها رئيس وحكومة تتحكم فى كل الأمور .. أما التعاون بينهما فليس إلا قشور وشكليات يفرضها المجتمع الدولى ولا يمكنها أن تنفذ إلى أعماق القضية وحلها ..

إن البوســـنة والهرسك تحتاج إلى حل سياسى جذرى لنظام الحكم ولنظام الانتخابات من أجل تغيير ما يحدث فيها إذا ما أريد لهذه الدولة أن تصبح دولة

متقدمة على النحو الأوربى .. والمثال الصارخ على فشل المؤسسات المشتركة حتى الآن هو مسألة اختيار أعضاء مجلس الرئاسة .. فقد ظل مومتشلو كرايشنك عضوا لمجلس الرئاسة لنحو عامين .. والمجتمع الدولى يدرك تماما أنه أحد المتهمين بارتكاب جرائم حرب والشعب البوسنى يدرك ذلك وجميع المسئولين فى البوسنة يدركون تشدده وخلال فترة توليه عضوية مجلس الرئاسة لم تخرج البوسنة بقرار واحد مشترك يؤدى إلى التقدم خطوة إلى الأمام .. وبعد خروجه من عضوية المجلس الرئاسى الثلاثى بأكثر من عامين تم اعتقاله لمحاكمته أمام المحكمة الدولية لمحاكمة مجرمى الحرب فى يوغسلافيا السابقة .

والمثال الثانى هو سير العمل بأهم مؤسسة تنفيذية فى البلاد إلا وهى الحكومة المركزية .. فقد ظل حارث سيلايدجتش ممثلا للمسلمين والكروات كرئيس مناوب للمجلس منذ إنشائه وتتابعت أسماء أخرى تمثل الجانب الصربى كان آخرها سفيتوزار ميهايلوفيتش الذى وصف عند تعيينه بأنه أحد المعتدلين الصرب .. والواقع العملى أن ما يحدث خلال اجتماعات مجلس الوزراء المركزى إنما يمثل حقيقة ما يحدث فى البوسنة كله ، فنادرا ما يتم الاتفاق على أى قرار يمس شئون الدولة .. أما الأساس فهو الاختلاف نظراً لأن كلا من رئيسى الوزراء يدافع عن مصالح القومية التى يمثلها وهى مصالح متضاربة بحكم ما جرى .. وبذلك تسير الحكومة فى خطين متوازيين لا يلتقيان .

إن الديمقراطية تعنى الانتخاب .. وإن نظاما انتخابيا برلمانيا يتيح الفرصة للأغلبية البوسنوية التى أصابها الإحباط مما يحدث فى البلاد لإنتخاب رئيس للبلاد ولانتخاب حزب أو ائتلاف يقوم بتشكيل الحكومة المركزية سيكون هو أفضل الحلول لاختيار المؤسسات المشتركة التى تعمل لصالح الجميع . فهذا

الاختيار سوف يتيح الفرصة لتوحيد القرارات وخدمة المجتمع بما لا يعطل مصالحها بين تنافر الآراء وتضارب المصالح بسبب النعرات القومية على نحو ما يحدث الآن .. فسوف تكون الانتخابات هى الفيصل النهائى لإقرار الديمقراطية الحقيقية فى هذا البلد الملىء بالمتناقضات .. ولعل هذين العاملين ليسا إلا مجرد آمال .. لكنها كما سبق أن أوضحت آمال ممكنة رغم أنها تبدو مستحيلة .. ولست فى موضع يسمح لى بأن أكتب - وصفة - للإصلاح السياسى وجهاز الحكم فى البوسنة إلا أن من يعيش فى هذا البلد يدرك على الفور مدى التخبط الذى يعانيه النظام بسبب تعددية الجهات الحاكمة .. إن دولة يرأسها خمسة رؤساء للجمهورية وأربعة رؤساء للوزارة وعشرات من رؤساء الوزارات والوزراء فى الكانتونات المحلية إنما سيحول نظامها إلى فراغ وفوضى سياسية لن تثمر على المدى الطويل دولة التعددية بل سيحولها إلى دولة تبحث طوال الوقت عن حل لمتناقضاتها وخلافاتها الداخلية مما سيجعلها تتخلف كثيرا عن الركب الذى يمضى أمامها مسرعا ..

عندما سئل رئيس الاتحاد الأوربى فى زيارة له إلى البوسنة عن الموعد الذى يمكن للبوسنة فيه أن تنضم إلى الأتحاد الأوربى قال ببساطة وبحزم .. " ستتمكن البوسنة من أن تصبح عضوا فى الاتحاد الأوربى إذا تمكنت من الانضمام إلى الاتحاد الأوربى لكرة القدم بفريق واحد يضم المسلمين والكروات والصرب ".. وقد فشلت البوسنة فى أن يمثلها فريق واحد حتى الآن .

يعتقد الكثيرون أن أياً من قيادات الجيل الحالى فى البوسنة والهرسك لن يشهد انضمام البلاد إلى الاتحاد الأوربى الأمر الذى لن يحدث قبل أعوام طويلة .. عشرون عاما على الأقل ..

٦ ـ مجرمو الحرب

كان أدولف هتلر زعيم المانيا النازى هو آخر مجرمى الحرب فى أوربا ، وقد شاء ألا يعطى الفرصة لأعدائه فى محاكمته على ما ارتكب فنفذ حكم الإعدام بنفسه وانـتحر .. كـانت محكمة نورمبرج هى آخر المحاكم التى تولت محاكمة مجرمى الحـرب الألمـان عـلى ما أرتكبوه من جرائم ضد البشرية .. وخاصة فى القارة البيضاء .. ولم يكن الأوربيون يدركون أن مجزرة جديدة ربما هى واحدة من أبشع مـا أرتكـب فى حق الإنسانية سوف تجرى فى البوسنة بعد نصف قرن من انتحار هتلر وقبل أن تغيب شمس القرن العشرين على عالم يتفكك .. وأبى هذا القرن إلا أن ينتهى بحرب بدأها صربى كما بدأ بحرب أشعلها صربى أيضا عندما اندلعت شرارة الحرب العالمية الأولى من سراييفو عقب مقتل ولى عهد النمسا .

فى عام ١٩٩٢ أعلنت الأمم المتحدة بدافع من الولايات المتحدة عن تشكيل محكمة جديدة لمحاكمة مجرمى الحرب فى يوغسلافيا السابقة ، ولم تتمكن هذه المحكمـة مـن أن تقوم بدورها الحقيقى إلا بعد سنوات من هذا التاريخ عندما أصبح لها قوة تنفذ ما تريد .. وفى أكتوبر من عام ١٩٩٥ أعلنت هذه المحكمة مـن مقرها فى لاهاى توجيه الاتهام الرسمى - الذى جاء متأخرا كثيرا - إلى كـل مـن رادوفان كارادجيتش وقائد قواته الجنرال راتكو ميلادنتش ومنذ تلك اللحظة تم اعتبار الاثنين مجرمى حرب .. ولا يزال الاثنان طليقى السراح حتى هذه اللحظة .

وعـلى الرغم من أن قائمة معلنة من قبل محكمة لاهاى تضم ٩٣ متهما بارتكاب جرائم حرب فى البوسنة - معظمهم من الصرب والكروات - فلم يتم اعتقال ومحاكمة سوى ٣٨ منهم .. وفى الوقت نفسه بدأ تساقط متهمين آخرين ممـن أدرجـوا على ما يعرف باسم القائمة السرية ، ومع بدايات عام ١٩٩٩

شـــهدت البوســـنة للمرة الأولى اعتقال من أطلق عليهم أهل البوسنة – السمك الكبير – وكان آخر هذه الأسماك مومتشلو كرايشنك .

إن قضـــايا جرائم الحرب لا تسقط بالتقادم .. ولا يزال البعض حتى الآن يطـــارد مـــا تبقى من أشـــباح الحرب العالمية الثانية حتى بعد مرور أكثر من نصـــف قـــرن على انتهائها .. لكن الأمر يختلف كثيرا فى البوسنة .. فالسمك الكـــبير مـــثل كارادجيتش وميلاديتش يعيش بحرية دون أن تمسسه يد ، على الـــرغم من أن مكان هذا السمك معروف والوصول إليه سهل ولكن هناك زعم بأن محاولة اعتقاله ستثير مخاوف اشتعال الحرب من جديد .. وعلى الرغم من هـــذا الزعم .. فقد تم اعتقال كرايشنك وتم اعتقال مومير تاليتش رئيس أركان جيـــش صرب البوسنة فى فيينا فى أواخر أغسطس عام ١٩٩٩ وكان أول من اعـــتقل مـــن السمك الكبير .. وعلى الرغم من التهديدات التى انطلقت من بالى ومـــن غيـــرها من مدن الكيان الصربى إلا أن الدنيا لم تنهد ولم تقع الحرب .. وأدرك الجميـــع أن المـــتطرفين وحـــــدهم يطلقون التهديدات .. وقد انتزعت أسنانهم .. وعاد الهدوء من جديد بعد أن تقبل الجميع الأمر ..

مـــن هـــو كرايشـــنك .؟ كـــان هو الساعد الأيمن لكارادجيتش وهو أحد الشخصـــيات المســـئولة عـــن المذابـــح الجماعية التى ارتكبت ضد المسلمين والكـــروات .. وقـــد شـــغل منصب رئيس برلمان صرب البوسنة منذ إعلان كارادجـــتيش عـــن تأسيس الحزب الديمقراطى الصربى عام ١٩٩٠ حتى عام ١٩٩٥ وهـــو مـــا يعنى أنه شغل هذا المنصب طوال فترة أزمة ما قبل الحرب وفـــترة الحـــرب نفسها .. وكان أحد أعضاء الفريق المفاوض فى اتفاق دايتون للســـلام .. وفى أعقـــاب الحرب شغل منصب عضو مجلس الرئاسة الجماعى الـــثلاثى للبوسنة والهرسك .. وكان يحظى وهو يحتل هذا المنصب بأكبر قدر من الكراهية بين زملائه من مسئولى الرئاسة والحكومة المركزية فقد كان أحد

المتشـــددين وأحد مجرمى الحرب وكان الجميع يعرفون ذلك والمجتمع الدولى أيضـا ..

وقـــد وضعت محكمة لاهاى اسم كرايشنك على رأس قائمتها السرية التى يعـــتقد أنهـــا تضـــم أكثر من عشرين اسما بهدف الحفاظ على وجودهم وعدم اعطـــائهم الفرصـــة لـــتوخى الحـــذر أو الهرب ولحماية حياتهم من الانتقام أو التصفية حتى يمكن الوصول إلى المستندات الهامة التى تحت أيديهم .. فكما هو معـــروف تعـــرض بعـــض مـــن أدرجت أسماؤهم فى القوائم المعلنة للمتهمين بارتكـــاب جـــرائم حرب للاغتيال وكان على رأس هؤلاء الجنرال أركان قائد ميليشـــيات التطهير العرقى فى البوسنة والمعروفة باسم الفهود السوداء .. كان هو الآخر أحد مساعدى كارادجيتش .. واغتيل فى أحد فنادق بلجراد .. على يد أنصـــار ميلوشيفيتش الذين كانوا يريدون إخفاء ما ارتكبه أركان فى البوسنة ثم فى كوسوفو بعد ذلك .

والمهم أن عملية اعتقال كرايشنك أثارت موجة من الارتياح بين مواطنى البوسنة وأحيت الآمال فى إمكانية اعتقال كارادجيتش .. فما الذى يمثله اعتقال هذا المجرم ومحاكمته ؟

من المؤكد أن توقيع العقوبة على المسئولين عن المجازر التى ارتكبت فى البوسنة هو أحد العوامل الرئيسية فى إنهاء حالة الانفصام التى تعيشها البلاد .. ولا أغـــالى فى القـــــول بأنه أحـــد العوامل فى إنهاء الحرب غير المعلنة فى البوسنة .. إذ أن الخوف من عودة أشباح الماضى كرادوفان كارادجيتش وراتكو ميلادنتش إلى السلطة بشكل أو بآخـــر - رغم إستحالة ذلك - لا يزال قائما .. ولا يـــزال هـــناك إعـــتقاد بأن كارادجيتش لا يزال له تأثير سياسى كبير على مجريات الأمور فى صربسكا إن لم يكن الحاكم الفعلى لها .

إن فكرة بقاء المجرمين أحرارا هى أهم عوامل عدم الاستقرار فى البوسنة ولذلـــك ستظل عمليه اعتقالهم هى أولى المهام التى يتعين على المجتمع الدولى تحقيقهـــا ، إذا ما أراد أن تستقر الأحوال فى هذا البلد ، وستظل صور المذابح البشعة التى كانوا مسئولين عنها حية فى الأذهان تثير أحقاد الماضى لتؤثر على الحاضر والمستقبل .

وإذا ما أدركنا أن الكثير من أفراد الشعب البوسنى وبشكل خاص المسلمون والكروات لا يزال لديهم الاعتقاد - وقد يكونوا على حق - بأن المجتمع الدولى وبشكل خاص دول أوربا الغربية - وبتحديد أكبر فرنسا لا ترغب فى أن يظهر كارادجيتش أمام محكمة دولية لمحاكمته عما أرتكب .. فسوف ندرك على الفور مـــدى الكـــراهية الدفينة التى يكنها أفراد هذا الشعب إلى من يحاولون منعه من تحقيق العدالة باعتقال هذا المجرم ومساعده .. فما الذى يخشاه الاوربيون إذا ما أعتقل كارادجيتش ؟

فى كـــتاب يحمـــل عـــنوان " لاهاى ضد تحقيق العدالة .. قضية الدكتور رادوفان كارادجيتش " كتبه البروفسور الصربى كوستا تشافوشكى عام ١٩٩٧ أورد المؤلف العديد من الوثائق التى حاول فيها إثبات أن كارادجيتش كان يعمل عـــلى إنهاء الحرب وأنه لم يكن مسئولا بصفة شخصية عن كل ما ارتكب فى معسكرات الاعتقال وفى القرى وفى المدن .. ويلمح الكاتب إلى أن كارادجيتش لا يزال لديه الكثير ليقوله عن المؤامرات التى دبرها الأوربيون من أجل تقسيم البوســنة واستمرار الحرب ، ويلمح أيضا إلى أن هناك كثير من الأسرار التى تكشـــف عمـــا حدث إذا ما اعتقـــل وقدم للمحاكمة .. فهل هـــذا سبب كاف لإبقاءه حرا ؟ .

فى الرابع والعشرين من يوليو١٩٩٥ أصدرت محكمة لاهاى بيانا أوردت فيـــه أن كارادجيتش - بالتضامن مع ميلاديتش - متهم بستة وعشرين جريمة

هى أخطـــر جرائم الحرب التى يمكن ارتكابها ومنها ممارسة التطهير العرقى وارتكـــاب جرائم ضد الإنسانية وانتهاك القواعد الدولية للحروب وإساءة معاملة المدنييـــن خـــلال الحـــرب وقصف تجمعات سكانية مدنية وتدمير دور العبادة وتدميـــر الممتـــلكات الخاصـــة واستخدام القناصة ضد أهداف مدنية واستخدام المدنييـــن كسواتر بشرية لحماية القوات الصربية والاغتصاب والضرب والقتل بغيـــر حـــق والتعذيب والسرقة والتمييز بين المدنيين المسلمين والكروات على أساس دينى ..

لقـــد أرتكبت هذه الجرائم فى مدن وقرى البوسنة وفى معسكرات الأعتقال الجمـــاعى فى أومارسكا وكراتيرم وترنوبولى ولوكا ومانياتشا وسوشيتسا وفى فوتشـــا وفى فلاسينتسا وبريدور وبوسانسكى شاماتس وبرتشكو .. لقد جرت تلك الأعمـــال أيضـــا فى حصار سراييفو على مدى أربع سنوات وفى أكبر مذبحة شهدتها أوربا فى تاريخها كله فى سربرينتسا فى يوليو ١٩٩٥ .

تلك هى الجرائم التى مهما بلغت قدرة أى كاتب على تصوير تفاصيلها فإن واقـــع مـــاحدث بالفعل سيكون أبعد كثيرا عن التصوير بالكلمات .. وهذه هى الجـــرائم التى لا يستطيع شعب مثل البوشناق أن ينسى للحظة أنها وقعت ما لم يتم تقديم مرتكبها إلى العدالة .. مرة أخرى .. ما الذى يخشاه الغرب ؟ .. وما الذى يخشاه ميلوشيفيتش إذا ما قدم كارادجيتش للمحاكمة ؟ .

فى أحـــد الأفـــلام الأمـــريكية الشهيرة يكون البطل عضوا فى المخابرات الأمـــريكية .. وعـــندما ينتهى من مهمته بالحصول على معلومات خطيرة عن العـــدو تسعى وكالته إلى تصفيته جسديا .. فيهرب ويلاحقه زملاؤه ويفاجأ بأنه أصبح هدفا أيضا من جانب العدو .. لقد أصبح مكروها من جانب كان يعمل له وآخر كان يعمل ضده .. والاثنان يخشيان افتضاح أمرهما .. بل أنهما يتعاونان

للمرة الأولى من أجل القضاء عليه .. لكنه يتمكن من الهرب .. يلاحقه أصدقاء وأعداء الأمس .. وطالما يحتفظ بصمته فهو حر ..

هـذا هـو الـبطل رادوفـان كارادجيـتش .. فالغرب يلاحقه أويطالبه بالصمت .. ومليوشفيتش يلاحقه أو يطالبه بالصمت . والثمن هو حياته وحريته التى أصبح يمارسها فى أقل نطاق ممكن .

كـثير مـن الـتقارير أشـارت إلى أن المخابـرات الأمريكية والفرنسية والبريطانية تعرف مكان كارادجيتش ، وأن السبب المعلن عن عدم اعتقاله هو الخـوف مـن إراقة الدماء .. وإعادة شبح الحرب إلى البوسنة .. فمإذا لوفعلها الغـرب حقيقـة ؟ .. ومـا هى إذن قيمة وجود آلاف من جنود القوات الدولية ومعظمهم من دول حلف الناتو مهمتهم الأولى هى حفظ السلام فى البوسنة ؟ .. وما هو السبب فى أن جميع من اعتقلوا من المتهمين بارتكاب جرائم حرب فى البوسـنة تـم اعتقالهم بواسطة هذه القوات التى لم تلتزم رسميا حتى الآن بأن يكون اعتقال هؤلاء المتهمين هو أحد مهامها الرسمية ؟ ..

الفصل الثالث

الوجـود العسكرى الدولى فى البوسنة

سلام أم وقف لإطلاق النار ؟

بعد أكثر من خمس سنوات على توقيع الاتفاق العام للسلام – اتفاق دايتون – فلا تزال العديد من الأسئلة مطروحة .. هل انتهت الحرب حقا ؟ .. هل كان اتفاق دايتون يهدف إلى التوصل لسلام دائم أم إلى فترة من السلام لالتقاط الأنفاس طالت أو قصرت تلك المدة مما يعنى أنه كان اتفاقا لوقف إطلاق النار ؟ .. هل كان الاتفاق تنفيذا لسياسة المخرج التى ابتدعتها الولايات المتحدة للخروج من العديد من الازمات الدولية ؟ أم هل كان الاتفاق مجرد ذريعة لوجود قوات أمريكية أو حتى قوات للناتو فى المنطقة إلى الأبد بدعوى حماية السلام ؟

منذ نوفمبر ١٩٩٥ وحتى الآن يردد الكثيرون فى البوسنة سؤالا أكثر خطورة .. ما هى احتمالات تجدد القتال ؟ .. ومنهم من يعتقد أن السلام سوف ينتهى مع انسحاب آخر جندى من جنود القوات الدولية فى البوسنة ورغم التخفيضات الهائلة التى جرت على مر تلك السنوات على الأسلحة التى يملكها الأطراف الثلاثة فإن السؤال يفرض نفسه بقوة .. هل تقع الكارثة بانتهاء الوجود العسكرى الدولى والذى أدى حتى الآن إلى إقرار السلام واستمراره ؟

ومما لاشك فيه أن سلاما يبدو حقيقيا قد حل فى البوسنة منذ نهاية عام ١٩٩٧ بالتحديد .. ففى هذا الموعد تم تخفيض الأسلحة وقطع برنامج التدريب والتسلح لجيش الاتحاد المسلم الكرواتى الذى يحمل اسم " درب وسلح " خطوات واسعة نحو استعادة التوازن الذى ظل مفقودا طوال الحرب فى القوى العسكرية فى البوسنة .. وطبقا للمثل الشائع بأن السلام يحتاج إلى قوة تحميه فإن الواقع يؤكد أن الجيش الاتحادى وعلى الرغم من كل المشكلات الداخلية التى يعانى

منها – وهو ما سنتعرض له بتفصيل أكثر – إنما أصبحت له القدرة على حفظ حدود الاتحاد ومنع أى غزو محتمل من جانب الصرب أو على الأقل سيجعل الصرب يفكرون مرات عديدة قبل أن يحاولوا إشعال الحرب من جديد ..

ولقد اتخذ المجتمع الدولى حتى الآن العديد من الخطوات الكفيلة بضمان استمرار السلام ، ومن المفترض أن هذه الخطوات تكفل هذه المهمة حتى بعد انسحاب القوات الدولية من البوسنة .. وبعيدا عما نص عليه اتفاق دايتون ففى اعتقادى أن ما اتخذه مؤتمر فيينا عام ١٩٩٦ بشأن وضع برنامج لتخفيض التسلح فى دول يوغسلافيا السابقة كان أهم تلك الخطوات ، فقد شمل البرنامج كلاً من الاتحاد اليوغسلافى " صربيا والجبل الأسود " وكرواتيا والبوسنة بطبيعة الحال .. فعلى الرغم من أن التهديدات الداخلية هى أكبر شوكة تعوق السلام فى البوسنة فإن التهديد الذى تتعرض له من الخارج وأقصد من قبل جارتيها الطامعتين فيها – صربيا وكرواتيا – هو خطر لابد من وضعه فى الاعتبار بشكل دائم وهو ما حرص عليه المجتمع الدولى .

ومما لا شك فيه أيضاً أن أقصى أمنيات المجتمع الدولى هو تحقيق الوحدة بين شطرى البوسنة بشكل نهائى ، الأمر الذى يضمن فى الواقع ألا يصبح فيه اتفاق دايتون مجرد وقف لإطلاق النار .. على أن تحقيق هذا الهدف الطموح لتحقيق الوحدة بين الاتحاد المسلم الكرواتى الهش والذى يفتقر فى الواقع إلى الثقة بين أطرافه وبينه وجمهورية صربسكا غير المستقرة والتى تتميز طوال الوقت بمقاومتها لتحقيق بنود الأتفاق كلما تعارض أحد هذه البنود مع مصالحها الاستراتيجية هو أمر غاية فى الصعوبة – على الرغم من وجود مؤيدين كثيرين له من الجانبين فى البوسنة – ذلك لأن هناك اعتقادا راسخا بأن اتفاق السلام لم يكن يعبر إلا عن استراتيجية المخرج .. ولا شك أن الحكم على النجاح فى تحقيق هذا الهدف سيعتمد بشكل كبير فى المستقبل على استمرار قوة

الســـلام .. ولكـــن مع وجود احتمال مستمر لخروج القوات الدولية من البوسنة والهرسك فلا يزال الحفاظ على السلام بشكل ذاتى ودون معاونة من قوة دولية وبالتالى تحقيق هدف الوحدة أمر بعيد المنال .

على أى الأحوال فسوف تظل المسألة العسكرية فى البوسنة واحدة من أهم عناصـــر الحـــرب والسلام ليس فى البوسنة وحدها بل فى البلقان ككل ، وفى اعـــتقادى أن هذه المسألة تعتمد بدورهـــا على ثلاث أسس رئيسية سوف تحدد بشكل كبير مستقبل السلام فى المنطقة .

أولا : التوازن العسكرى فى البوسـنة والبلقـان

كمـــا ســبق أن أشرت فقد قطعت المنطقة شوطا كبير فى هذا الاتجاه .. ولعـــلى أقـــتطف من حديث للرئيس على عزت بيجوفيتش ما قاله عقب انتهاء الحمـــلة الجوية على يوغسلافيا " إن صربيا ولعشرين سنة قادمة لن تجرؤ على تهديد البوسنة مرة أخرى " ويعكس هذا التصريح قيمة الخفض الهائل فى التسلح الـــذى تعرضت له يوغسلافيا بسبب حرب كوسوفو .. بل ويعكس ما يشعر به البوســنيون من احتمالات التدخل المستمرة من قبل جيرانها بسبب التوازن غير العادل فى التسلح فى المنطقة .. ورغما عن ذلك فقد أدت حملة الناتو إلى تنفيذ جزء - بشكل مقصود أو غير مقصود - من خطة خفض التسلح فى المنطقة .

فى فييـــنا نـــص اتفاق خفض التسلح على الحد الأقصى لعدد القوات التى تتشكل منها جيوش المنطقة بحيث يصبح جيش البوسنة والهرسك مكونا من ٦٠ ألـــف جندى بينما يتكون جيش الاتحاد المسلم الكرواتى من ٥٥ ألفا وجمهورية صربســكا من ٥٦ ألف وهو ما يجعل المجموع ١١١ ألفا الامر الذى يتناقض مع السقف المسموح به لجيش الدولة (٦٠ ألفا) إلا أن هذا التناقض يزول لسبب بســيط أن دولة البوسنة ليس لها جيش بالمعنى المعروف وإنما جيش لكل كيان

مـــن كيـــانى الدولة .. وكرواتيا ٦٥ ألف جندى ويوغسلافيا – صربيا والجبل الأســـود – نحـــو ١٢٤ الـــف جـــندى . وعلى الرغم من ذلك وبشكل طوعى واختيارى أعلن الجيش الاتحادى فى البوسنة ان التخفيض سيصل إلى ٤٥ ألف جـــندى . وعـــلى الرغم من ذلك فلو جاء ذلك اليوم الذى يعلن فيه الاتحاد بين جيشى الكيانين البوسنيين فسوف يتم تخفيض مجموع قوات الجيشين مرة أخرى إلى الحد المتفق عليه فى اتفاق فيينا وهو ٦٠ ألف جندى .

وربمـــا كـــان قيام كرواتيا وصربيا بالانصياع بشكل كبير لبرنامج خفض التســـلح قبل انفجار أزمة كوسوفا قد أدى إلى دفع المهتمين بالمنطقة إلى القول بأنه تم نزع فتيل حرب جديدة فى البوسنة .

على أن إعادة التوازن إلى ميزان التسلح فى داخل البوسنة هو فى اعتقادى العـــامل الحاســـم فى نـــزع ذلك الفتيل من عدمه .. وفى هذا وعلى الرغم من تحايل – جميع الأطراف – فى البوسنة على قرار خفض التسلح وتدمير الفائض منه عن طريق إخفاء كميات من الأسلحة والذخائر هنا أو هناك أو عدم الإبلاغ عنها وبشكل خاص من قبل المدنيين إلا أن عمليات التفتيش المفاجئة والحاسمة وبشـــكل خـــاص من قبل قوات الاستقرار والشرطة الدولية والتى طالت جميع معســـكرات الجيشـــين قـــد أدت بالفعل إلى نتائج فعالة كان لها أثرها البعيد فى خفـــض درجة احتمال تجدد الحرب . فقد قامت هذه القوات بالتعاون مع منظمة الامن والتعاون فى أوربا – وهى المعنية بشكل أساسى بتنفيذ أتفاق فيينا – فى مصـــادرة وتدمير مئات من قطع المدفعية والدبابات وقاذفات الصواريخ وآلاف من قطع الأسلحة متوسطة وصغيرة العيار وملايين من قطع الذخيرة التى كان الجميع يخفونها .

وقـــد شهد عام ١٩٩٨ أكبر عمليات لنزع الأسلحة الزائدة عن اتفاق فيينا وهى عمليات شهدت مقاومة فى بعض الأحيان من قبل الحائزين لها .. وينبغى

القـــول هنا أن ما تم مصادرته من أسلحة وذخائر وتدميره من الجانب الصربى وحده كان كفيلا بإشعال حرب يمكن أن تستمر لعدة سنوات أخرى .

لقد تم العثور على هذه الأسلحة والذخائر .. ومن بينها أسلحة كيماوية .. وقيـــل أحيانــــا وعلى سبيل المبالغة ، مكونات نووية ، فى مساكن مدنية وأنفاق مهجـــورة وفى مخــــابئ تحــت الأرض .. وما أكثرها فى كل دول يوغسلافيا الســـابقة وفى مغارات بالجبال .. كان العثور على كل واحدة منها كفيلا بنزع جـــزء من فتيل الحرب المحتملة .. وفى الوقت نفسه كان العثور على أى منها يؤكد أن الجميع بلا استثناء كان يستعد لهذه الحرب .. أو على الأقل أنه لا يثق فى الطـــرف الآخر .. وفى النهاية وبحلول شهر نوفمبر ١٩٩٧ أنتهت المرحلة الحاســـمة لخفض الأسلحة ، أما المرحلة الثانية غير المعلنة فكانت التخلص من رصيد ضخم من الاسلحة التى تزال مخبأة فى أماكن هنا وهناك وتلك هى التى يخفيها أشخاص مدنيون فى منازلهم ..

وقـــد مـــررت شخصيا بتجربة لم أر أو أسمع بمثيل لها فى أى من دول العـــالم .. فـــفى احتفالات رأس السنة الميلادية عام ١٩٩٦ كنت أسكن فى حى جربافيتســـا وهـــو الـــحى الذى ينقسم وتنقسم عنده سراييفو كلها إلى شطرين ، أحدهمـــا وهو الاكبر يتبع المسلمين والكروات والآخر يتبع الصرب ، وعندما دقت الساعة الثانية عشرة إعلانا بميلاد عام ١٩٩٩٧ انطلقت فى سماء المدينة ومـــن الجانبين مئات الآلاف من الطلقات النارية .. وكانت تلك الطلقات تزداد كـــثافة عـــندما يشعر أحـــد الجانبين بأن الجانب الآخر قد تفوق عليه .. كانت منافســـة بيـــنهما على إطلاق النار فى الهواء .. كان الأمر يبدو لى أنه حرب حقيقية – إذ لم أدرك معنى إطلاق النار إلا بعد أكثر من ساعة عندما اتصل بى أفراد من السفارة المصرية للاطمئنان على – لقد إستغرق إطلاق النار نحو ١٠ دقائق أو أكثر قبل أن تهدأ الأمور وتعود إلى ماكانت عليه .. ولكنى خلال تلك

الدقائق استطعت – من خبرات سابقة كجندى – أن أميز حجم هذه الطلقات الذى كـان يـتراو ح بيـن ٧مم و ١،٢ بوصة ، والأخير عيار يستخدم فى مقاومة الطائـرات المنخفضة .. كان الجميع يملكون أسلحة كثيرة ومن عيارت مختلفة وذخائر لا يعلم إلا الله كميتها . وفى اعتقادى كان ذلك أول إنذار حقيقى للمجتمع الـدولى فيمـا بعد السلام عن احتمالات تجدد الحرب .. لكن الأمر مع الأسف تكرر كثيرا فى مناسبات مختلفة فيما بعد .. ولكن بصورة أقل ..

وعـلى الرغم من البرنامج الذى وضعه ممثلو المجتمع الدولى فى البوسنة اعتـبارا مـن أواخـر عام ١٩٩٨ بشأن تسليم الأسلحة التى يمتلكها المدنيون طواعيـة وعلى الرغم من أن عدد من تقدموا بما لديهم وفق هذا البرنامج كان كـبيرا – وهـو برنامج يسمح بتقديم هذه الأسلحة دون عقاب أو تجريم لفترة محددة وأطلق عليه برنامج العفو – إلا أنه فى اعتقادى لا يزال هناك الكثيرون الذين يحتفظون بأسلحتهم .. ولا أبالغ إن قلت أن معظمهم موجودون فى الجانب الصـربى .. وعـلى الرغم من ذلك فإن هذا العدد الكبير من الأسلحة المخبأة سـوف يتـناقص تلقائيا إن آجلاً أو عاجلاً ، إما مع استمرار عمليات التفتيش المفاجئة التى تقوم بها قوات الاستقرار والشرطة الدولية على منازل من يشتبه فى حيـازتهم لهـا أو أن هـذه الأسـلحة والذخائر سيتم تصفيتها ذاتياً بمرور الوقـت .. إذ أن هذه الأسلحة تحتاج إلى صيانة باستمرار وإلا فسدت بعد فترة وفى كـل مرة تخرج فيها للصيانة ستكون هناك مخاطرة باكتشافها .. والأمر نفسه ينطبق على الذخائر .

ثانيا : إعادة بناء جيش البوسنة والهرسك :

مـرة أخـرى لسـت أبالغ إذا كنت أقصد فى هذا العنوان جيش البوسنة والهرسك .. الدولة .. أى الاتحاد المسلم الكرواتى وجمهورية وصربسكا معا !!

فمـــن المؤكـــد أننا ونحن نستطلع آفاق المستقبل فى هذا البلد عن طريق وضع أصـــابعنا على الداء فى الماضى والحاضر لا يمكن أن نغفل أن دولة يمكن أن تدافـــع عـــن نفسها ضد أى تهديد خارجى بثلاثة جيوش .. هى جيش المسلمين وجيـــش ميليشيات الدفاع الكرواتية وجيش جمهورية صربسكا – كما أن وجود هذه الجيوش بوضعها الحالى هو أمر لا يسهم بحال فى إقرار سلام دائم حتى لو وضعت تلك الجيوش تحت سيطرة قوات أكبر وأقوى مثل قوات الناتو كما هو الوضع حاليا .. فشرارة صغيرة لا تزال كفيلة بإشعال الحرب .

وعلى الرغم من أن هذا الهدف لا يزال بعيد المنال كما سبق أن أوضحت، فـــإن خطـــوات قد اتخذت بالفعل فى هذا الاتجاه .. وكانت الخطوة الأولى هى توحيـــد جيشـــى المســـلمين والكروات فى البوسنة .. وعلى الرغم من أن تلك الخطـــوة تمـــثل للجانبين شوكة أخرى من أشواك السلام إلا أنه ليس لأى منهم خيار آخر .. ولكن السؤال الذى يفرض نفسه فورا وقبل الحديث عن وحدة بين جيشى الكيانين هو : هل تحققت بالفعل وحدة الجيشين المسلم والكرواتى ؟ .

كـــان بـــرنامج الـــتدريب والتسـلح الذى شاركت فيه دول كثيرة – قادته الولايات المتحدة – هو أهم خطوة فى إعادة بناء الجيش الاتحادى .. فليس خافيا أن المسلمين لم يكن لديهم طوال فترة الحرب جيش بالمعنى المعروف للكلمة .. فقـــد نشأ هذا الجيش فى احتفال تم فوق أحد الجبال القريبة من مدينة زينتسا فى أغســـطس عـــام ١٩٩٢ ، ومـــنذ هذا التاريخ بدأ الجيش فى تكوين خبرته من الحـــرب نفسها ، وربما ساعده على ذلك أنه كان من بين قواده جنرالات أكفاء كـــانوا يخدمون قبلا فى الجيش اليوغسلافى الاتحادى ، إلا أن هذا الجيش كان يفـــتقر إلى السلاح وكان قوام هذا السلاح ما تمكن المسلمون من الحصول عليه مـــن معـــارك هزم فيها الجانب الصربى أو حصلوا عليها من مصادر خارجية خاصـــة مـــع فرض حظر على تصدير السلاح للمنطقة طوال فترة الحرب ..

ولعل أهم عناصر ذلك الجيش تلك الوحدة التى كان يطلق عليها اسم " البيريهات الخضــر " وهى وحــدة اتسمت بالتدريب الجيد والقيام بعمليات أشبه بعمليات القــوات الخاصة فى الجيوش النظامية المعتادة .. وبالطبع استعان هذا الجيش الوليــد بخــبرات مــن الخارج وبشكل خاص من دول إسلامية . . إلا أنه من المؤكد أن تلك الخبرات – الأجنبية – كانت محدودة للغاية .

أمــا عــلى الجــانب الكــرواتى فإن جيش مايعرف بقوات مجلس الدفاع الكــرواتى للبوســنة والهرسك لم يكن سوى ميليشيات انضم إليها أثناء الحرب مجــندون وضباط كانوا يعملون أصلا فى جيش الاتحاد اليوغسلافى ثم انضموا للجيش الكرواتى ثم توجهوا بعد ذلك إلى البوسنة بعد توقف الحرب بين كرواتيا وصــربيا لنحو ثلاث سنوات .. وكان هذا الجيش يملك سلاحا أكثر وتخطيطا وتــنظيما أكــبر بسبب الإمدادات الدائمة التى كان يحصل عليها من – الوطن الأم – كرواتيا .. وفى الواقع فإن الرئيس الكرواتى الراحل فرانيو تودجمان لم يــتخل عــن هــذا الجيش فى أحلك الظروف وظل حتى آخر أيامه يزوده بما يحتاجه من مال وعتاد وخبرة ضباط الجيش الكرواتى .

حتى هذه اللحظة لا تزال بعض وسائل الإعلام البوسنوية تشير إلى مناطق يســيطر عــليها الجيــش البوشناقى وأخرى تسيطر عليها قوات مجلس الدفاع الكــرواتى فى البوســنة .. والمناطق الأولى هى تلك الواقعة فى وسط البوسنة حــول مدن سرايبفو والجانب المسلم من موستار وزينتسا وتوزلا وغيرها من المــدن التى تتمتع بأغلبية سكانية مسلمة ، أما مناطق الجيش الكرواتى فتقع فى كــل إقــليم الهرسك وخاصة فى موستار الغربية والمدن القريبة من الحدود مع كرواتيا وخاصة مدينة ليفنو التى لا يستطيع أى إنسان حتى الآن أن يفرق فيها بين قوات جيش الدفاع الكرواتى فى البوسنة وبين قوات كرواتيا نفسها ..

ونتيجة لإعلان الاتحاد بين الجانبين وفقا لاتفاق واشنطن ١٩٩٤ كان على أعداء الأمس الذين حاربوا وجها لوجه فى أكثر المعارك التى وقعت فى البوسنة شراسة فى وادى نهر لاشفا - فى وسط البوسنة - قبل توقيع الاتفاق والتى قيل وقتها أن نهر لاشفا اصطبغ بلون دماء المسلمين الذين قتلوا هناك على يد الكروات .. كان عليهم أن يصبحوا حلفاء اليوم .. فهل نجح التحالف وهل نجحت عملية توحيد الجيش ؟

حتى قبل وفاة تودجمان فى أواخر عام ١٩٩٩ كان شريكا التحالف يتبادلان الاتهامات حول عملية تمويل الجيش الاتحادى .. فعلى الجانب الكرواتى كان الرئيس تودجمان يتهم الجانب المسلم فى الاتحاد بتلقى دعم مالى من دول إسلامية وعربية بينما الجانب المسلم يتهمه بتمويل قوات جيش مجلس الدفاع الكرواتى فى البوسنة وهو أمر لم ينفه الرئيس الكرواتى أبدا .. وإحقاقا للحق فإنه يتعين القول بأن ماكان يزعمه تودجمان لم يكن سوى محض خيال وتشويه للحقائق وتبرير لقيامه بتمويل جيش كروات البوسنة الذى كان يصفه بإستمرار بأنه خط الدفاع الأول عن أوربا ضد المسلمين !!! فضلا عن أن الدول العربية والإسلامية ومن بينها مصر ودولة الامارات العربية والسعودية وتركيا وإيران وباكستان قدمت لجيش البوسنة الاتحادى - بمسلميه وكرواته - أسلحة اندرجت جميعا تحت برنامج " درب وسلح " وكانت قوائمها معروفة ومعلنة وفقا لاتفاق فيينا .. ولا أعتقد أن الولايات المتحدة التى كانت ولا تزال تقود هذا البرنامج يمكن أن تسمح لأى دولة عربية أو إسلامية أن تقدم أموالا من تحت المائدة للجيش المسلم بينما تعلم أن كرواتيا تقدم سنويا إلى جيش كروات البوسنة نحو ١٥ الف جندى ونحو ٤٠٠ مليون مارك المانى لدفع مرتبات الجنود والضباط فيما يدفع المسلمون رواتب جنودهم وضباطهم - نحو ٣٠ ألفا - من ميزانية الاتحاد .. ونتيجة لضعف ميزانية الاتحاد فإن مرتبات الجنود والضباط

المسـلمين هى أقـل كثيرا من مرتبات الكروات وهو تناقض لم يتم حله حتى الآن .

أما التناقض الثانى وهو الأغرب فقد جاء نتيجة لعدم الثقة بين الجانبين .. فمعظـم الأسـلحة التى حصل عليها الجيش الاتحادى تتعرض لعملية تقسـيم غريـبة .. فحينما يحصل الجيش على أسلحة يحتفظ المسلمون بالمدافع – على سبيل المثال – فى معسكراتهم بينما يحتفظ الكروات بذخيرتها فى معسكراتهم أو العكـس .. وبالطبع فإن ذلك لا يشمل الأسلحة التى يتم تجميعها فى معسكرات الـتدريب المشـتركة الـتى تشرف عليها القوات الدولية .. وربما تجيب هذه التناقضات كلها عن السؤال .. فحتى هذه اللحظة لا يمكن القول بأن هناك جيش اتحادى بالمعنى الكامل للكلمة .

وعلى الجانب الآخـر .. فى جمهورية صربسكا .. فـمما لا شك فيه أن عمـليات تخفيـض الأسلحة أدت إلى تقليل قدرات جيش صرب البوسنة بشكل كبير كما أدت طول فترة الحرب إلى استهلاك معظم سلاحه إلا أنه على الرغم مـن ذلك فإن ما يملكه هذا الجيش بالفعل من أسلحة وذخائر إلى جانب خبرات عسـكرية يتمـتع بها ودعم معنوى ومادى غير محدود من صربيا .. لا تزال تشـكل خطـرا بالغـا فى حالـة اندلاع حرب ولو عن طريق الخطأ أو سوء الـتقدير .. أو حتى سوء نية بعض القادة ، فضباط وجنود جيش صربسكا من جانـبهم يشعرون أنهم تعرضوا للخيانة من الصديق قبل أن يتعرضوا اليها من قبل المجتمع الدولى ، ومن وجهة نظرهم فقد أرغموا على التنازل عن الارض التى استولوا عليها اما بقوتهم العسكرية وإما بالخداع إلا أنهم أرغموا على ترك معظم هذه الأرض دون قتال .. وعلى الرغم من أن الحقيقة المؤكدة هى أنه لو أسـتمر أمد الحرب لعدة أشهر فقط فربما فقدوا أكثر كثيرا مما فقدوه فى السلام إذ أنـه مـن المعـروف أن قوات الاتحاد الفيدرالى كانت قد بدأت فى تحقيق

انتصـــارات عديدة فى الأيام الأخيرة للقتال .. وربما تشهد المعارك التى دارت فــوق جــبل ايجمان فى تلك الأيام على هذه الانتصارات وفى غيرها سواء فى بيهاتش والمناطق المحيطة بها أو حتى فى بعض مناطق شرق البوسنة .. على أيــة حال لقد أصبح توقيت بدء عملية السلام يمثل علامة استفهام كبيرة خاصة وأن قوات الاتحاد كانت تسيطر فى بعض الأحيان على نحو ستين فى المائة من أراضــى البوسنة فيما كانت القوات الصربية تسيطر على هذه النسبة قبل أشهر قليلة من بدء عملية السلام .. وما يعنينا هنا أن ضباط جيش صرب البوسنة لم يكونــوا راضين عن اتفــاق السلام وقت توقيعه ، ولم يرضوا عنه أبدا ، ولم يــرغمهم عــليه - مــن وجهــة نظــرهم - إلا الــرئيس الصربى سلوبودان ميليوشيفيتش وليس الغارات الجوية التى كان حلف الناتو قد بدأ فى شنها خلال عام ١٩٩٥ على مواقعهم الهامة ومنها على سبيل المثال قاعدة هادجيتش القريبة من سراييفو ، وليس الانتصارات التى بدأ المسلمون والكروات تحقيقها ، الأمر الــذى أدى بقيــادتهم السياسية - كارادجيتش - إلى الإذعان للضغوط وتكليف ميلوشيفيتش بتوقيع اتفاق السلام نيابة عنهم .

وإذا كـــان هذا هو الحال فى جيش الاتحاد المسلم الكرواتى وحال قيادات جيــش صرب البوسنة فإنه يصبح من المنطقى ألا يكون هناك أى احتمال على المــدى القريب أو المتوسط لتوحيد جيش البوسنة بفئاته الثلاث فى وحدة واحدة إلا أنــه فى إطار حل سياسى بعيد المدى وربما بعد جيلين من الآن يمكن لهذا الهدف البعيد المنال أن يتحقق .. إذا ما بدأنا منذ الآن إجراءات بناء الثقة ، ذلك هو أهم ما يمكن قوله إذا ما كنا نحاول استطلاع آفاق المستقبل .

وكمــا قــلت فإن أى هدف بعيد المنال - و يحتاج الوقت لتحقيقه ، يحتاج أيضـــا إلى الــبدء فورا فى وضع خطوات لتنفيذه منذ الآن حتى لو كانت تلك الخطوات قصيرة وصعبة وتمر بحقل كثيف من الأشواك .

في عـــام ١٩٩٨ تـــم تشكيل هيئة عسكرية مشتركة من الجيش الاتحادى والصـــربى فى البوســـنة على أساس أن تكون هيئة اتصال تهدف من بين عدة أهـــداف إلى منع أى اشتباك يمكن أن يقع نتيجة لسوء فهم أو بشكل عرضى أو نتيجة لاستفزازات فردية بحيث يقوم كل من الجانبين بإبلاغ الجانب الآخر عن تحـــركاته ومناوراته واتصلاته بأى أطراف أخرى .. وكانت هذه الهيئة تهدف فى البداية إلى نزع فتيل أى نزاع محتمل نتيجة الخطأ .. ولكن فى العام التالى تطورت فكرة هذه الهيئة حتى أصبحت هيئة عليا يرأسها مجلس رئاسة البوسنة ورئيســـى الكيـــانين .. وفى الواقع أن هذه الرئاسة تتم فى إطار شكلى بحت - إلا أن قوات الاستقرار استفادت من النجاح النسبى الذى حققته هذه الهيئة نفسيا لتبدء أول عملية تدريب مشتركة بين الجيشين ، وكان هدف هذه العملية التدريب عـــلى نـــزع ألغـــام من إحدى المناطق الواقعة على الحدود المشتركة للكيانين باعتـــباره عمل يندرج أولاً وأخيراً تحت العمليات الإنسانية .. إلا أنه لا يمكن لأى شـــخص فى البوســـنة مهما بلغت درجة تفاؤله أن يعتقد - على الأقل فى الوقت الحالى - أن يذهب فيما يتعلق بالجيش إلى أبعد من ذلك على الرغم من أن شـــرطة الجانبين على سبيل المثال قامتا بعمليات مشتركة ربما كانت مثالا أكبر للتعاون ..

إن التـــناقض الرئيس الذى تشهده البوسنة والهرسك فى هذا المجال هو أن مجـــلس الرئاســـة الجماعى - الذى يتناوب أعضاؤه رئاسته بدورهم كل ثمانية أشـــهر - لا يعـــد فى حقيقـــة الأمـــر القائد الأعلى للجيش البوسنى الاتحادى والصـــربى - مثـــلما هـــو الحال فى جميع دول العالم - الموحدة - إذ أن هذا الجيـــش ليس موجودا بالأساس ، وليس من الغريب القول بأن البوسنة لا تزال بعيـــدة للغاية عن الاندماج فى الأسرة الأوربية والإنضمام إلى مؤسساتها الهامة مـــثل الاتحـــاد الأوربى طالما أنها تعيش فى مثل هذا الانقسام البالغ التعقيد ..

ولعـــل هـــذا هـــو السبب الذى دعا بعض الاوربيين إلى التفكير فى مد برنامج الـــتدريب والتســـلح – الذى تسهم فى تمويله بشكل كبير الدول الأوربية – إلى جيش صرب البوسنة ، وكان هذ التفكير يهدف إلى تقليل التوتر وإجبار الجميع على التعاون معا حين يضطرون إلى العمل معا والحصول على نفس التدريب وربما نفس التسليح والخبرات بما يعنى أن طرفا لن يتفوق على الآخر .. وفى النهاية يقتنع الجميع بأنه لا بديل لهم عن الاتحاد ..

وعـــلى الرغم من غرابة الفكرة التى يرى بعض المسلمين والكروات أنها ســـتكون بمثابة مكافأة للمعتدى .. إلا أنه فى اعتقادى أن فكرة الهيئة العسكرية المشـــتركة ومســـألة ضم الجيش الصربى إلى برنامج التدريب والتسلح ماهى إلا محـــاولات قـــد حان وقتها حيث يتعين على جميع الاطراف فى البوسنة أن تقترب شيئا فشيئا من المستقبل .. وهو فى جميع الاحوال مستقبل مشترك سواء رضـــيت بذلك هـــذه الاطراف أم أبيت خاصـــة إذا ما وضعنا فى الاعتبار أن ما حدث فى البوسنة بين عامى ١٩٩٢ و١٩٩٥ لن يتكرر بأى حـــال .

ثالثا : الوجود العسكرى الدولــى :

منذ بداية الأزمة الكارثة فى البوسنة عام ١٩٩٢ سعى المجتمع الدولى إلى إنهاء هذه الحر ب الوحشية عن طريق تدخل عسكرى ما .. وكما هو معروف منذ نهاية الحرب العالمية الثانية كان الغطاء المفضل لمثل هذا التدخل العسكرى هـــو غطاء الأمم المتحدة ... وعلى الرغم من نجاح هذا الغطاء فى العديد من الـــنزاعات الدوليـــة والمحـــلية إلا أنه فشل فى عدد منها أيضا ، فقد فشل فى الصومال كما فشل فى البوسنة .. بينما لم يكن هذا الغطاء كافيا فى صراع أكبر مثـــلما حدث فى حرب الخليج الثانية بعد احتلال العراق للكويت .. كما لم يكن

كافيـــا فى صراع أخطر كاد يؤدى إلى حرب عالمية جديدة تتورط فيها روسيا مثلما حدث فى أزمة كوسوفو فى نهاية القرن العشرين ..

فعـــلى مدى السنوات الأربع التى استمرت فيها الحرب فى البوسنة والتى لا شك أنها لم تكن حرب أهلية كما يحاول البعض أن يصفها – إذ تدخلت فيها قـــوات دول أخـــرى مثل صربيا وكرواتيا – لم تتمكن قوات محدودة من الأمم المـــتحدة ليس من بينها جندى أمريكى واحد – نحو ١١ ألف جندى – فى إنهاء هذه الحرب أو حتى الحد من عنفها أو من المذابح التى جرت تحت عينيها ، بل إن هـــذه القوات اتخذت كذريعة لارتكاب العديد من الجرائم فى بعض الاحيان كمـــا حـــدث فى سربرينتسا حيث لم تستطع قوات الأمم المتحدة من حماية أهل المديـــنة فذبحـــتهم قـــوات صرب البوسنة عن آخرهم تحت سمع وبصر جنود الـــبيريهات الـــزرقاء .. على أنه يمكن القول أنه كان لهذه القوات فضل توفير الحمايـــة فى كثير من الأحيان لمنظمات الاغاثة وبشكل خاص المفوضية العليا للاجـــئين فى توصيل المواد الغذائية لبعض المناطق المحاصرة والمساعدة فى عـــدم سقوط سراييفو بفضل القوة المصرية التى كانت تتمركز هناك إلى جانب صمود أهل المدينة الذى لا يمكن وصفه ..

ومع حـــلول عـــام ١٩٩٦ كانت قـــوات تنفيذ السلام implementation force (IFOR) قد تسلمت المهمة من قوات الأمم المتحدة .. وعلى الرغم من اختلاف الظروف التى مرت بكلا القوتين – قوات الحماية التابعة للأمم المتحدة UNPROFOR وقـــوات الناتو التى تدعمها قوات دول اخرى وهى قوات تنفيذ السلام IFOR – إلا أنه من المؤكد أن قوات تنفيذ السلام التى شاركت فيها ٣٧ دولـــة وبلغ عدد جنودها ٦٢ ألف جندى ، كانت أقوى بعشرة أضعاف من قوة الأمـــم المتحدة مما كان له أثره السريع فى إقرار خطوط الفصل ومنع اشتعال الحـــرب من جديد خاصة فى الأشهر الأولى من تطبيق اتفاق السلام .. ولو أن

هذه القوات دخلت البوسنة فى منتصف عام ١٩٩٢ لما كانت الحرب قد استمرت طويلا ..

لقد جاء العالم بهراوة ضخمة فى يده يفرض بها السلام على المتحاربين ، وكـــان حجم هذه الهراواة كفيلا بإسكات كل صوت معارض للسلام إلى حين ، وقد استمر عمل هذه القوة لمدة عام كامل ثم تم تغيير اسمها - وليس مهمتها فى اعـــتقادى - إلى قوات الاستقرار staplization force (SFOR) وهى القوة التى لا تزال تعمل فى البوسنة حتى الآن بعد أن تم تخفيض عددها إلى نحو ٢٣ ألف جندى من ثلاثين دولة .. وقبل نهاية عام ١٩٩٧ أعلنت القوات الدولية أنها ستنسحب من البوسنة بحلول يوليو ١٩٩٨ وفى الأشهر التالية بدأت بعض الدول ســحب قواتهـــا أو تخفيضها على الأقل وبشكل خاص ماليزيا وأندونيسيا بسبب الأزمة الاقتصادية التى تعرضت لها منطقة جنوب شرق آسيا فى ذلك الوقت ، وبـــدا للجميع بعد أن أشيع قرار الانسحاب أن البوسنة على شفا حرب جديدة .. حرب ستكون أعنف من الأولى لأن الوضع كما سبق أن أوضحنا كان قد أختلف كـــثيرا وأصـــبح المســـلمون والكروات يملكون سلاحا حقيقا وجيشا منظما - موحـــدا - بيـــنما أصاب الضعف الجانب الصربى .. لقد بدأت فى تلك الفترة ضـــغوطا داخـــلية ظهرت فى ارتفاع عدد حوادث العنف المسلح والهجوم على اللاجئين العائدين .. وظهر أن كارثة أخرى قادمة فى الطريق ..

ولم يكن غريبا أن أعداء السلام كانوا ينتظرون ذلك القرار وأصبحوا أكثر تحفـــزا مـــن قـــبل .. وبـــدأ الاضطراب الداخلى بين المواطنين على الجانبين يتصاعد .. وبدأ زعماء الجانبين - الراغبين منهم فى السلام - يناشدون الناتو الاســـتمرا ر والبقاء فى البوسنة .. ففى ذلك الوقت كان معظم مجرمى الحرب لا يـــزالوا مطلقى السراح .. وفراغ الساحة العسكرية سوف يعطى لهم فرصة العمـــر فى العودة والقفز على السلطة التى لا تزال ضعيفة وخاصة فى الكيان

الصـــربى .. وفى الوقـــت نفسه وقبل أن ينتهى العام ١٩٩٧ كانت بوادر أزمة كوســـوفو تـــلوح فى الأفق ، وبدا لحلف الناتو أنه ينبغى عليه البقاء لسببين .. الأول هو الحفاظ على السلام الذى لا يزال هشا فى البوسنة .. والثانى هو العمل عـــلى مـــنع الـــرئيس ميلوشيفيتش – فى حالة قيام حرب فى كوسوفو وحدوث مواجهة مع المجتمع الدولى – من تحقيق أطماعه القديمة .

لقد أدى الإعلان عن انسحاب قوات الاستقرار بحلول منتصف عام ١٩٩٨ إلى كشـــف حقيقـــة السلام الهشة وأدرك الجميع أنه يتعين على المجمتع الدولى وعـــلى وجـــوده العســـكرى فى البوســـنة أن يستمر لسنوات طويلة قادمة .. وإلا اندلعت الحرب مع رحيل آخر جندى دولى .

كيف يمكن للحرب أن تندلع فى البوسنة ؟ :

فى تقريـــر أعدته جماعة الأزمات الدولية (ICG) تحت عنوان " سلام أم مجرد وقف لإطلاق النار " وشارك فى إعداده مجموعة من المحللين السياسيين والخـــبراء فى شئون البلقان ، أشار التقرير إلى أهم الأسباب التى قد تؤدى إلى اشـــعال صـــراع جديـــد فى البوسنة إلا أنه التقرير حذر من أن رسوخ الأفكار القوميـــة يمكـــن أن تكون أول أسباب إشتعال هذه الحرب " إن السبب الرئيسى وراء احتمال تجدد القتال سيكون هو اختلاف التوجهات بين القوميين من صرب البوسنة والقوميين من كروات البوسنة من جانب ، واستمرار محاولة القوميين مـــن البوشـــناق انشـــاء دولـــة مركزية من جانب آخر " .. " وطالما أن هناك متشددون فى جميع الأرجاء أصابهم الإحباط نتيجة توقيع اتفاق السلام وما حققه مـــن نـــتائج فإن المرء لا يمكن أن يستبعد احتمال أن البعض يرغب فى جولة جديدة من القتال من أجل إعادة تعديل هذه النتائج مرة أخرى باعتبار القتال هو الأمر الوحيد الممكن لتحقيق ذلك " .

وهناك ما يعزز هذا الاعتقاد .. فمن جانب شهد ربيع عام ١٩٩٧ ثم على فترات متقطعة من بعده مناقشات فى وسائل الإعلام البوسنوية بشأن عدم انصياع جمهورية صربسكا الكامل لتطبيق اتفاق دايتون وخاصة ما يتعلق منها بحرية الانتقال وعودة اللاجئين والمشردين .. وقد رأى البعض أنه فى الوقت الذى يتمكن فيه الاتحاد المسلم الكرواتى من إعادة التوازن لقدراته العسكرة وزيادتها فسوف يكون قادرا بالتالى على تعديل - الأمر الواقع - فيما يختص بعملية التقسيم الإقليمى - الظالم - للبوسنة بالقوة .

وقد حاولت عدة دول أوربية وصحف غربية أن ترسخ فكرة أن المسلمين وحدهم لهم مصلحة فى تجدد القتال .. فمن وجهة نظرهم أن الصرب لا يمثلون سوى ثلث سكان البوسنة إلا أنهم حصلوا على ٤٩ فى المائة من الأراضى وفقا لاتفاق دايتون بينما حصل كروات البوسنة الذين لا يمثلون سوى ١٨ فى المائة من السكان على ٥١ فى المائة الباقية من الأراضى - بالمشاركة مع المسلمين- فضلا عن أن واقع الأمر يشير إلى أنهم لا يزالون يحتفظون بسيطرتهم على كل أقليم الهرسك وهو جزء من الاتحاد المسلم الكرواتى ، الأمر الذى يعنى أنهم يحتفظون باستقلال نسبى عن الاتحاد الذين يشاركون فيه ، وهو إقليم يسيطر على معظم طرق التجارة من وإلى باقى أنحاء البوسنة .. وعلى الرغم من ذلك فإن المتشددين من كروات البوسنة لا يزالون يشيعون أن هذا الإقليم عرضة للخطر فى حالة قيام حرب ، ولذلك فهم يطالبون دائماً بالاستعداد لرد مثل هذا الخطر ، والغريب أنهم يعتقدون أن هذا الخطر لن يأتى إلا من جانب المسلمين الذين يعرفون جيدا الأهمية الاقتصادية لمنطقة ليس لهم موضع قدم فيها إلا منطقة بيهاتش فى الشمال الغربى للبوسنة .

ولعل الأمر وفقا لسير هذه الأحداث من شأنه أن يشعر المسلمين بالغبن طوال الوقت ويضعهم أيضا موضع الشبهات .. باعتبار أنهم سيكونون على

الأرجــح سـببا فى إشعال الحرب من جديد – إن حدث – وباعتبارهم الخاسر الأكبر من اتفاق السلام .. وعلى أية الأحوال فإن احتمال تجدد الحرب لأى من هــذه الأسـباب كان مبنيا فى الأساس على انسحاب مفاجئ لقوات الناتو دون التوصل إلى إقرار سلام حقيقى ونهائى فى البوسنة .

والواقــع أنه نتج عن تقسـيم البوسنة وفقا لاتفاق السلام ما يشبه الحصار للمسـلمين وسـط البوسنة .. فهل كان ذلك هو هدف من وضعوا خطة التقسيم وأقصـد بهم الولايات المتحدة ودول أوربا الغربية .. وهو تقسيم لا يختلف فى الواقع عن الخطة التى اقترحتها الأمم المتحدة خلال فترة الحرب بتقسيم البوسنة إلى ثـلاث كانتونات – أو مناطق عرقية ! – وفى ظل هذا الوضع الذى خلقه اتفاق دايتون فسوف يتعين على المسلمين باستمرار أن يعلنوا عن حسن نواياهم وبـأنهم لـن يكونـوا البادئين بإشعال حرب جديدة على الرغم من أنهم الطائفة الوحيـدة الـتى ليـس لها أطماع فيما يسمى بدولة كبرى للمسلمين على غرار أطمـاع الآخـرين – صربيا الكبرى وكرواتيا الكبرى – كما أنه لا شأن لهم بمـزاعم الـبعض مـن أن الألبان – وهم مسلمون أيضا – يطمعون فى ألبانيا كـبرى ، فالعوامل الجغرافية التى جعلت المسلمين يعيشون فى جزيرة منعزلة وسـط بحـر من الطائفية الطامعة تمنع مثل هذه الفكرة .. وسيظل سيف الشك مسـلطا على رقاب البوشناق لفترة طويلة قادمة رغم ذلك ليس لسبب إلا لأنهم يريدون – وهو أمر مشروع – أن تصبح البوسنة من جديد وحدة واحدة .. أى دولة نمطية ذات حكومة مركزية موحدة متعـددة الطوائف والقوميات والأديان بـل والاتجاهـات السياسية .. وسوف يكون المحك الرئيسى دائما لصدق نوايا البوشـناق وفقـا لمعـتقدات الغـرب هو اللحظة التى يعلن فيها حلف شمال الأطلنطى الموعد النهائى لانسحاب قواته من البوسنة .. وهى لحظة يحاول قادة دول الحلف تأجيلها لأقصى مدى ممكن لأنهم يعرفون جيدا أن أطماع المسلمين المزعومة فى إعادة التوازن الجغرافى والتاريخى إلى البوسنة لا ترقى بأى حال

إلى أطمـــاع الآخـــرين فى ضـــم البوسنة كلها إلى امبراطورياتهم الوهمية .. وخاصة من قبل الصرب مع الوضع فى الحساب أن أطماع الكروات قد انتهت ولفترة طويلة قادمة برحيل صاحب نظرية كرواتيا الكبرى فرانيو تودجمان .

الولايات المتحدة وروسيا

بعيدا عن احتمالات تجدد الحرب فى البوسنة وضرورة بقاء القوات الدولية هـــناك فإنـــه باستقراء تاريخ استراتيجيات الدول المعنية بهذه المنطقة يمكن أن نخرج بنتيجة شبه مؤكدة وهى أن خروج قوات مثل قوات الولايات المتحدة أو روســيا عــلى المدى القريب أو حتى المتوسط هو أمر مستبعد نظرا لتوازنات عسكرية ودولية لا علاقة لها بمشكلات الطوائف البوسنية الثلاث أو باحتمالات تجدد الحرب فيما بينها ..

فعندما بدأ عمل قوات تنفيذ السلام فى البوسنة IFOR كانت القوة الضاربة الرئيسية لهذا القوات هى قوة أمريكية ، فمن بين أكثر من ستين ألف جندى كان هناك نحو عشرين ألف جندى أمريكى وعندما تم تخفيض هذه القوة إلى أقل من النصـــف قليلا اعتبارا من منتصف عام ١٩٩٨ ظل الجنود الأمريكيون يشكلون أيضا نحو ثلث القوة .. وعلى الرغم من أن عدد القوات الروسية كان يقل كثيرا فى الحالــتين عن القوات الأمريكية إلا أنهما تمركزتا فى أكثر مناطق البوسنة أهميـــة وهى المـــنطقة الشمالية الشرقية حيث اختارت القوات الأمريكية مطار مديـــنـــة توزلا ليصبح قاعدتها الرئيسية بينما تمركز الروس فى نفس المنطقة وعلى مسافة غير بعيدة من القوات الأمريكية ولا يزال هذا الوضع قائما حتى الآن .

ووفقـــا للتقسيم الذى وضعته قيادة الناتو فقد تم توزيع القوات الدولية على ثلاثـــة قطاعـــات رئيســـية وهى : المنطقة الشمالية والشرقية وتتولاها القوات الأمـــريكية ، والمنطقة الوسطى وتتولاها القوات الفرنسية وتضم أيضا القوات

الإيطاليـة والمصـرية - قبل انـتهاء فترة عملها فى أواخر عام ١٩٩٨ - والـتركية ، والمـناطق الجنوبيـة والغربية ويتولى قيادتها القوات البريطانية وتضم أيضا القوات الإسبانية والأوكرانية والمغربية - قبل أن تتجه الأخيرة إلى كرواتيا بشكل أساسى - وما يهمنا هنا هو الأمريكيين والروس ، فمن المعروف اسـتراتيجيا أن مـنطقة وادى تـوزلا والمناطق الجبلية المحيطة به يعد أكثر المناطق أهمية فى كل منطقة جنوب شرق أوربا .. فتكفى قاعدة عسكرية واحدة تـلحق بها قاعدة جوية للسيطرة على أجواء منطقة تمتد من شمال سلوفينيا على الحـدود مـع النمسـا إلى غـرب المجر وكل كرواتيا ويوغسلافيا فى الشرق والجنوب وكل سواحل بحر الادرياتيك الشرقية - فى غرب البوسنة وكرواتيا - فضـلا عـن كل أراضى البوسنة التى لا تزيد مساحتها عن ٥٦ ألف كيلو متر مربع .. ومما لا شك فيه أن اختيار الأمريكيين لهذه المنطقة لتصبح قاعدتهم لم يكن محض صدفة بل أنه كان يمثل حلما أمريكيا طالما كان يداعب قادة قواتها فى أوربـا .. وإذا كان القول بأن القواعد الأمريكية فى إيطاليا - أفيانو مثلا - تكفى للسيطرة على كل المناطق المذكورة فإنه من المؤكد أن قاعدة فى البوسنة وفى تـوزلا عـلى وجه التحديد تعنى خطوة كبيرة نحو الشرق وتعنى فرصة وضع مكان لقدم ثابتة أخيرا داخل البلقان .. وقد جاءت تلك الفرصة مع حرب البوسنة .

وليس غريبا فى الوقت نفسه أن القوات الروسية والتى لم تكن تعمل تحت قيادة القوات المشتركة فى البوسنة وإنما تحت قيادة مباشرة من رئاسة الأركان الروسية رغم أنها كانت تحمل نفس الشارة الدولية IFOR ثم من بعدها SFOR قد تمركزت فى نفس المنطقة بسبب معلن هو طلب صرب البوسنة ويوغسلافيا نظرا لقربها الشديد من الحدود اليوغسلافية ولسيطرتها على المناطق الهامة فى جمهورية صربسكا .. ولسبب غير معلن هو نفس سبب بقاء الامريكيين فيها .

ولقـــد ظهرت الأهمية الاستراتيجية لتلك المنطقة فى الأيام الأولى لدخول قــوات تنفيذ السلام إلى البوسنة فقد أجرت القوات الأمريكية أكبر عملية تدريب يمكـــن أن تقـــوم بها وسط ظروف تشبه ظروف الحرب عندما بدأت فى إنشاء الكبارى البديلة للكبارى المدمرة من أجل عبور القوات الدولية عليها إلى داخل البوســـنة .. وكان بناء أحد الكبارى على نهر صافا فى تلك المنطقة يمثل تحديا للجيش الأمريكى ، وقد نجح فيه على الرغم من أن العدو الرئيسى لم يكن سوى الظروف المناخية السيئة التى سادت المنطقة فى الأيام الأخيرة من عام ١٩٩٥ . وعـــبر هـــذا التدريب العملى تمكن الأمريكيون من تقدير إمكانيات تدخلهم بقوات أكبر فى ظروف مماثلة إلى قلب البلقان فى المستقبل .

وعـــلى الجانب الروسى فقد ظهرت جليا خلال حرب كوسوفو فى صيف عام ١٩٩٩ الأهمية الاستراتيجية – التى كان الروس يدركونها – لهذه المنطقة. فعـــندما قررت الأمم المتحدة دخول قوات دولية إلى كوسوفو لحفظ السلام فى بدايـــات يوليو من نفس العام انطلقت فى المساء دبابات وعربات روسية تحمل نحـــو ثلاثمائة جندى كانوا يتمركزون فى المنطقة الشمالية الشرقية من البوسنة فى اتجـــاه الحـــدود مع صربيا وعبروها قبل أن يتمكن أى إنسان من أن يفهم مغـــزى هذا التحرك الغريب .. وعند الصباح فوجئ العالم كله بالقوة الروسية الصغيرة وقد أحتلت مطار برشتينا – عاصمة إقليم كوسوفو – وقطعت الطرق المؤديـــة إليه ومنعت القوات الأوربية والأمريكية من استغلال المطار كمنطقة إنزال – وقيل وقتها أن المطار كان مخزنا هائلاً لأسلحة روسية فتاكة – وكان عـــلى الروس أن يصلوا إليها قبل أن يصل إليها الآخرون .. وربما يعزز هذا الاعـــتقاد ما لاحظه الكثيرون أثناء الأزمة من أن الغارات التى شنتها طائرات الناتو على مطار برشتينا لم تكن بالقوة التى تتناسب مع أهميته أو مع ما شهدته مطارات ومواقع أخرى فى كوسوفا أو حتى داخل صربيا نفسها .. وقد سنحت

لى الفرصـــة قـــبل أيام قليلة من بدء الحملة الجوية أن أشاهد مطار برشتينا .. وهـــناك همس لى صديق من ألبان كوسوفا بأن تحت أرض هذا المطار توجد منشـــأت ومخازن ربما تحتوى على أسلحة دمار شامل .. وحدد الرجل طبيعة تـــلك الأسلحة بأنها نووية .. ولم آخـــذ ذلك على محمل الصدق لعدة أســـباب أولها أن الرجل ألبانى وقد اعتبرت أنه ربما كان يبالغ أو ينقل لى معلومات غير أكيـــدة لتضـــخيم القوة التى يواجهها ألبان كوسوفو رغم أنه لم يكن بحاجة إلى ذلك ، وثانيها أنه لم يكن معروفا فى أى وقت أن يوغسلافيا كانت تمتلك أسلحة نووية – إلا إذا كان الروس قد وضعوها هناك بالتعاون مع النظام اليوغسلافى لأهداف خاصة – رغم استبعاد ذلك أيضا على أساس أن يوغسلافيا إحدى الدول المؤسسة لحركة عدم الانحياز – وثالثها أن الناتو لم يكن ليسمح بأن يتم تخزين أســـلحة نووية فى منطقة لا تبعد سوى مرمى حجر عن اليونان وإيطاليا ووسط أوربا كله .

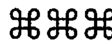
ومـــا يهمـــنا هـــنا هـــو أن القوات الروسية تمكنت وببراعة تحسد عليها الانطلاق نحو كوسوفا – كما فعلت فى الحرب العالمية الثانيـــة عندما وصلت إلى برلين قبل قوات الحلفاء – لتسبق كل قوات الناتو لتؤكد أمرا واقعا بوجودها وحـــتى لا تـــترك الميـــدان مـــرتعا للآخـــرين وذلك انطلاقا من تلك المنطقة الاستراتيجية فى البوسنة والتى كان مخططا لدورها قبل سنوات طويلة .

الأمـــر الـــثانى وهـــو الأهم .. أنه منذ نهاية الحرب العالمية الثانية كان الأمـــريكيون يخططون لوضع أقدامهم فى أهم المناطق الاستراتيجية فى العالم ليـــس لحصـــار الصين والاتحاد السوفيتى – السابق – أو روسيا حاليا فقط – وليس لحماية مصالحهم الاقتصادية والسياسية وحدها بل لحصار أى أيديولوجيا يمكن أن تصبح – فيما بعد – خطراً يهدد الغرب بشكل أو بآخر ، وهكذا جرت حروب كثيرة منذ ذلك الحين كان كل الهدف منها هو وضع – قدم ثابتة – فى

نقطـــة ارتكـــاز هامة فى منطقة ما من العالم ، وهناك أمثلة واضحة في قاعدة اوكيناوا فى اليابان والقواعد الامريكية فى ألمانيا وإيطاليا وتركيا بل وبريطانيا نفســها وفى بــنما وغيــرها وكانت هذه الإستراتيجية وراء حروب مثل كوريا وفيتــنام وأفغانستان ولا تزال القوات الأمريكية باقية فى منطقة الخليج العربى رغــم انــتهاء حــرب الخليج منذ عشر سنوات وستظل لفترة طويلة أخرى .. وأخيراً فى البوسنة وكوسوفو .

ووفقــا لنظرية القدم الامريكية الثابتة فقد أصبح من غير المقبول عمليا أن توافق الولايات المتحدة على انسحاب قواتها من البوسنة بعد أن وضعت قدمها هناك ، وهو ما يعنى أنها وضعت فى قلب البلقان عصا أخرى غليظة .. ومن غير المعقول أن تنسحب هذه القوات من تلك المنطقة الاستراتيجية قبل أن تدخل باقى دول المنطقة فى عضوية حلف الناتو مثلما فعلت المجر قبل الحملة الجوية ضد يوغسلافيا بأيام قليلة .

إن ما يعنينا هنا هو أن بقاء هذه القوات – بناء على رغبة الاطراف الثلاثة فى البوســنة – ســيطيل أمد السلام إلى فترة قادمة وهو أمر سينفى – أو على الأقل سيؤجل – مزاعم الكثيرين فى الوقت نفسه بأن المسلمين وحدهم يريدون خــروج القــوات الدولية من المنطقة حتى يتمكنوا من إشعال الحرب من جديد لإعادة توزيع الأرض بطريقة عادلة ..



الفصل الرابع

الأمم المتحــدة والبوسـنة
الانحيـاز

١ ـ ازرع شوكا لا تحصد غير الشوك ..

علـى مدى أكثر من ثلاث سنوات أمضيتها فى البوسنة كان يتعين على – وكذلــك على كل مصرى كان يعمل فى البوسنة أو يقوم بزيارتها – أن أنصب مـن نفسى محاميا عن الدكتور بطرس غالى الذى صادفه حظه العثر ، وربما حـظ مصـر ، أن يكون أمينا عاما للأمم المتحدة طوال فترة الحرب أو فلنقل طوال فترة الكارثة فى البوسنة والهرسك .

كـان هـناك خـلط واضح فى أذهان البوشناق – المسلمين – على وجه الـتحديد بشـأن هوية الدكتور غالى .. فهو مصرى عربى لكنه – وهنا تكمن المشكلة التى لم يصنعها أحـد – مسيحى أرثوذكسى – وهى الطائفة التى ينتمى إليها الصرب على الرغم من اختلاف الكنيسة الصربية عن الكنيسة المصرية – إلا أن الاعتقـاد السائد بين كثيرين من مسلمى البوسنة – أنه ولهذا السبب وحده – كان متعاطفا مع الصرب أكثر من تعاطفه مع الكروات – الكاثوليك – بسبب الكـثير من القرارات التى اتخذها وأدت فى رأيهم إلى تطويل أمد الحرب على حسـابهم ، وهـو أمر قد يكون مجافيا للحقيقة ويحتاج إلى كثير من البحث .. ولهـذا السـبب كـان دفاعنا عن الدكتور غالى .. ففى مصر حيث ولد وعاش وتـربى ليس هناك من ينشأ على عداء شخص آخر بسبب ديانته أو طائفته أو لونه ، ففى مصر مسلمون ومسيحيون وفى الناس من هو أبيض ومن هو أسود وتجمعهم صفة واحدة هى الانتماء لمصر .. لكن الأمر لا ينطبق وبكل المقاييس فى البلقان .. وبشكل خاص على الصرب ولذلك جذوره التاريخية التى لا يمكن أن ينكرها أحد ..

ولعـل الخـلط الـذى لا يزال قائما حتى هذه اللحظة يحتاج إلى توضيح خاصـة وأنـه أنتج كراهية لا حدود لها للرجل أدت فى كثير من الأحيان إلى

النظر على أنه لكونه مصريا فهو يمثل السياسية المصرية .. وهو خطأ فاحش آخر وقع فيه الكثيرون على الرغم من أنه كان هناك بالطبع من يتفهم الأوضاع على شكلها الصحيح .. وعلى الرغم من أن القرارات التى اتخذها الدكتور غالى كـــان يمكن أن يتخذها أى أمين عام آخر للأمم المتحدة بغض النظر عن عقيدته أو البـــلد الـــذى ينتمى إليه لا سيما وأنه لم يحدث – ولا أعتقد أنه سيحدث قبل أكثر من خمسين عاما ربما – أن تولى مسلم الأمانة العامة للأمم المتحدة .

ولكن وطبقا للمثل العامى الذى نطلقه فى مصر فى مثل هذه الأحوال " أنا وابن عمى على الغريب " فقد كان على وعلى كل مصرى فى البوسنة أن يدافع عن موقف الدكتور غالى ، ورغم أنه كانت هناك – بطبيعة الحال – استثناءات مـــن قـــبل مصريين وعرب كانوا يلعبون على حبل المسيحية والإسلام وفكرة التآمر .. ولم يكن دفاعى الذى لم يطالبنى به أحد عن غالى دفاعا عنه كشخص وإنما عن فكرة انتمائه لمصر وكأستاذ مسيحى تخرج آلاف من الطلبة المسلمين فى الجامعات المصرية على يديه ، ولا أعتقد أن واحدا منهم شكا يوما من أنه كان يسعى إلى إزكاء الطائفية فى مصر أو غيرها ، كما كان دفـــاعى مصدره هـــذا الخلط بين كونه مصريا وكونه مسئولا أجبرته الظروف على أن يكون – ممثلا لأفريقيا – على رأس أكبر منظمة دولية على وجه الأرض حتى يمكن أن نقول إنه ولمدة خمس سنوات كان رئيسا للعالم .

لقد كان حزنى بالغا عندما رأيت الفرحة والسعادة ، بل والشماتة الصريحة الـــتى لم يدارها أحد فى البوسنة عندما فشل الدكتور بطرس غالى فى الحصول عـــلى فـــترة ثانية لتولى أمانة الأمم المتحدة – بما فى ذلك الموقف الرسمى – وعـــندما اطمـــأن الجميـــع هناك إلى أن غالى قد غادر مكتبه فى الدور الثامن والـــثلاثين مـــن المبنى الدولى فى نيويورك ، تنفسوا الصعداء ، وكانت الفكرة العامة التى دارت فى رؤوس الناس يومها – وخاصة بين المسلمين – أن عدم

فــوزه كان عقاب من الله أو ربما انتقام منه لما فعله بالبوسنة وبأهلها ، وهكذا وبــدون أن تكــون لديه تلك النية فقد حصد الدكتور بطرس غالى الشوك الذى زرعــه فى قلوب أهل البوسنة يوم أن قال لهم وهم تحت الحصار والنار " أنتم أفضــل حــالا من شعوب أخرى مثل الصومال " وبين عشيه وضحاها بعد هذا التصــريح قام الصرب بذبح أكثر من عشرة آلاف مسلم فى سربرينتسا وحمل المســلمون غــالى مسئولية ذبحهم .. أما الأمر الأكثر غرابة فهو أن الصرب أنفســهم كانوا سعداء لرحيل غالى عن المنظمة فقد اعتقدوا - وهو أمر خاطئ أيضــا - أن الأميــن العام للأمم المتحدة قد تنازل للمسلمين والكروات عن كل شــىء اكتسبوه حتى ينفى عن نفسه تهمه الانحياز . ولعل مشكلة الرجل أنه لم يدرك أن الغريق لا يرى الآخرين ويعتقد أن حالته مهما كان هناك من هو أسوأ مــنه هى الأسوأ . ولقد حان الوقت أن نحلل ما أدى بأهل البوسنة وفى مقدمتهم الصرب الذين أتهموا غالى بأنه كان يأتى بقرارات تمنحهم الصرب - مزيدا من الأرض والانتصارات والوقت لذبح المسلمين والكروات إلى اتخاذ هذا الموقف وإلى هذا الخلط بينه كمصرى مسيحى وبينه كمسئول دولى كانت وراءه عوامل دوليــة أخــرى أدت إلى ذلك الوضع المأساوى فى البوسنة ، وهو لم يعد الآن ســوى شخصــية عامــة كانت له فى الماضى مواقف وضعته شاء أم أبى فى محكمــة الــتاريخ . وبــنفس القدر لم يعد هناك من يمكنه أن ينصب من نفسه محاميا عن غالى فقد دافع الرجل عن نفسه ، وعندما فعل فقد اعترف صراحة فى كتابه " خمس سنوات فى بيت من زجاج " عن فتره عمله بالأمم المتحدة بأنه كــان يحمل الجميع - المسلمون والكروات والصرب - مسئولية متساوية فيما حــدث - وهو اعتراف يسوى بين الشاه وذابحها .. كما أنه يعنى صراحة أن الجميــع كــانوا أشــرارا بمن فى ذلك الالآف العشرة من المسلمين الذى قدموا رقــابهم لــلجــزار الصــربى طواعية - من بين مائتين وخمسين ألف ضحية أخرى - لا لشىء الا ليثبتوا للعالم أن الصرب قوم أشرار .

٢ ـ غالى فى الأمم المتحدة .. كيف ؟

على منذ البداية أن أعترف بأننى شخصيا كنت من أحد المعجبين بالدكتور بطـــرس بطـــرس غالى – كسياسى – كان له دخل كبير فى إعلاء اسم مصر وأفـــريقيا ، وبتعريف المواطنين ليس فى مصر وحدها بل فى أنحاء كثيرة من العـــالم بمشـــكلات القـــارة الســـوداء – خلال فترة عمله كوزير دولة للشئون الخارجيـــة وقبلها ، وكان اهتمامه بأفريقيا – التى رشحته وساندته فى معركته لـــتولى منصب الأمين العام للأمم المتحدة – سببا فى الكثير من المشكلات التى صادفها خلال توليه المنصب .

ورغـــم اختلافى مع الكثير من اراء هذا المعلم الكبير وخاصة فيما يتعلق بإسرائيل فإننى أحترم فكره وتاريخه . وبالرغم من ذلك كله فإنه ليس هناك ما يمنعنى من القول بأنه أخطأ خطأً كبيراً عندما تولى هذا المنصب أو عندما سعى إليـــه رغـــم أنه أهم منصب دولى ، وأعتقد أنه تعرض بسبب هذا المنصب إلى الانحيـــاز رغما عنه . ووقع فى دوامة الكبار ولأنه لم يدرك جيداً ومنذ البداية قواعـــد اللعبة الدولية – رغم حنكته – لغطرسته –كما يقول هو عن نفسه – أو لرغبته فى الاستقلال برأيه وبمنظمته ، فقد اضطر أخيرا إلى أن يترك منصبه مرغما بعد معركة كان من المؤكد أنه الطرف الخاسر فيها .

فى أغســـطس عـــام ١٩٩٢ كـــنت فى نيويـــورك مع عدد من الصحفيين المصريين بعد أن أنهينا لتونا دورة دراسية فى كلية الإعلام بجامعة بوسطن ولم يكـــن قـــد مضى وقت طويل على تولى الدكتور غالى منصبه كأمين عام للأمم المتحدة .. وكنا خلال تلك الدورة قد التقينا بعدد كبير من السياسيين والإعلاميين الأمريكيين .. وكان من بين ما ناقشناه دور الدكتور غالى فى إصلاح المنظمة الدولية وإدارتها . وللحق فإن معظمهم – وخاصة الذين عملوا منهم فى مصر

لسـبب أو لآخـر – أشادوا بكفاءته وبرغبته الطموحة فى إصلاح المنظمة .. إلا أنهم وبدون أى استثناء أكدوا أن غالى سينجح إذا ما تمكن من الانضمام إلى هيـئة موظفى البيت الأبيض ليدير أعمال الولايات المتحدة من خلال مكتبه فى مبـنى الأمـم المتحدة فى نيويورك .. وهو أمر لم ينجح فيه – أو ربما رفضه غـالى – فـرغم أنـه حاول بطبيعة الحال أن يحظى فى البداية برضاء البيت الـبيض عـنه سواء عندما كان يحتله جورج بوش أو بعدها مع بيل كلينتون ، إلا أن غالى لم يتمكن وبسبب شخصيته الاستقلالية أن يصبح عضوا عاملا فى البيت الأبيض الذى منحه – تحت ضغوط دولية – هبة الامتناع عن التصويت ، وهى الهبة التى جاءت بغالى إلى الأمم المتحدة وهى أيضا الهبة التى تم سحبها منه بعد خمس سنوات ففشل فى الاحتفاظ بمنصبه .

خلال تلك الفترة كان لى حوار طويل مع أحد الصحفيين الأمريكيين والذى قـال لى ببساطة ووضوح " رغم أن غالى يجمع كل الصفات المطلوبة فى أى أميـن عـام للأمـم المـتحدة فإنه سوف يفشل فى النهاية لأنه – وبمزيد من الصـراحة – صـنيعة فرنسا ، وربما لا تدركون فى الشرق الأوسط أن هناك صـراعا خفيا أحيانا وعلنيا فى أحيان أخرى بين الولايات المتحدة وفرنسا ليس عـلى زعامـة العالم وإنما – وهو الأهم – على زعامة أوربا .. ففرنسا ومنذ سـنوات طويـلة ، ربمـا مع بداية حكم الرئيس ديجول تريد أن تكون لأوربا شخصـيتها المسـتقلة فى العالم وهو ما تريده الولايات المتحدة ولذلك فقد وقع غـالى سـواء بعلمه أو بدون علمه بين شقى الرحى ، خاصة وأن فرنسا كانت وراء ترشـيحه ودعمه بما لها من تأثير على منظمة الدول الناطقة بالفرنسية – الفـرانكوفون – ولا شـك أن صـراعا مـن هذا النوع غالبا ما ينتهى لصالح الولايات المتحدة ولا يبقى لفرنسا حين ذاك إلا بعض ردود الفعل غير المؤثرة فى أكثر الأحيان " .

ولـم يكن غريبا على بعد هذا الحوار بعدة سنوات وبعد أن قادت الولايات المـتحدة حملة إخراج غالى من الأمم المتحدة وكرد فعل فرنسى غير مؤثر أن تطـلب فرنسـا من غالى تولى رئاسة إحدى أهم المنظمات التى ترعاها وهى الفرانكوفون .. ولا يزال الدكتور غالى رئيسا لهذه المنظمة حتى الآن .

وفى أغسـطس مـن ذلك العام - ١٩٩٢ - دعينا للقاء بطرس غالى فى مكتبه بمبنى المنظمة الدولية فى نيويورك .. وكان فى ذهنى سؤال واحد أردت توجيهه إليه .. وكان سؤالى عما يحدث فى البوسنة وعما هو فاعل هناك بقوة لا تكـفى لحفظ السلام فى مدينة واحدة ؟ .. ولكن الإجابة جاءتنى ضمنا عندما أكد غالى أنه ليس لديه القدرة على اتخاذ قرار بنفسه فى هذا الشأن ، وعليه أن ينفذ ما يقرره مجلس الأمن . وهو مجلس تحكمه مصالح الدول الكبرى وخاصة الولايات المتحدة .. وبالطبع فإن غالى لم يشر إلى فرنسا التى كانت - فى وقت سـابق عـلى توليه المنصب - وراء قرار كان له أكبر الأثر على الحرب فى البوسـنة وهو قرار حظر تصدير السلاح إلى المنطقة .. على أية الأحوال لقد أدركـت فى ذلـك الوقت أن أزمة البوسنة والهرسك - التى بدأت تتحول إلى كارثـة - سـوف تكون فرصة لصراع أوربى - بقيادة فرنسا - مع الولايات المـتحدة ، وأن الصراع الجديد سوف يكون طويل الأمد وأن الولايات المتحدة سـوف تحـاول الفـوز به حتى لو كان الثمن على حساب دماء أهل البوسنة ومستقبلهم .

٣ ـ الشك .. والمؤامرة

إن أكثر القضايا التى أرقت ولا تزال حتى هذه اللحظة تؤرق المسلمين سواء فى البوسنة والهرسك أو فى باقى الدول الإسلامية حتى فى فترة السلام هى أنه كانت هناك خلال فترة الحرب وما بعدها مؤامرة ضد المسلمين ، وأن ما حدث فى البوسنة ليس إلا جزء من خطة أكبر ضد الإسلام .. وقد عزز هذا الاعتقاد ما جرى لمسلمى كوسوفا ورفض الغرب حصولهم على دولة مستقلة عن يوغسلافيا ، كما عززه ما حدث فى الشيشان وصمت العالم – بما فيه العالم الإسلامى هذه المرة – عما حدث ويحدث حتى الآن هناك .. وكان الشعور السائد ولازال هو أن العالم الغربى أو حتى فى روسيا أو الصين أو الفليبين أو غيرها من المناطق التى تشهد قدرا من الصحوة الإسلامية لا يريد مزيدا من تلك الدول التى تنعت نفسها " بالإسلامية " فما هو الحال لو كانت تلك الدولة داخل الحدود الاوربية ؟ .. ولعل ألبانيا خير إجابة على هذه التساؤلات وهذه الأهداف .

وما يعنينا هنا هو أنه لسوء حظ الدكتور بطرس غالى وبسبب فلتات لسانه أحيانا – اعتبره الكثيرون اليد التى نفذت الجزء الأكبر من هذه المؤامرة الغربية فى البوسنة والهرسك ، وسواء اعتبروه قد نجح فى ذلك أو فشل فقد كان يبدو لى أن الدكتور غالى أصبح كبش الفداء .. ولم ينجح هو أبدا فى أن يزيل تلك الفكرة من رؤوس مسلمى البوسنة .. فهو كما قلت قد زرع الشك فيهم ، وقد ظل هذا الشك ينمو حتى أصبح يرقى إلى درجة اليقين بوجود مؤامرة ومتآمرون هو أحدهم .

وينبغى القول أن قضية الشك والمؤامرة لم تكن وقفا على المسلمين وحدهم ، بل شاركهم فيها الكروات وكروات البوسنة وكان – ولا يزال – لديهم انطباع بأنه كانت هناك مؤامرة تحاك ضدهم كجزء من خطة أشمل لتحجيم

فكـــرة كـــرواتيا الكـــبرى التى كان يعلنها على الملأ أحيانا وسرا أحيانا أخرى الرئيس الكرواتى الراحل فرانيو تودجمان .

وحـــتى أكون منصفا فإننى سمعت من عدد من القيادات الصربية – سواء فى البوســنة أو يوغســـلافيا – أن الصرب تعرضوا لمؤامرة شارك فيها بحكم منصبه ورغما عنه السكرتير العام للأمم المتحدة وقت الأزمة فى البوسنة على الـــرغم من أن ما تعرض له المسلمون الألبان بعد ذلك فى كوسوفا – ولم يكن الدكـــتور غالى حينئذ على رأس المنظمة الدولية بل كوفى أنان – وهو إفريقى أيضا – لم يكن بأقل مما حدث أثناء الحرب فى البوسنة . ولكن يظل الكثير من المثقفين الصرب يدركون زيف فكرة تآمر الدكتور غالى ضدهم على الرغم من أن بعض الشك لايزال حتى الان ينبش صدورهم .

بحـــلول عام ١٩٩٠ وما بعده شهد العالم انتهاء الحرب الباردة بين الشرق والغـــرب وانهـــارت إمـــبراطوريات الشر الحمراء .. وتفتت الاتحاد السوفيتى وانهـــار سور برلين وتوحدت ألمانيا – ولعلها الوحدة الوحيدة التى شهدها العالم مـــنذ ذلـــك الحيـــن – وأثبتت الولايات المتحدة أنها القوى الكبرى الوحيدة فى العالم .. وقبل أن ينتهى عقد التسعينيات وينتهى القرن العشرون معه ، انضمت بعـــض الـــدول الحمـــراء الســـابقة .. وبـــترتيب زمنى محدد إلى حلف شمال الأطلنطى – الناتو – وإنضمت معظم هذه الدول إلى ما يسمى بالمبادرة من أجل الســـلام .. وفى بدايـــات العقد كانت يوغسلافيا الاتحادية بجمهورياتها الست لا تزال أقوى وأكبر الدول – شبه الحمراء – وكان سلوبودان ميلوشيفيتش يزحف بقوة نحو السيطرة على الاتحاد .. وتمكن من ذلك بالفعل فى سنوات قليلة .. فقد كانت طموحاته كثيرة وكبيرة مثله مثل أى دكتاتور فى التاريخ الإنسانى .. فقد كانت طموحاته شخصية أدت فى النهاية وقبل أن ينتهى القرن العشرون إلى أن يـــركع طالـــبا وقـــف تدمير ما تبقى من صربيا التى أرادها منذ البداية صربيا

الكبرى وأن يتولى شعبه القيام بثورة بيضاء للإطاحة به إلى الأبد بعد ذلك بعام واحد .

كـــان لابد وقد بدأت رياح الحرية والاستقلال تهب على أوربا الشرقية أن تـتحطم الدولة الأكبر والأقوى فى كل شبه جزيرة البلقان .. وفى إطار خطة كـــانت قـد وضعت بدقة شديدة كان ينبغى تفتيت يوغسلافيا الأقرب إلى وسط أوربا والمفتاح الاستراتيجى إلى الشرق .. وكانت الخطة تقضى بأن يتم انفصال مقدونيـــا حـــتى تضمن اليونان من ناحية الجنوب فاصلا استراتيجيا بينها وبين صـــربيا – عـــلى الـــرغم من اعتراض اليونان على إطلاق اسم مقدونيا على الجمهورية الجديدة ، وهو السبب الذى من أجله تحمل مقدونيا حتى الآن اسم – جمهورية مقدونيا اليوغسلافية سابقا – وأن تنفصل سلوفينيا وكرواتيا حتى تكون فاصلا بين النمسا وألمانيا وإيطاليا من الشمال والغرب وبين هذه الإمبراطورية الشريرة بحيث يكمل البحر الادرياتى الفاصل الطبيعى القائم بينها وبين ايطاليا حيـــث ستكون يوغسلافيا بعد اقتطاع أكثر من نصفها ضعيفة لا يمكنها تشكيل تهديد ما لجيرانها ، أما ما تبقى منها فسوف يتم تدميره بشكل أو بآخر فى النهاية ولذلك تم تأجيل البت فى قضية كوسوفا إلى آخر هذه الخطة .

وهكـــذا أوعـــزت الجماعة الأوربية إلى سلوفينيا وكرواتيا ومقدونيا بأنها ستضمن مساندتها إذا ما أعلنت استقلالها عن الاتحاد اليوغسلافى مشترطة أن يـــتم ذلـــك كلـــه فى إطـــار من الشرعية الديمقراطية أى عن طريق الاستفتاء الشـــعبى .. وهكـــذا ، ووفقا للسيناريو الذى سبق أن أشرت إليه ، بدأت عملية تفـــتيت الاتحـــاد اليوغسلافى .. وهكذا أصبحت سلوفينيا وكرواتيا ومقدونيا من الـــدول الأعضـــاء فى الأمـــم المتحدة .. والواقع أن اعتراف الولايات المتحدة بالبوســـنة أيضـــا قاد إلى اعتراف العالم بها أيضا – وهو حق لشعبها – إلا أنه ووفقـــا لفكـــرة المؤامرة التى لا تزال تستولى على أذهان هذا الشعب – وربما

يكـــون ذلـــك عن حق أيضا – فإنه من المؤكد أن البوسنة والهرسك لم تكن فى حسبان من قاموا بالتخطيط لتفتيت الاتحاد اليوغسلافى .

لم يكن أكثر السياسيين الأوربيين حنكة ليفكر ولو للحظة واحدة فى إمكان قيام دولة إسلامية على حدود أوربا الغربية .. فأوربا التى لا تزال متشككة فى قدرة تركيا على الاندماج فى الاتحاد الاوربى – رغم أنها دولة علمانية – ليس إلا لأنها دولة إسلامية ، لم تكن لتسمح بوجود دولة يشكل المسلمين أغلبية فيها بإقامة دولة مستقلة يكون للمسلمين فيها القيادة وحدهم .

وعلى الرغم من أن أحدا فى البوسنة – غير كبار السن الحالمين – لم يكن يفكـــر فى تـــلك الدولـــة الاسلامية ولا وردت على خاطر زعيمها على عزت بيجوفيش وقت أن قرر إجراء استفتاء الاستقلال .. إلا أن الرعب الذى أجتاح أوربا والولايات المتحدة وقبلهم جميعا سلوبودان ميلوشيفيتش كان قد تسرب إلى القـــلوب .. فمـــع انتهاء الحرب الباردة واستئناس روسيا كانت قد ظهرت فكرة العدو الاستراتيجى الجديد للغرب ، وكان الإسلام – من وجهة نظر الغربيين – هـــو ذلك العدو .. ولسوء حظ مسلمى البوسنة أن رغبتهم فى الاستقلال وإقامة دولة له جاءت فى نفس الوقت .. ورغم استحالة تنفيذ هذه الرغبة عمليا للطبيعة العرقية التى تتميز بها البوسنة ، إلا أنها كانت سببا فى اشتعال حرب لم تهدأ فى ظنى حتى الآن .

على هذا الأساس اشتعلت الحرب الأكثر ضرواة فى يوغسلافيا السابقة فقد كان هناك خطا أحمر واضحا لا يمكن تجاوزه .. لا دولة للمسلمين فى البوسنة والهرســـك .. أى لا دولة للمسلمين فى أوربا .. وإذا كان يحلو للبعض الإشارة لألبانيا على أنها دولة إسلامية – رغم أنها كذلك بالفعل – إلا أنه من الواجب أن نقـــول إن مثل هذه الإشارة ليست صحيحة من جانبها السياسى .. فخلال حكم أنور خوجة أصبحت ألبانيا واحدة من دول العصور الوسطى تحتاج إلى عشرات

الســنين قــبل أن تصبح مصدر تهديد من أى نوع لأوربا .. وهو أمر يختلف بشــكل جــذرى مع البوسنة التى تمتلك كل مقومات الدولة الحديثة .. فقد كانت سراييفو دائما مناراً ثقافيا وحضاريا . ونتيجة احتكاكها المستمر مع دول الجوار الأوربى مــن ناحية ومع دول العالم الإسلامى من ناحية أخرى – وحتى أثناء الحكم الشيوعى – فقد كانت معملا لتفريخ العلماء والمثقفين .. وهى كذلك تملك مــن المقومــات الاقتصادية – كما سبق أن ذكرت ما يؤهلها لأن تدخل وعلى الفور فى قائمة الدول الأكثر نموا ويساعدها فى ذلك موقعها .. وباختصار فقد كــان مــن الخطر البالغ أن تترك مثل هذه الدولة فى أيدى المسلمين وحدهم .. وعــندما اشــتعلت الحرب بدأت عملية منظمة لتدمير كل هذه المقومات حتى وصــلت إلى حــد الصــفر .. وعندما وافق الغرب فى البداية على أن يشارك المسلمون فى حكم أنفسهم فى البوسنة كان هناك الكروات – كروات البوسنة – وكــانت هــناك وبكــل معنى الكلمة دولة صربية ثانية .. وعندما انتهى اتفاق دايــتون أخيــرا إلى تحديد التوليفة المقبولة من الغرب جاءت دولة البوسنة – المتعددة الأعراق – دولة ليس لأحد فيها اليد العليا ، لا المسلمين ولا الكروات ولا الصرب الذين أصبح لهم دولة داخل الدولة .

وعمليا فقد انقسمت البوسنة إلى ثلاثة كيانات تكاد تكون منفصلة : أحدهم هــو الكيــان الصــربى – الــذى أصبح الآن أسمه جمهورية صربسكا – أو ريبوبــليكا صربســكا – وعاصــمته بانيالوكــا وهــو كيان لا يزال الكروات والمســلمون يخشــون المخاطرة بدخوله – إلا فى حالات الضرورة – وهو ما يفســر عــدم عودة مئات الآلاف من اللاجئين منه وإليه .. وكيان كرواتى هو مــا تــبقى ممــا كان يطلق عليه اسم جمهورية الهرسك بوسنة التى تم حلها ولا تــزال أعلامهــا – وهى أعلام كرواتيا الأم ولكن بدون رموز المقاطعات الخمــس – مرفوعة فى كل مكان منها حتى الآن دون أن يجرؤ أحد على رفع علم الدولة الجديد أو حتى علم الاتحاد المسلم الكرواتى فيه ، ويعتبر الكروات أن

موستار عاصمته وهو كيان يدخله المسلمون بحذر - رغم أنه جزء من الاتحاد المسلم الكرواتى - ويخرجون منه بأسرع ما يمكنهم .. أما الكيان الثالث فهو مسلم .. وهو - وبلا أى مبالغة متاح ومفتوح للجميع .. ولعل ما يحدث فى سراييفو هو أبلغ شهادة على ذلك .

وخلاصة القول أن طول أمد الحرب كان وبلا شك - وفقا لنفس النظرية - كان جزء من الخطة الأوربية لإضعاف البوسنة - وخاصة جانبها المسلم - بعد أن اضطرت الجماعة الأوربية بالإعتراف باستقلالها حتى تصبح فى النهاية كيانا طيعا يمكن تشكيله وقياده بسهولة .. وتصبح ألبانيا ثانية .. معتمدة على الغرب فى كل أمورها .. وهذا أمر واقع لا يزال ساريا حتى الآن ولسنوات طويلة قادمة .

ما هو دور فرنسا ؟

منذ أن وضعت القوات التى تحمل علم الأمم المتحدة أو ما يطلق عليه اسم الخوذات الزرقاء أقدامها فى البوسنة فقد كانت قيادة هذه القوات لفرنسا ، فهى صاحبة أكبر عدد من الجنود المشاركين فى القوة التى أطلق عليها اسم قوات الحماية التابعة للأمم المتحدة UNPROFOR هو وللأسف الشديد كان أسم هذه القوة مثار سخط العالم كله طوال سنوات الحرب ، فقد كان الهدف المعلن لهذه القوة تأمين عمليات الإغاثة الإنسانية .. ثم تحول هدفها فيما بعد إلى حماية نفسها .. وهو هدف فشلت فيه القوة بعد ما تعرضت له من مهانة على يد قوات رادوفان كاردجيتش زعيم صرب البوسنة .. وعلى أية حال فقد أصبح قائد قوات الحماية الدولية فرنسيا وفى المرة الأولى التى تم فيها فتح مطار سراييفو فى أواخر عام ١٩٩٢ كان الرئيس فرانسوا ميتران - وفى إشارة واضحة إلى

أن فرنسا وليس الولايات المتحدة أو حتى الأمم المتحدة هى التى تقود الأمـــور فى البوسنة – هو الضيف الرئيسى فى حفل إعادة افتتاح المطار – أو ما تبقى مــنه – وفيما بعد ومع كل مرة يتم فيها تغيير مهمة القوات الدولية فى البوسنة مــن قوات الحماية ثم قوات تنفيذ السلام IFOR ثم فى النهاية قوات الاستقرار SFOR كانت سراييفو ، ومطارها ، تخضع للقيادة الفرنسية .. ولاتزال أعلام القــوات الفرنســية حتى هذه اللحظة ترفرف فوق مبانى الجزء العسكرى من مطار سراييفو .

كـــان شـــعار فرنسا فى إطار صراعها مع الولايات المتحدة على زعامة أوربـــا هـــو أوربـــا للأوربيين وأنه لا يحل مشاكل القارة سوى شعوبها .. أما الحـــليف القادم عبر الأطلنطى فعليه أن يحل مشكلات العالم الأخرى ، وكانت رغـــبة الولايـــات المتحدة هى أن تؤكد للعالم كله وليس لفرنسا وحدها أنه حتى مشـــكلات أوربا لن يستطع حلها إلا الولايات المتحدة . وكان لفرنسا مصـالحها الخاصـــة فى المـــنطقة ، وفى العالم . وعلى الرغم من علاقاتها الجيدة مع كل الـــدول الإســـلامية بما فى ذلك إيران والعراق إلا أنها كانت صاحبة فكرة أن الإســـلام هـــو العدو الاستراتيجى الجديد .. وعندما لاحت فى الأفق احتمالات انفصـــال المسلمين فى يوغسلافيا بدولتهم كان لابد من إفشال خططهم وردعهم إن أمكن وتحجيمهم فى أسوأ الأحوال .. وفى الوقت نفسه كان مطلوبا وبإلحاح وقـــف زحـــف نيران الحرب من البوسنة بحيث لا تشمل أطرافا أخرى والعمل عـــلى سرعة إنهاء هذه الحرب حتى لا تكتوى أوربا مرة أخرى بحرب واسعة الـــنطاق ، وفى الوقـــت نفسه لا تعطى لا لمسلمى البوسنة أو الكروات أو حتى الصرب أكثر من حظيرة واحدة يعيشون فيها معا وكان لابد من تواجدها هناك ولكـــن بشرعية ما ، ولم تكن هناك أفضل من شرعية الأمم المتحدة وهو غطاء قانوني ودولى يحمل موافقة العالم عليه بما فى ذلك الولايات المتحدة .. وهكذا

نفـذت فرنســا ما كانت قد خططت له طويلا ، فقد جاءت إلى البوسنة بغطاء شرعى وبمباركة الولايات المتحدة التى كانت تعمل سرا على إثبات فشل فرنسا التى كانت قد سعت من قبل وفى تزامن محسوب على أن يكون هناك فوق قمة المــنظمة الدولية حليف لها ، يستطيع أن يكون أقرب إلى تفكيرها وأهدافها منه إلى الولايات المتحدة .

يمكن لأى مراقب محايد أن يتوجه إلى البوسنة اليوم ليسأل المسلمين هناك عــن دور فرنسا أثناء الحرب ، وسيعرف الرد فورا من أى مواطن عاش فترة الحصـــار . أمـــا السياسيون فسينتابهم الحرج وسوف تكون إجاباتهم مزيجاً من الدبلوماسية والغموض عندما يقولون إن فرنسا بلد عظيم .. لقد كانت هنا طوال الحــرب بــل وخلال السلام . ولا يزال أهل البوسنة يتساءلون لماذا لم تشارك قوات فرنسية أبدا فى عمليات إعتقال مجرمى الحرب ؟ ولماذا يقوم بهذا العمل قــوات بــريطانية أو أمريكية أو من دول أوربية أخرى .. رغم أن مدينة بالى الــتى كــان يقيم بها كاردجيتش لا تبعد سوى كيلومترات قليلة من قيادة القوات الفرنسية فى سراييفو ؟

وربمــا كــان من المناسب هنا وقبل أن نخوض فى دور الدكتور بطرس غالى فى البوسنة أن ننوه إلى أن أحد العوامل الحاسمة والهامة فى قضية الشك والمؤامــرة التى تعرضت لها البوسنة - ولا تزال - هى الأفكار التى أشيعت عقــب صدور " البيان الإسلامى " الذى كتبه فى السبعينيات الرئيس على عزت بيجوفيــتش وسجن بسببه عدة سنوات وهو اثنــا عشر آخرين من الشخصيات المسلمة من بينهم سيدة هى الدكتورة صاليحة .

كــان البيان الإسلامى هو الشوكة التى غرزها على عزت بيجوفيتش فى قلب القادة الشيوعيين فى يوغسلافيا .. إلا أن هذه الشوكة نمت واستفحلت بشكل أكبر فى قلوب الأوربيين الذين ، وإن دافعوا عن حرية التعبير والآمال فى ذلك

الوقت الذى كانوا يخوضون فيه معركة مع الشيوعية ، إلا أنهم لم ينسوه عندما حان وقت تحقيق هذه الآمال ، ففى الوقت الذى اعتبر فيه قادة يوغسلافيا وبشكل خـــاص فى صــــربيا أن الـــبيان يدعو إلى إقامة دولة إسلامية تحكمها الشريعة الإســـلامية داخـــل يوغســـلافيا فقـــد اعتبر الأوربيون - على الرغم من حياد يوغســـلافيا - أن البيان هو أحد العوامل الأساسية التى يمكن أن تضرب أساس الفكـــر الاشتراكى والشيوعى فى شرق القارة وجنوبها وبالتالى يتعين تشجيعه ، لكنهم وعندما بدأ المسلمون يتحدثون عن دولتهم رفضوها فى البداية خوفا من أن يكـــون البيان الإسلامى هو دستور عمل الدولة المرتقبة وخاصة أن على عزت بيجوفيـــتش كـــان قد أصبح حرا بل وأصبح زعيما للبوسنة ورئيسا لجمهوريتها وتعـــلقت آمـــال البوشناق عليه فى إنشاء الدولة الجديدة .. وكان من المستحيل عمـــليا إقامة دولة بهذا المعنى فى البوسنة ولا فى غيرها من دول أوربا ولذلك كـــان كـــل مـــا قيل وقتها لم يكن يعبر سوى عن مخاوف من احتمال - مجرد احـــتمال - نشـــوء دولة إسلامية فى المنطقة ، وفيما بعد وافقت أوربا على أن تســـتقل البوسنة ولكن بشرط - كما سبق أن أوضحنا - ألا تكون هناك يد عليا فيها لا للمسلمين ولا لغيرهم .

وحقيقـــة الأمـــر أن الغرب قرأ البيان الإسلامى قراءة خاطئة أو مغرضة على أقل تقدير ، فالبيان فى مجمله كان دعوة لإيقاظ المشاعر الإسلامية لا فى البوسنة وحدها بل فى العالم الإسلامى كله ، ولم يكن دعوة لإقامة الدولة الدينية بقـــدر ما كان دعوة للوحدة الشعورية والعقائدية والأخوية بين مسلمى العالم .. وباختصـــار فقـــد كان البيان الإسلامى مجرد نداء من مسلمى البوسنة للوقوف معهـــم عـــندما يحيـــن الوقـــت - الذى كان قد اقترب كثيرا - لإعـــلان دولة للمسلمين - وليس دولة إسلامية - فى البوسنة . وكان البيان تأكيدا على وجود "قوميـــة " ثالـــثة فى يوغسلافيا يتعين على الجميع أن يدرجوها فى حساباتهم القادمـــة .. ورغـــم رفض البيان لفكرة القومية بل وانتقادها إلا أنها فى النهاية

كـــانت الهدف الرئيسى من البيان .. فعلى عزت بيجوفيتش لم يكن مصلحا دينيا أو زعيما يقود جماعة إسلامية على النحو الذى ظهرت عليه جماعات إسلامية متعددة الاتجاهات فيما بعد فى الشرق الأوسط تلك التى وجدت فى العنف وسيلة وحيدة لتحقيق أهدافها سواء المعلن منها أم الخفى ، بل كان سياسيا يطالب لشعبه بحقوق سياسية وعقائدية تضعهم على أولى درجات الاعتراف بهوية هذا الشعب ومن ثم تضعه على أولى درجات سلم الاستقلال .

لقد كان الرجل بعيد النظر إلى أبعد الحدود وقد نجح فيما أراد إلى حد كبير رغم ما تكبده من جراء ذلك من تضحيات .. فبدلا من أن يحصل المسلمون على دولة مستقلة فقد حصلوا على دولة يشاركون بنصيب فى حكمها .. حتى يظهر مـــن جديد من يحاول إعادتهم سيرتهم الأولى .. مجرد طائفة تشكل جزيرة فى بحر من القوميات الأخرى .

وفى حديـــث للرئيس على عزت بيجوفيتش أثناء الحرب قال " إن البوسنة والهرســك ليســت جمهورية إسلامية وإنما دولة يشكل المسلمون فيها ٥٠ فى المائـــة مـــن السكان ، ونحن ندرك أن جيراننا لا يريدون أن يعيشوا فى دولة إسلامية كما لا نريد نحن أن نعيش فى دول تسيطر عليها المسيحية ، لذا نبحث عن صيغة تكون فيها البوسنة الدولة التى يمكن أن تتعايش فيها كل الأديان وأن يكـــون للجميع نفس الحقوق والحريات وعليهم نفس الواجبات . نحن المسلمون نستطيع أكثر من غيرنا أن نحقق ذلك " .. ثم توصل إلى الحل الذى كان ينبغى أن تـــبطل معه كل الاتهامات فقال " إن أفضل وضع للبوسنة إذن هو أن تصبح دولة لكل القوميات " .. وفى النهاية تم الأخذ بهذا الحل فى اتفاقية دايتون للسلام عـــلى الـــرغم مـــن الظلم الفادح الذى لحق بالمسلمين نتيجة هذا الاتفاق وفسر الـــرئيس البوســـنوى قبوـــله لهذا الاتفاق قائلا " إننا لا نملك إلا أن نقبله رغم التضحيات ورغم الخسائر .. ولكن البديل أسوأ كثيراً " .

٤ـ صنيعة فرنسية أم صاحب قرار ؟

في العاشر من نوفمبر ١٩٩٤ كان البوشناق قد انتهوا من صراعهم الدامى مع كروات البوسنة ومع كرواتيا وتم إعلان الاتحاد المسلم الكرواتى وفقا لاتفاق واشنطن ، وبدأوا فى تلقى المساعدات العسكرية عن طريق كرواتيا التى اشترطت الحصول على نصيبها من كل ما يدخل البوسنة عن طريق أراضيها سواء كان ذلك سلاح أم معونات غذائية ، وتمكنوا – مسلمو وكروات البوسنة – من أن يحولوا هزائمهم إلى انتصارات ، وبدأوا فى استرداد مساحات من الأرض كان الصرب قد استولوا عليها مستغلين النزاع المسلم الكرواتى ومستغلين صمت العالم على ما يحدث .. وعندما بدا أن الكفة بدأت تميل من جديد ضد الصرب ظهر أن هناك من يرفض الوضع الجديد .. وفى هذا اليوم أعلن على عزت بيجوفيتش صراحة " أن الأمم المتحدة تعمل على منع انتصارنا .. أو حتى إنقاذ أنفسنا من الإبادة " .

ولست أريد هنا أن أثبت تواطؤ طرف بعينه فى البوسنة ، كما لا أريد – وهو الأهم – أن أقدم أية أدلة على إدانة الدكتور بطرس غالى وتحميله مسئولية كل ما حدث ، فعندما أشار بيجوفيتش إلى أن الأمم المتحدة تعمل على منع انتصارنا ، لم يكن يقصده شخصيا ، فلم يكن سوى الأمين العام للمنظمة وقتها ، وإنما كان يقصد – فى اعتقادى – دول أوربا والولايات المتحدة التى استخدمته لتنفيذ إرادتها وبشكل خاص فرنسا . وكان من الممكن أن يتفادى غالى الكثير من الانتقادات بل ويكفى نفسه شر الاشواك التى زرعها – عامدا أو مجبرا – فى قلوب مسلمى البوسنة خاصة وأنه لم يكن له مصالح شخصية هناك مثلما اتهم بأنه كانت له مصالحه الشخصية فى الصومال .

فى كتابه " خمس سنوات فى بيت من زجاج " يتضح أن غالى لم يكن فى كثير من الحالات على إدراك تام بما يحدث فى البوسنة .. فقد شغلته أفريقيا

فيمـــا يبدو فاكتفى بأن أعطى أوامره لقيادة قواته هناك بالتصرف .. وحدد قبلها هدف هذه القوات الأول - والأخير - على أنه حماية القوات لنفسها .

يعتـــبر غـــالى - فى كتابه - أن مسألة اعتراف الدول الأوربية باستقلال ســـلوفينيا وكـــرواتيا عـــن الاتحاد اليوغسلافى كانت " حماقة دبلوماسية ، على الـــرغم من أن هذا الاعتراف - لم يكن وحده - محرك الانفجار فى البوسنة .. التى رغبت فى الاستقلال أيضا " . كما يعتبر أن الأمم المتحدة كانت ضحية هذا الاعـــتراف الأحمق الذى أدى إلى الحرب ، فيقول " كانت أخطار الوقوع فى الفخ ظاهرة .. وكانت السوابق التاريخية والثقافية والقانونية - يصعب التعرف عليها .. وفى مواجهة هذه الحرب المحيرة والمتقلبة .. آثرت الولايات المتحدة عـــدم القيـــام بدور قيادى وكذلك فعل الأوربيون .. وبدلا من ذلك دفعت الأمم المتحدة إلى الخطوط الأمامية " .

كان ذلك هو الهاجس الذى كان يعتمل فى صدر الدكتور بطرس غالى وتم اســـتخدامه فى جميع المراحل القادمة حتى نهاية عام ١٩٩٥ ، كان الهاجس هو أن الـــدول الأوربيـــة كانت ترغب فى التضحية بجنود الأمم المتحدة فى حرب البوســـنة بـــدلا من جنودها ، وأعتقد أن القراءة الصحيحة لهاجس غالى هو أن الولايات المتحدة كانت ترغب فى التضحية بجنود دول أوربا وباقى دول الأمم المتحدة بدلا من جنودها . ولكن هذا الهاجس نفسه هو الذى أدى فى النهاية إلى أن تصـــبح قـــوات الأمم المتحدة مجرد (ديكور) بحيث لم تعد تستطيع حتى حمايـــة أفـــرادها من أن يقيدوا بواسطة قوات كارادجيتش إلى الأشجار دون أن يـــتمكن أحدا من إنقاذهم ، ولعل الحسنة الوحيدة التى قامت بها هذه القوات هى عمـــليات الإغاثة التى قامت بها وهى الحسنة التى يمكن أن نذكر بها أى دور للأمم المتحدة فى أزمة البوسنة .

وفى اعــتقادى أن الدكــتور غالى الذى كان يميل بشكل كبير تجاه الحل التفاوضـــى للأزمـــة فى البوسنة باعتباره رئيس منظمة دولية تعمل على حفظ السلام فى العالم – على الرغم من أن اتجاهه هذا لم يكن قويا تجاه الصومال – رغم إدراكه باستحالة هذا الحل مع صرب البوسنة – كان يبحث فى الوقت نفسه عــن مــبرر للابتعاد عن إرسال قوات عسكرية – بمعنى الكلمة – لتعمل على فــرض الحــل بــالقوة أو على الأقل فرض السلام بالقوة وهو ما فعله فى كمــبوديا عندما بعث بأكبر قوة عسكرية فى تاريخ الأمم المتحدة لفرض السلام هــناك . فالسلام – كما كان يقول غالى نفسه فى مفاوضات السلام بين مصر وإسرائيل – تلزمه قوة تحميه وتنفذه بل وتقود إليه . وكان موقفه لذلك واضحا منذ البداية فقد اعتبر قضية استقلال البوسنة قضية خاسرة ، وعلى الأقل بالنسبة للمسلمين ، وذلك لإدراكه بخلفية الرفض الأوربى لوجود دولة لهم ، ولذلك فقد أكد من البداية أنه يتفق مع المبدأ القائل " أننا لا نعتبر ما تقوم به الأمم المتحدة مــن حفظ السلام وسيلة لإنقاذ القضايا الخاسرة .. نستخدمها فى خضم الأزمة طوعا أو كرها عندما تفشل كل المحاولات الأخرى "(*) وهو المبدأ الذى صاغه جون بولتون مساعد وزير الخارجية الأمريكية أمام الكونجرس فى ٢٥ مارس ١٩٩٢ .

كان الأمين العام للأمم المتحدة يرغب منذ بدء القتال فى البوسنة ومع بدء حصــــار ســـراييفو فى مايو ١٩٩٢ ألا تكون قوات الأمم المتحدة هى الشرعية الوحيـــدة لوقــف حمام الدم الذى تأكد أنه سيستمر طويلا .. كان يريد للآخرين وبشـــكل خاص الولايات المتحدة إنهاء الصراع ، وهو ما كانت ترفضه فرنسا ومعهـــا دول أوربية أخرى . وما كانت ترفضه الولايات المتحدة – على الأقل فى بداية الأحداث – حتى تخسر أبنائها فى معركة لم تتضح معالمها بعد .

(*) الدكتور بطرس بطرس غالى .. خمس سنوات فى بيت من زجاج . ص ٥٢ .

ويعترف غالى بأنه تلقى من مبعوثه إلى البوسنة ماراك جولدنج تقريرا عن الأوضـــاع فى سرابيفو وبدوره نقل غالى إلى مجلس الأمن فى الثانى عشر من مــايو ١٩٢٢ الـــتقرير الذى يقول " يتفق جميع المراقبين الدوليين على أن ما يجرى هو جهد متضافر من جانب صرب البوسنة والهرسك بتواطؤ من الجيش اليوغسلافى وبقدر من المساندة على الأمل من إيجاد مناطق (نقية عرقيا) .. وأن الأســلوب المستخدم هو الاستيلاء على الأراضى بالقوة العسكرية وإرهاب الســكان من غير الصرب ، وقد أثار ابرام اتفاق جزئى لوقف إطلاق النار بين الــزعماء الكروات والصرب فى ٦ مايو ١٩٩٢ الشكوك مجددا بشأن اقتســام الكــروات والصــرب للبوســنة والهرسك .. مع ترك مساحة ضئيلة ، للطائفة الاســلامية – كذا – التى تمثل نسبه كبيرة من السكان (٤٤ فى المائة) . وأن الموقــف فى البوســـــنة والهرســـــك مأســاوى وخطير ومضطرب ويموج بالفتنة "(*) .

ولا شك أن مثل هذه التقارير لا يمكن تأويلها بمعان أخرى حتى لو مرت ســنوات على صدورها ، وبمعنى آخر فان هذا التقرير على وجه التحديد يمكن أن يربك أى شخص بعيد عما حدث فى البوسنة وفى نيويورك فى ذلك الوقت ، فمعنى ذلك أن الأمين العام كان يدرك حجم المأساة وحجم ما يواجهه المسلمون مــن مؤامــرات ومخاطر كان أبعدها وبلا أدنى مبالغة خطر الإبادة ، إلا أنه وعــلى الرغم من ذلك أتهم جميع الأطراف – بما فى ذلك الطائفة الإسلامية – بأنها لا تحترم الأمم المتحدة وموظفيها .

وفى محاولــة لتبرير هذا السلوك الغريب من جانبه أورد غالى فى كتابه دليلا هاما – فى اعتقاده – على أن المسلمين وحدهم كانوا وراء مطالبته مجلس

(*) الدكتور بطرس بطرس غالى .. خمس سنوات فى بيت من زجاج . ص ٥٣ .

الأمن بعدم إرسال قوات لحفظ السلام فى البوسنة ، فقد استشهد بما كتبته مجلة الايكونو ميست فى ٢٣ مايو ١٩٩٢ قائلة " أن الميليشيات الإسلامية قد هاجمت بوحشـــية قـــافـــلة تحت قيـــادة الأمم المتحدة بعد أن أوقعتها فى كمين ، ولكن المجـــلس – مجـــلس الأمن – تجاهل تحذير الأمين العام واتخذ قراره بإرسال قوات مسلحة لحماية القوافل بون مناقشة احتياجاتها العسكرية "(*) .

ويعتز الدكتور غالى كثيرا بما أوردته مجلة الاوكونوميست فى نفس اليوم مـــن أنـــه أى غـــالى الذى ظل لسنوات طويلة مهندس السياسة الخارجية المصـــرية ليـــس مـــن النوع الذى يبصم على قرارات يتخذها غيره .. ولذلك فســـوف نعتـــبر أن غـــالى كان دائما صاحب قرار ، وليس صنيعة فرنسية أو أوربية كما حاول البعض أن يقول .. وإذا ما اعتبرنا أن رأى الشخص هو قرار خـــاص به فإنه يتعين علينا أن ننظر وبدقة إلى رأى الدكتور غالى فى أطراف النزاع .. فعندما التقى اللورد بيتر كارينجتون – مبعوث الجماعة الأوربية إلى البوسنة وقتها – عقب عودته من البوسنة فى يوليو ١٩٩٢ مع الأمين العام قال لـــه " إذا أردت أن أقدم صورة حديثة عن الوضع الحالى فى البوسنة والهرسك فـــإن معظم الناس يرونها تتمثل فى ضغط على المسلمين المساكين وتصرفات شريرة من جانب الصرب .. ووقوف على الحياد من جانب الكروات .. والواقع أن الصـــرب أشرار ولكن هذا ينطبق أيضا على كل الآخرين .." ويعقب غالى عـــلى ذلك بقوله " كنت أميل إلى الاتفاق معه على هذا الرأى فقد بدا أن الدول الغربية ترى أن الصرب وحدهم هم المخطئون ، فى حين كنت أشعر بأنه ليس هناك طرف فى البوسنة لا يتحمل جزءا على الأقل من اللوم على هذا الصراع الشرس "(*) .

(*) الدكتور بطرس بطرس غالى .. خمس سنوات فى بيت من زجاج . ص ٥٤ .

(*) الدكتور بطرس بطرس غالى .. خمس سنوات فى بيت من زجاج . ص ٥٥ .

لقـد فهـم مسـلمو البوسـنة كثير من الإشارات التى حاول الأمين العام للسـكرتير العـام للأمـم المتحدة إرسالها للعالم على أنها محاولة منه لكسر شـوكتهم ، خاصة وأنه كان يدرك جيدا طبيعة الوضع العرقى فى البلقان ، كما فهموا هذه الإشارات على أنها محاولة من جانبه للتآمر الضمنى مع الصرب - الأرثوذكس - والكروات - الكاثوليك - ضد الإسلام . وسواء كان ذلك صحيحا أم غير صحيح وهو على الأرجح بل أستطيع أن أؤكد أنه غير صحيح ، إلا أننا يتعين أن ندرك أن هذا هو الاعتقاد الذى يؤمن به مسلمو البوسنة حتى الآن .. ولقد كان لموقف مسلمى البوسنة ما يسانده من وجهة نظرهم .. فقد عملت الأمم المـتحدة منذ البداية على حظر توريد السلاح إلى المنطقة وعندما أرادت بعض الـدول الإسلامية تزويد المسلمين بالسلاح للدفاع عن أنفسهم ، واجهتم قرارات المـنظمة الدولية ، وعندما طالبوا غالى بالتدخل لمنع إبادة مسلمى البوسنة .. رفض .. وهو يعلل ذلك بقوله " إن العالم الإسلامى كان يريد أن تخوض الأمم المـتحدة الحرب ضد الصرب بالنيابة عن مسلمى البوسنة "(*) فهل يمكن إقناع مسلمى البوسنة بأن رفض هذا المطلب المشروع - حمايتهم من الإبادة - خاصة مـع رفـض تسـليحهم - لم يكن قرارا بالسماح للصرب بأن يذبحوهم .. كما حدث ؟ .

كان غالى يبحث عمن يؤيد آراءه إزاء الوضع فى البوسنة بعد أن فقد تأييد كارينجـتون فى مؤتمـر لندن عام ١٩٩٢ ووجد ضالته فى اللورد ديفيد أوين وزيـر الخارجية البريطانى الأسبق الذى عينته المجموعة الأوربية مفوضا لها بشـأن يوغسلافيا وكان كلاهما يرى أن اللوم يجب أن تتحمله كل الأطراف فى يوغسـلافيا السـابقة . وقـام أوين بجهد مشترك مع سايروس فانس - وزير

(*) الدكتور بطرس بطرس غالى .. خمس سنوات فى بيت من زجاج . ص ٥٧ .

الخارجيـــة الأمريكى الأسبق – ممثلا للأمين العام فى وضع خطة للسلام كانت تقضى بتقسيم البوسنة إلى ثلاث (كانتونات) لكل طائفة من الطوائف الثلاث على أن تكون سراييفو كيانا مستقلا يشارك الجميع فى حكمها ، وحازت الخطة قبول الأميـــن العـــام لأنها كانت تعكس فى أرض الواقع حقائق أوضاع المجموعات الســـكانية المختـــلفة على حد تعبيره .. لكن تلك الخطة نفسها كانت بمثابة حكم بـــالإعدام على جمهورية البوسنة والهرسك الموحدة .. ولم يكن يستفيد منها فى الواقـــع غيـــر الكروات الذين لا يشكلون سوى أقل من ١٨ فى المائة من عدد سكان البوسنة ثم الصرب – نحو ٣٤ فى المائة – ولذلك رفضها المسلمون .

لماذا رفض غالى الحرب ضد الصرب ؟

فى غضون عشرة أسابيع فقط ما بين أوائل سبتمبر وأوائل نوفمبر من عام ١٩٩٥ كـــان ريتشارد هولبروك المبعوث الأمريكى الجديد إلى البوسنة قد ظهر عـــلى الســـاحة وتمكن فى تلك الفترة القصيرة أن يتولى زمام الأمور ليس فى البوســـنة وحدها بل فى كل يوغسلافيا السابقة ولسنوات خمس بعدها قبل أن تتم مكافأتـــه ليصـــبح المـــندوب الأمريكى الدائم لدى الأمم المتحدة . . وخلال تلك السنوات التى تولاها فيها مسئولية البلقان أثبت هولبروك أن الولايات المتحدة – وليس غيرها – هى القادرة على قيادة العالم سواء الحرب أم السلام ..

فى تـــلك الفترة القصيرة تمكن المبعوث الأمريكى من تحييد الأمم المتحدة بـــل وأوربا أيضا ، واستطاع أن يصيغ اتفاق نهائى للسلام ، وإنهاء الحرب فى البوســـنة ، وعـــلى الرغم أن الانتصار الذى حققه الدبلوماسى الأمريكى لم يكن وليـــد جهوده وحده بل بجهود دولته التى استطاعت خلال الأشهر الأخيرة من ذلـــك العام من تغيير الصورة على أرض الواقع بعد أن قررت أخيرا ممارسة بعض الضغط على الصرب حتى يقبلوا اتفاق السلام . لكنه فعل ذلك أيضا بعد

أن أجـبر الأمـم المتحدة أن تعلن حربا جوية على الصرب . تلك الحرب التى رفض الدكتور غالى طويلا أن يخوضها بهدف إنهاء الحرب .

فى بدايـة عام ١٩٩٣ تولى بيل كلينتون مهامه كرئيس للولايات المتحدة ومنذ تلك اللحظة أصبح الصراع بين الولايات المتحدة والأوربيين بشأن البوسنة سـافرا ، وكان الوضع على الأرض يقول إن معظم قوات الأمم المتحدة مشكلة أساسا من جنود فرنسيون وبريطانيون .. فى الوقت الذى استمرت فيه الولايات المـتحدة فى سياستها بعدم تعريض جنود أمريكيين للخطر ، وعلى الرغم من ذلـك فقد بدأت ضغوطها على أوربا والأمم المتحدة من أجل إنهاء الحرب فى البوسنة . وقد استمرت هذه الضغوط أكثر من ١٨ شهرا ، وفى النهاية اضطر الأوربيون لقبول التدخل الأمريكى - ممثلا فى الناتو - وأنهت الضربات الجوية سـيطرة الصـرب وأعلن الدكتور غالى رغم ذلك أن الأمم المتحدة ليست فى حرب مع الصرب .

كان غالى - من وجهة نظر مسلمى البوسنة - وكأنه يعتذر عن اضطرار منظمـته لقـبول الضربات الجوية على الصرب ، وربما كان قبوله أخيرا لهذه الضـربات هو إدراكه أنه سوف يكون كبش الفداء الذى قدمه الغرب للعالم فى الحـرب التى أوشكت على الانتهاء وأنه ومنظمته سيكونا المسئولين عن مأساة البوسنة .

وممـا لا شك فيه أنه خلال عام ١٩٩٣ كله كان هناك انطباع بأن الأمين العام للأمم المتحدة يحاول عرقلة القيام بعمل عسكرى دولى ضد صرب البوسنة وأنـه يماطل فى اتخاذ مجلس الأمن مثل هذا القرار ، ولعله كان للدكتور غالى عـذره فى ذلك الوقت فهو رجل يرأس منظمة مهمتها الأولى هى الحفاظ على السـلام والتوصل إليه بكل السبل السلمية ، ولكن مع مرور الأيام كان الصرب يثبتون أنهم لن يتوقفوا عن استكمال هدفهم بالسيطرة على جميع أجزاء البوسنة

وكـــانوا يـــتقدمون يوما بعد يوم إلى أن وصل ما يسيطرون عليه إلى ٧٠ فى المائـــة مـــن أرض البوسنة وهو ما كان يعنى فى النهاية أن إمكانية التفاوض والتوصـــل إلى حـــل سلمى أصبحت أمرا مستحيلا . وعلى الرغم من ذلك فقد كانت ضغوط الأوربيين – وعلى الأرجح الفرنسيين – تتجه إلى عدم الوصول بالأمور فى البوسنة إلى مواجهة مسلحة مع الصرب .

وكـــانت مســـألة الـــتدخل الجوى هى القضية التى كشفت ما يعتقد مسلمو البوســـنة بأنـــه كان هناك انحياز يرقى إلى درجة المؤامرة ضدهم .. فقد أصر غـــالى على أن يكون قرار طلب المساعدة الجوية من قوات الناتو فى يده ، ثم تـــنازل لقادته العسكريين فى البوسنة عن هذا الحق بحجة أنهم يستطيعون تحديد وقت طلب المساعدة .. فقد كان ما يريده هو حماية قواته فى البوسنة بينما كان الآخـــرون يتطلعون إلى أن تحميهم الأمم المتحدة والمساعدة الجوية وتمنع تقدم الصرب للاستيلاء على مزيد من الأرض وارتكاب المزيد من المجازر . وكان منطق غالى هو أنه يتعين على الأمم المتحدة أن تظل بعيدة عن الانحياز وربما لم يكن يدرك أن هذا المنطق نفسه كان بمثابة انحياز تام للأقوياء .. أما مسلمو البوسنة فيعتقدون حتى الآن أنه كان يدرك ذلك .

طوال ذلك العام كانت الولايات المتحدة تطالب بشدة بالتدخل الجوى ، وهو مطـــلب كـــان يقابل بالرفض من قبل الأوربيين الذين كان جنودهم فى الميدان وكـــانوا مهددين بالانتقام من قبل الصرب فى حالة تعرضهم لضربات جوية أو هكـــذا كـــانت الصـــورة التى أرادوا إقناع العالم بها ، وعندما وافقت الولايات المـــتحدة على قبول استئثار غالى بحق تقدير القيام بضربات جوية فى البوسنة ضد الصرب بناء على طلب القيادة العسكرية فى الميدان ، لم تكن تعلم أن غالى لـــن يســـتخدم هـــذا الحق أبدا حتى نهاية العام ، إذ أن قادته العسكريين – من الفرنسيين – لم يجدوا حاجة لتدخل جوى !! .

وهكذا واصل غالى - لسبب غير مفهوم - عناده فى عدم المطالبة بوقف المذبحـــة التى يتعرض لها المسلمون فى كل مكان على أرض البوسنة وقد أدى هذا العناد إلى أن سقطت اثنتان من المناطق الست التى اعتبرتها الأمم المتحدة مــناطق آمــنة إلى جانب سراييفو وتوزلا وبيهاتش وجوراجدة . ولم يحدث أن تدخلت طائرات عسكرية تابعة للناتو فى البوسنة سوى فى ابريل ١٩٩٤ وتحت ضغوط دولية هائلة لمنع سقوط مدينة جوراجدة التى تجمع فيها عشرات الآلاف مــن المســلمين الفــارين من المناطق المجاورة ، لكن هذه الضربة التى تلتها ضربة واحدة أخرى بسبب وقوع ياسوشى اكاشى - اليابانى - مبعوث غالى فى البوســنة - وبالــتالى وقوع الأمين العام للأمم المتحدة نفسه - فى حبائل الفخ الصربى التى كان يحيكها وباقتدار رادوفان كارادجيتش خاصة وأن الاثنين - غالى وأكاشى - كانا لا يثقان كثيراً فى استجابته لوقف إطلاق النار .

والغــريب أن رفض عمليات تدخل طائرات الناتو العسكرى لوقف المذابح الصربية ضد مسلمى البوسنة كان وراءها بالأساس الجنرال برنارد جانفييه قائد القوات الفرنسية وقوات الأمم المتحدة فى البوسنة ، وبعد انتهاء الحرب ومغادرة جانفييــه البوسنة ظهرت اتهامات كثيرة لهذا الجنرال الفرنسى بأنه كان يقضى معظــم أمســياته فى ملهى ليلى فى ضاحية فوجوشتشا التى كان يسيطر عليها الصــرب خارج سراييفو . وعلى الرغم من أنه لم يتم التحقيق أبدا فى أن هذا القائد الفرنسى كان يؤتى له بفتيات مسلمات لقضاء الليل معهن . ورغم أن هذه كــانت فيمــا يبدو مجرد شائعات وقت الحرب إلا أنها صارت يقينا فى عقول البوشــناق بعــد الحــرب .. وما قيل عن القائد الفرنسى قيل عن قادة فرنسيين آخــرين بل أنه طال الفرقة الإيطالية العاملة فى سراييفو نفسها - والتى اتهمت هــذه المرة بإدارة شبكة للدعارة من الفتيات الصغيرات المسلمات - ورغم أن

التحقيقات برأت الفرقة الإيطالية إلا أن مجرد إثارة هذه الأمور كان يعكس مدى ما كان يشعر به المسلمون من ظلم بسبب ظروف الحرب .

وقد حمل المسلمون الجنرال جانفييه وآخرين من القيادات الفرنسية الكثير مما أصابهم وأنهم كانوا وراء كل القرارات التى اتخذها غالى فى البوسنة خلال فترة تواجد هذا الجنرال ، على أننا ينبغى أن نؤكد أنه مهما كانت قدرات القائد العسكرى فى الميدان إلا أنه من جانبه لا يستطيع إلا أن ينفذ ما يصدر اليه من توجيهات القيادة السياسية فى بلاده .. وفيما بعد اعترف لى عدد من الضباط الايطاليين العاملين فى سراييفو - والذين رغم الشائعات - كان يحظون بقدر من الاحترام بين مواطنى سراييفو على وجه الخصوص - أنه لولا وجود الكتيبة المصرية فى العاصمة أثناء الحرب لازداد عدد ضحايا الحرب من المسلمين والكروات المحاصرين إلى أضعاف مضاعفة .

وكما قلت فقد أدت سياسية غالى أكاشى إلى أن تصبح سياسية قوات الأمم المتحدة فى البوسنة وهدفها الأساسى هو حماية أفراد هذه القوة ، وأدت أيضا إلى إجبار قوة هولندية كانت مكلفة بإحدى المناطق الآمنة وهى سربرينتسا إلى أن تخون شرفها العسكرى بأوامر من الجنرال جانفييه وتتخلى عن نحو عشرين ألف مسلم لتمارس قوات الصرب وحشيتها ضدهم ليسجل التاريخ وقوع أكبر مذبحة فى تاريخ أوربا منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية - إن لم تكن أكبرها فى تاريخ العالم الحديث .

وفى عام ١٩٩٩ بدأت تتكشف - فى هولندا - بعض حقائق ما حدث - وظهرت وثائق تدين وزارة الدفاع الهولندية لدورها فى هذه المذبحة .. وبدأت حملة فى هولندا تطالب بالكشف عن دور جنودها فى هذه الكارثة . ولكن ولأسباب غير مفهومة تم و بسرعة إغلاق هذا الملف رغم محاولات البعض فتحه من آن لآخر .

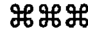
ونـــتيجة لضغوط الولايات المتحـــدة والمجتمع الدولى تخلى الأمين العام للأمـــم المـــتحدة فى النهاية عن عناده بعد أن خرجت الأمور من يديه لتتولاها الولايات المتحدة ، فوافق على إجراء ضربات جوية فى نهاية أغسطس ١٩٩٥ وبعدها وبعدة أسابيع فقط أمكن للأطراف فى البوسنة توقيع اتفاق سلام ، بعدما أدرك الجانب القوى أنه فقد ميزة القوة .

ويقـــول الدكتور بطرس غالى عن هذا التحول الأخير " فى أواخر صيف ١٩٩٥ ومـــع الهجـــوم الكـــرواتى – ضـــد كرايينا – الذى وفر قوات المشاة الضرورية على الأرض ، ومع ضربات الناتو الجوية التى حولت ميزان القوى لغيـــر مصلحة الصرب وغيرت نسبة الأرض التى يسيطر عليها كل جانب .. توافـــر الدافـــع ولأول مرة لدى صرب البوسنة للتفاوض .. ومع ارتباط القوة أخيـــرا بالدبلوماســـية .. أصـــبح فى الإمكان إجراء مفاوضات جادة .. وتقدم (ريتشـــارد) هولـــبروك فى إطـــار هذا الوضع الذى تحول تحولا كليا ، وفى غضون ما بين ثمانية وعشرة أسابيع خرج باتفاق لوقف إطلاق النار ، وبتسوية أصبحت تعرف باسم اتفاق دايتون "(*) .

أمـــا الأسئلة التى يتعين علينا أن نطرحها الآن فهى عديدة ، ومن بينها : مـــاذا لـــو أن هـــذه القوة ارتبطت منذ البداية بالدبلوماسية ؟ وماذا لو أن الدول الأوربيـــة وعـــلى رأســـها فرنســـا قد تخلت عن مخاوفها طوال ثلاث سنوات واستخدمت القوة ؟ وماذا كان يحدث لو أن غالى تخلى عن عناده ؟ والإجابة عـــن كل هذه الأسئلة تتلخص فى أنه كان يمكن إنقاذ حياة عشرات الآلاف من الأشخاص ووقف التدمير .

(*) الدكتور بطرس بطرس غالى .. خمس سنوات فى بيت من زجاج . ص ٢٨١ .

وفى اعـــتقادنا أن الولايـــات المتحدة وبطرس غالى اشتبكا منذ البداية فى معـــركة كان ميدانها فى البوسنة ثم فى الصومال ثم فى أروقة الأمم المتحدة ، ورغـــم احترامنا وتقديرنا للدور الذى قام به غالى ممثلا لإفريقيا – ولمصر – فى قيـــادة أكبر منظمة دولية فى أكثر فترات الإنسانية تحولا وتغيرا .. ورغم احترامـــنا وتقديرنا لرفضه – البقشيش – الأمريكى بالمد فترة أخرى مقابل أن يصبح موظفا فى البيت الأبيض برتبة أمين عام للأمم المتحدة . إلا أنه يتعين أن نعـــترف بأن غالى الذى كان – كما رأينا – يمثل الجانب الأوربى فى صراعه عـــلى زعامـــة العـــالم مع الولايات المتحدة ، لم يكن الأداة الجيدة لتناول هذا الصراع .. ونتيجة لذلك فقد زرع فى قلوب الكثيرين سواء فى البوسنة أو فى الصومال – أو حتى فى مصراً – كثير من الشوك الذى أدمى قلوبهم ، ولم يفز هـــو فى الـــنهاية سوى بمنصب يقل كثيرا عما كان يتولاه أو يستحقه بتاريخه الكبير كرئيس للفرانكوفونية .




BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

الفصل الخامس

صحفى فى مهمــة رســمية

أكثر من صحفى

مـــن المعروف أن المهمة الأولى لأى صحفى فى العالم هى نقل الأحداث التى تقع فى مكان ما من العالم إلى باقى أنحاء العالم ، وخاصة إلى مواطنيه ، فهـــو ينقل إليهم وبأمانة وحيدة هذه الأحداث وتأثيراتها ، ثم أنه يقوم بتحليل ما خـــفى مـــنها لجمهـــوره أو جمهور المؤسسة الصحفية التى يعمل بها ، ويكون الصـــحفى محظوظا إذا ما خدمته الظروف لأن يكون قريبا من صانعى القرار أو الأحـــداث .. ولكـــنه أحيانـــا ما يجد نفسه شاهدا أو شريكا فى أحداث غالبا لا يستطيع التحدث عنها إلا بعد مرور وقت طويل .

وفى البوســـنة حدث أن وجدت نفسى وسط عدد من الأحداث ورغما عنى أحـــــد صـــانعيها ، عـــلى الرغم من أن مهمتى الأولى هى أن أنقلها فقط إلى الآخـــرين . وفى كثير من الأحيان كانت تلك المهام التى اضطلعت بهـــا تتسم بالخطورة البالغـــة وأحيـــانا بالحساســـية التى لا يمكن تقدير عواقب الاقتراب منها .

فى صيف عام ١٩٩٧ كانت قرارات المجتمع الدولى قد استبعدت رادوفان كاردجيـــتش مـــن زعامـــة جمهورية صربسكا .. ولم يعترف صرب البوسنة بالقرار ، وتم حظر ظهوره فى جميع وسائل الإعلام فى الدولة بكيانيها باعتباره مجـــرم حرب ومطلوب محاكمته .. وأصبحت بليانا بلافشتش رئيسة للكيان ، ولكن المتشددين الذين كانوا يعتبرون أن "بالى " ، تلك القرية الصغيرة التى تقع عـــلى مقـــربة مـــن سراييفو وكانت طوال فترة الحرب وما بعدها مقرا لمجرم الحـــرب وقياداته المدنية والعسكرية ، هى مقر الحكم .. ورفضوا الانتقال إلى بانيالوكا التى أعلنتها بلافشيتش عاصمة لجمهورية صربسكا ، وكانت هناك فى

الوقت نفسه محاولات غربية تقودها الولايات المتحدة بهدف دمج صرب البوسنة في الأمور العامة للبلاد وزيادة مشاركتهم في المؤسسات المشتركة مقابل زيادة الدعم والاعتراف بالكيان الصربي .. وبدأت اتصالات ممثلي المجتمع الدولي بالحكومة هناك في محاولة من أجل إقناعها بضرورة التخلي عن كل ما كان يمثله كارادجيتش من تطرف وطموحات توسعية .. وفي البداية باءت تلك المحاولات بالفشل ، لكن لعبة العصا والجزرة التي مارستها الدول الغربية في النهاية جاءت ببعض الثمار .. ببطء لكن بنجاح محدود .

كانت مصر من بين تلك الدول التي سعت إلى تقديم مساعداتها لجميع الأطراف في البوسنة من أجل تأكيد وحدة أراضيها والمساواة بين طوائفها – بمن فيهم الصرب – وبالتالي لم يكن هناك ما يمنع من إجراء اتصالات مع الأطراف الصربية .

وفي صيف ذلك العام وصل إلى البوسنة وفد مصري كان يرأسه السفير محمود السعيد وكان مسئولا في ذلك الوقت عن الصندوق المصري للتعاون الفني مع دول الكومنولوث والدول الأوربية المستقلة حديثا ، وكان الوفد يضم عددا آخر من مسئولي وزارة الخارجية ، وكان من بين أهداف الزيارة الالتقاء مع المسئولين الصرب في معقلهم في بالي .. تلك القرية التي أُعلن منها جميع القرارات التي حولت البوسنة إلى جحيم .

كان السفير أحمد عبد الرحمن أبو طالب قد قام بترتيب الرحلة .. وكان معروفاً سلفا أنها رحلة خطرة بكل المقاييس ، ولم تكن المسافة بعيدة .. وفي قاعة الاستقبال في فندق الهوليداي إن كان الجميع يجلسون عندما دُعي السفير أبو طالب لمكالمة هاتفية ، وعندما عاد كانت تعلو وجهة ابتسامة عريضة واتجه ناحيتي ، ولم أكن أعلم حتى ذلك الوقت أنني سوف أشارك في الرحلة ، وهمس

فى أذنى " هـــل تـــرغب فى زيـــارة بالى ؟ " ولم يكن هناك متسع من الوقت للتفكير ، وما هى إلا دقـــائق وكان الموكب قد تحرك فى طريقه إلى بالى .

وهكـــذا كـــان أربعة من المصريين يمثلون وفدا هو الأول من نوعه الذى يقـــوم باتصـــال مباشـــر مع قيادات صرب البوسنة فى معقل دارهم .. السفير أبـــو طالب والسفير محمود السعيد وأحد موظفى الخارجية وأنا يصحبنا مترجم الســـفارة – وكـــان طبيباً سورى الأصل وحصل على الجنسية البوسنوية خلال فـــترة دراســـته هناك – وانقسم الفريق إلى ثلاث سيارات ، كان السفيران فى إحداهـــا وهى ســـــيارة جيب مصفحة كانت هى السيارة الخاصة بكارل بيلت الممـــثل الـــدولى فى البوسنة وقتها والذى قام بترتيب الرحلة ، والأخريان كانتا تابعـــتين للشـــرطة الدولية تحملنى إحداها والمسئول الشاب واثنين من الضباط الدوليـــن إحدهما هندى والآخر أوكرانى وأيضا مترجمة بوسنوية ، أما السيارة الثالـــثة فقـــد كانت تحمل المترجم وضابطين آخرين من ضباط الأمم المتحدة . وتحـــركت السيارات الثلاث ترفرف عليها أعلام الممثل الدولى والأمم المتحدة بصورة ظاهرة ، وعند خروجنا من باب الفنـــدق كان المصريون الواقفون فى وداعنا ينظرون إلينا ومشاعر قلق عنيفة تجتاحهم .

اخـــترق الـــركب شـــارع تيتوفا حتى وصل إلى النفق الذى يفصل حدود سرايبفو – الاتحادية – وسرايبفو الصربية ، وكان النفق حتى ذلك الوقت مغلقا بشكل جزئى بأكوام من الحجارة والسيارات المدمرة وكان مظلما بالطبع ، وأثناء عـــبورنا تذكرت ما قاله لى عبده حبيب وزير الداخلية وقتها من أن النفق كان طـــوال الحـــرب تحـــت حراسة الكتيبة المصرية ، وكانت نقطة الحراسة تلك معرضـــة دائمـــا لقصف المدافع الصربية ، وفى احدى مرات القصف سقطت القـــنابل عـــلى نقطة الحراسة وسقط أربعة من الجنود المصريين شهداء وكانوا أول شهداء مصريين فى البوسنة .

وعلى الرغم من أن مسألة تذكرى لهذا الحادث قد ضاعفت من قلقى باعتباره فألا غير حسنا ، إلا أننى قررت الاستمرار إلى النهاية .. وعبرنا النفق وبعد لحظات مررنا بلافتة كانت تشير إلى بداية حدود سراييفو الصربية .. نحن إذن فى الأراضى الصربية وكانت تلك هى المرة الأولى التى أمر فيها بهذا الطريق الذى يعد فى الواقع الطريق الرئيسى بين سراييفو وبلجراد . على يمين الطريق وعلى عمق بعيد كان يجرى نهر مليينسكا وعلى جانبى النهر ارتفعت قمم الجبال وهناك فوق كل مكان مستو بين صخور الجبال كان يوجد منزل مدمر ، وعلى الرغم من ذلك فإن مشهد الطبيعة الساحر بكل تلك الأشجار شديدة الاخضرار وقمم الجبال العالية كان كفيلا بأن ينسينا مهمتنا .. وبأن حربا انتهت قبل أشهر قليلة وأن هذه المنطقة كانت تشكل خط الحرب الأمامى لكلا الجانبين .

كان الطريق نفسه غير ممهد بسبب عشرات المعارك التى جرت فوقه خلال محاولات الصرب التقدم منه لاحتلال سراييفو ، وكنا نستطيع أن نرى آثار جنازير الدبابات والحفر الناتجة عن انفجار القنابل الضخمة ومعظم أجزاء السور الحديدى على جانب الطريق قد دمرت مما جعل الرحلة محفوفة بمخاطر إضافية فضلا عن أن بعض الصرب المسلحين كانوا يكمنون فى مناطق على جانبى الطريق لمنع السيارات التى تحمل علامات سراييفو من المرور ، فقد كان الطريق هو نفسه الذى يتجه إلى مدينة جوراجدة المسلمة فى الشرق عبر أراضى الكيان الصربى . وقد تعرض كثير من السيارات وخاصة تلك التابعة للأمم المتحدة لإطلاق النار عليها ، الأمر الذى ضاعف من شعورنا بالقلق كلما توغلنا فى الطريق .. وحتى أقطع الصمت الذى خيم على الأشخاص الخمسة فى سيارتنا رحت أتحدث - بالانجليزية - عن جمال تلك المنطقة وفجأة قالت الفتاة البوسنوية بلغة صربية حازمة " هذه بلدنا " وسألنى الشاب المصرى عما

تقــول فــترجمت له بالعربية ما قالته وأضفت موضحا أنها من الجانب الآخر فــأدرك أنهــا صربية فطلب منى الصمت أو التحدث بالعربية . ولم تمر سوى دقــائق قليــلة حــتى كان الركب قد وصل إلى بالى . نحن إذن فى مقر قيادة كارادجــتيش وفى المكان الذى صدرت منه جميع أوامر القتل والتدمير والذى أديرت منه كل العمليات ووضع كل الخطط العسكرية .

بــالى قرية صغيرة لا يزيد عدد سكانها عن عشرة آلاف نسمة ، وقد أراد لها صرب البوسنة أن تكون سراييفو الصربية بل أنهم أطلقوا عليها بالفعل هذا الاســم الذى لا يزال معمولا به حتى الآن لكى تصبح عاصمة للكيان الجديد . ورحــت أدقق النظر حولى ، فعلى الرغم من أن الدمار لم يكن سائدا هنا بأى شكل الا أن الوجوه كان يبدو عليها الفقر الشــديد والإرهاق ، نفس الوجوه فى كل مكان فى البوسنة . كانت الحرب قد أنهكت الجميع .. وعلى الرغم من ذلك كــان شعورهم بالبغضاء تجاه القادمين الغرباء ملحوظا .. وعندما ترجلنا أمام مقــر الحكومــة وهو مبنى صغير مكون من دورين يقع على الطرف الجنوبى للمديــنة كــانت سيارات الشرطة تحرس المكان ، وبمعنى آخر كانت تحرس القــادمين ، كانت الملاحظة الرئيسية لجميعنا أن أفراد الشرطة الصربية كانوا يــرتدون زيا مموها باللون الأزرق كذلك الذى يرتديه أفراد الوحدات العسكرية الخاصة فلم يكن يبدو عليهم أنهم من أفراد الشرطة المدنية .

كانت تلك هى المرة الأولى التى يقوم فيها وفد من دولة عربية أو إسلامية بــزيارة هــذا المكان منذ بدء الحرب وأحسست أننى كنت على موعد مع القدر والصــدفة ، ودخلــنا إلى مقر الاجتماع ، كان قد تم الاتفاق على أننى المسئول الإعــلامى بالسفارة وقد طلبت هذه الصفة لأننى كنت أظهر وبشكل يومى فى التــليفزيون الصربى ضمن الصحفيين الذين يشاركون فى المؤتمرات الصحفية

الـــتى يعقدهـــا ممثلو المنظمات الدولية فى البوسنة .. وفى الاجتماع كان هناك اثـــنان من الوزراء الصرب أحدهما من الحكومة المركزية للبوسنة والثانى من حكومـــة صربسكا وعدد من مستشاريهم .. وراح السفيران المصريان يشرحان وجهـــة نظر مصر من هذا الاتصال واستعدادها لإشراك الكوادر الصربية فى برامج التدريب التى تقدمها للبوسنة وعن استعدادها لفتح ذراعيها لأى نوع من الـــتعاون شـــريطة أن يتم ذلك فى إطار البوسنة الموحدة .. وطلب الصرب أن يكـــون الـــتعاون ثنائيا كالذى يتم بين أى دولتين ذات سيادة .. كانوا يتحدثون وكـــأنهم يمثـــلون بـــلجراد وبـــنفس الأســـلوب الذى تعلموه ومارسوه دائما .. المـــراوغة .. ومحاولة إثبات ما اختلفوا مع العالم بشأنه وهو الاستقلال ، كانوا يرددون تعبير جمهورية صربسكا وكأنها عضو دائم فى مجلس الأمن الدولى . وطـــال الاجـــتماع لأكـــثر مـــن ساعتين ، كانوا يحاولون شرح وجهة نظرهم والإيحـــاء بأن المسلمين فى الاتحاد المسلم – الكرواتى يأخذون كل شىء وكأن الاتحاد لم يكن يضم الكروات أيضا – كان العداء واضحا ، ومحاولات الوقيعة بيـــن المسلمين والكروات واضحة ولم ينس الصرب أيضا أن يحملوا المسلمين مسئولية كل ما حدث فى البوسنة .. وشعرت بأن النتيجة التى توصلت اليها قبل قدومـــنا قـــد تحققت .. الفشل .. فالمتشددين من صرب البوسنة فى ذلك الوقت كـــانوا يحـــاولون إلقاء تبعة انهيارهم الاقتصادى على كل من يمد إليهم يدا ، ورفـــض الســـفيران هذا المنطق ، وكان الأمر واضحا ، إما بوسنة موحدة أو لا تعاون .

وعلى الرغم من فشل الجانب الصربى فى فهم الرسالة التى سبق لمبعوثين غربيين إرسالها لهم إلا أننا كنا قد نجحنا فى دخول بالى وكسر الحاجز الوهمى الـــذى حـــاول الصرب إحاطة أنفسهم به وهو الرهبة والقوة ، والإيهام بإمكانية إقامة الدولة الصربية الثانية المستقلة .

وعـــندما عدنـــا فى المســـاء إلى سراييفو كان التليفزيون الصربى يضع الاجـــتماع فى مقدمـــة نشراته الاخبارية .. وبعدها كان زملائى من الصحفيين البوســـنويين ينظرون إلى على أننى مغامر وأننى أستحق التقدير للمحاولة وأن بـــلادى تستحق التقدير لرفضها تجزئة البوسنة حتى لوكان ذلك موقفا سريا .. وكـــانت تلك هى أيضا المرة الأولى التى أطلب فيها من صحفيين بوسنويين أن ينشروا رأيهم هذا فى صحفهم .. وقد فعلوا .

لقـاء مع رئيسـة صربسـكا

لـــم يمر وقت طويل على رحلتنا إلى بالى عندما أعلنت بيليانا بلافيشيتش رئيســـة صربســـكا عن قرارات تستهدف تهدئة خواطر المجتمع الدولى وإبداء اســـتجابة وقـــدر من المرونة من أجل إنقاذ اقتصاد الكيان الذى كاد يصل إلى الصفر ، فأمرت بإعلان بانيالوكا مقرا للحكم فى جمهورية صربسكا وقامت بنقل الـــبرلمان وأجهزة الإدارة ومحطة التليفزيون الحكومية الرســـمية .. كان لهذه القرارات رد فعل مريح بين المسلمين والكروات .. فقد ابتعدت الإدارة الصربية عن أكتاف سراييفو مئات الكيلو مترات ولم يعد هناك إلا سراييفو واحدة ولم تعد بـــالى إلا مجـــرد ضـــاحية من ضواحى العاصمة لا تضم سوى محطة إذاعة صربية كانت تطلق على نفسها اسم راديو صربسكا سراييفو ومحطة تليفزيون خاصة كانت تديرها ابنة كارادجيتش . وعقب تلك القرارات بدأ الغرب فى دعم بلافشـــتش باعتبارها معتدلة ، وحث باقى دول العالم على تشجيع الاتجاه الجديد فى صربســـكا .. خاصـــة فى وجود رئيس وزراء فى الكيان كان يوصف هو الآخر بأنه معتدل وهو ميلوراد دوديك الذى كان يبدو بالفعل مواليا للغرب على الـــرغم أنـــه كـــانت لا تـــزال تحكمه فى بعض الأحيان نفس النعرات القديمة بضـــرورة اعتـــبار صربسكا جمهورية مستقلة عن البوسنة . وكانت مصر فى

طليعة تلك الدول التى راحت تستكشف إمكانات تعزيز فكرة الوحدة والاندماج التدريجى بين كيانى الدولة البوسنية .. وهكذا جاءت الرحلة الثانية .

كانت الترتيبات مختلفة تلك المرة .. ولم يكن أعضاء السفارة المصرية فى سراييفو يزيدون عن ثلاثة دبلوماسيين على رأسهم السفير وبعض أفراد الحراسة .. وكان ذلك بالفعل من حسن حظى ، فقد اتصل بى السفير أبو طالب وبطريقته المميزة فى إثارة حاستى الصحفية ليسألنى (تحب تقابل بلافشتش ؟) وكانت الاجابة قاطعة أن نعم . قال : فى الخامسة صباح الغد نلتقى فى السفارة . وهكذا بدأ وفد مصرى صغير مكون من السفير والمهندس سرى سليمان مدير مكتب شركة المقاولون العرب فى البوسنة الذى كان يتولى تنفيذ عمليات الاعمار التى تسهم بها مصر فى البوسنة ومنى فى رحلة طويلة إلى بانيالوكا .. تجمع ثلاثتنا فى سيارة السفير وسيارة أخرى خلفنا كان هناك مترجم السفارة والمترجمة التى تعمل معى واثنان من حرس السفارة .. وفى الخامسة صباحا كنا نخترق أراضى الاتحاد المسلم الكرواتى تجاه الشمال ، وبعد نحو ساعتين ونصف بلغنا حدود الكيان الصربى قرب مدينة زفورنيك الشهيرة وهى منطقة كان يسيطر عليها الصرب وقت الحرب ثم أصبح يسيطر عليها جنود القوات الدولية من أوكرانيا وروسيا والولايات المتحدة ، فقد كانت أيضا أكبر نقطة تفتيش وأهمها بين الكيانين البوسنيين .. وعلى الجانب الصربى كانت تنتظرنا سيارتا شرطة صربيتين ، قادتنا الأولى وهى تطلق سارينتها بلا انقطاع وسارت الأخرى فى الخلف ، وبدأت مغامرة جديدة .

كانت تلك هى المرة الأولى التى يرتفع فيها علم مصر على سيارة السفير ونحن نقطع أراضى صربسكا .. كان اعتزازى بالعلم الصغير الذى يرفرف على جانب السيارة كبيرا ونحن نسير بسرعة لاتقل عن ١٣٠ كيلو مترا فى الساعة . ولاحظنا بعد فترة قصيرة أن سيارتى الشرطة كانتا تتغيران كل نصف

ساعة فى ترتيب دقيق ومنظم ودون أن يتوقف الركب أو حتى يقلل من سرعته عـــلى طريقة سباقات التتابع .. كان يتم تسليم الركب من مدينة إلى أخرى وفى الفترة بين كل عمليتى تغيير كنا نتحدث ونشاهد على الجانبين آثار الدمار فى كل مكـــان فمررنا بمدن كنا نسمع عنها خلال الحرب بعد سقوطها فى أيدى القوات الصـــربية ، وكان أكثرها دمارا مدينة بريدور .. أما القرى فقد دمر عدد كبير مـــنها عن آخره . تلك كانت قرى المسلمين .. وتكررت عملية تغيير سيارات الشـــرطة خمس مرات وصلنا بعدها إلى بانيالوكا .. وعندما وقفت السيارة أمام بوابـــة مقـــر الرئاسة كان الوفد يعامل معاملة وفد رئاسى .. كنا قد وصلنا قبل موعدنا بنحو نصف ساعة بسبب سرعة السيارات وكانت بلافشتش لا تزال فى اجـــتماع مع المفوض السامى فى البوسنة بينما كان رئيس الوزراء – دوديك – فى النمســـا .. ومن ثم كان أمامنا وقت كاف لنلقى بنظرة على المدينة وعندما نقل السفير رغبته إلى رئيس الحرس الصربى المصاحب لنا شعرنا بارتباكه إلا أنه كان ينظر اليه فى الوقت نفسه على أنه رجل شجاع وأمر بزيادة عدد أفراد الشـــرطة المصـــاحبين لـــنا فقـــد كانت الشوارع مزدحمة بالعاطلين واللاجئين الوافديـــن على العاصمة الجديدة على أمل حل مشكلاتهم .. وبدأنا نقرأ العيون ، فقـــد كـــانت المديـــنة تعرف من هو الوافد عليها اليوم بسبب سارينة سيارات الشـــرطة وعلم مصر المرفوع على سيارة السفير .. رحنا نتمشى فى الشوراع القريبة من مقر الر ئاسة الذى يقع فى وسط المدنية .. كان الجميع ينظرون إلى الوجوه الشرقية بدهشة وتعجب ومحاولات لفهم ما يحدث .

بانيالوكا هى ثانى أكبر مدن البوسنة والهرسك بعد سراييفو ، ولكنها كانت المديـــنة الوحيدة وبدون أى استثناء آخر التى خرجت من الحرب دون أى أثر لـــلدمار فيما عدا اختفاء مساجدها التى تم تسويتها بالأرض واختفت تماما عن الأنظـــار .. فلم تشهد المدينة الحرب بمعناها المعروف .. كان السكان الصرب

قـبل الحرب يتمتعون بأغلبية فى المدينـــة ، وكان يعيش فيها نحو ثلاثين ألف مسـلم لم يبق منهم يوم زيارتنا سوى ألفى شخص .. ولذلك فقد بقى كل شيء فى المديـنة على حاله وجماله .. فقد كانت المدينة جميلة حقا .. وقد علمنا بعد ذلك من مفتى بانيالوكا أن المدينة أصبحت تتمتع بنقاء عنصرى بلغت نسبته نحو ٩٥ فى المائة وهى نسبة لا تسبقها فيها إلا مدينة سربرينتسا التى أصبحت نسبة الـنقاء العنصرى الصربى فيها مائة فى المائة ، ولا تزال تلك النســب سارية حتى الآن .

كـانت شـوارع المدنيـة مـزدحمة بالاشخاص الذين يسيرون على مهل واكـتظت المقـاهى بـالآف الـرواد أما فى المحلات التجارية فقد كانت نسبة المشترين تكاد تكون معدومة . وحتى ذلك الوقت كانت نسبة البطالة فى الكيان الصربى قد وصلت إلى اثنين وثمانين فى المائة ، وهو ماكان يشكل أكبر نسبة بطالـة فى العالم كله . وكان متوسط الدخل الشهرى للفرد لا يتعدى ٦٥ ماركا ألمانيا – أى نحو مائة جنيه مصرى تقريبا – وهو وضع أدى إلى انخفاض كبير فى أسـعار السلع القليلة المعروضة فى تلك المحال .. وإذاً فقد كانت تلك هى حالة ما يطلق عليه اسم عاصمة الكيان .. وكانت الأمور أسوأ بكثير فى مناطق أخـرى من الكيان . على أية حال فقد انتهت جولتنا بسلام وعدنا لمقر الرئاسة وفى أذهاننا جميعا صورة مبنى – نارودنا بانكا – أو البنك الوطنى ذو الطراز النمسـاوى بتماثيله النحاسية الضخمة المقامة أمام بوابته الرئيسية التى كانت قد أغلقت بسبب الإفلاس .

كـان لقاؤنـا برئيســة الكيان الصربى وديا للغاية .. جلسنا فى الصالون التقليدى الملحق بمكتبها الذى غطت جدرانه صور لشعارات وشخصيات صربية قديمة ، وخلف المكتب العتيق كان هناك علم الكيان الصربى يغطى الحائط كله

بألوانه الزرقاء والبيضاء والحمراء يتوسطه صليب يحمل كل ضلع منه نصف دائرة بيضاء تقترب به كثيرا من الصليب النازى المعقوف .

راحت بلافشتش تستعرض تاريخ مصر ويوغسلافيا وعلاقات الصرب بالمصريين والتعاون القديم فى كل المجالات .. كانت تريد أن تشعرنا بأنها تمثل يوغسلافيا أو كأننا فى جزء من يوغسلافيا .. ولم تفارقها ابتسامتها قط . وعندما تحدث السفير كان مثله مثل أى قائد عسكرى يفضل الدخول إلى قلب الموضوع مباشرة دون تردد . وهكذا حدد من جديد شروط التعاون مع الكيان الصربى فى ظل قياداته الجديدة . ولم يتحدث عن أية تفاصيل .. وأحسست أن السفير يتجنب أن توجه إليه الرئيسة أسئلة بعينها . وبعد نصف ساعة غادر السفير الغرفة وبقيت مع الرئيسة ومعنا مترجمتى الخاصة وكنا قد اتفقنا على أن أجرى حوارا معها عقب اللقاء الرسمى . وعندما كنت أرافق السفير إلى خارج مكتب الرئيسة قبل لقائى معها قال لى " كما رأيت ، كان لقاؤنا روتينيا .. إننى أترك الباقى لك .. خذ وقتك معها وسأنتظرك أمام المبنى .. وقبل أن أعود إلى بلافشيتش من جديد ربت السفير على كتفى قائلا .." لا أعرف ماذا ستسألها ولكن لا تخشى شيئا .. كُلها إن شِئت ! " .

كان أغرب لقاء صحفى أجريته طوال عملى الصحفى .. فمنذ البداية كنت أعرف من هى بيليانا بلافشيتش .. كانت تشغل منصب نائب رئيس الكيان السابق ومجرم الحرب رادوفان كارادجتش .. وكانت تفاخر دائما بأنها كانت شريكة له فى كل شىء بما فى ذلك مسؤليته عن تدمير ٨٥ فى المائة من كل البوسنة ، كانت مسئولة عن الحرب جنبا إلى جنب مع باقى القيادات الصربية التى أمرت بحرق قرى المسلمين والكروات بشكل بشع طوال سنوات الأزمة الكارثة . كنت أشعر للمرة الأولى بتضارب كبير بين مشاعرى كمسلم عايش

معاناة البوسنة وأهلها وبين مشاعرى كصحفى محترف على وشك أن يقوم بعمل صحفى غير مسبوق .. وسمحت لمشاعرى كصحفى أن تتغلب فى النهاية .

عندما طلب المجتمع الدولى أن يطرد كارادجيتش من القيادة الصربية كشرط لتقديم المساعدات الاقتصادية والاعتراف بالكيان كسلطة مستقلة داخل البوسنة .. لم يجد - كارادجيتش - سوى بلافشتش كخليفة مناسب له .. لكن الأمور تغيرت بسرعة .. وتحولت الصداقة بينهما إلى عداء سافر ، فقد كانت ترى أنه حان الوقت لأن يعترف صرب البوسنة بالواقع وبمتطلبات السلام وبدء الاندماج من جديد مع المجتمع الأوربى والدولى ، والأهم من ذلك كله الاقتراب من الطرف الآخر فى الدولة والتخلى عن السياسات المتشددة التى اتبعها الحرس القديم - وهى أحد أطراف هذا الحرس - حتى يمكن الخروج بالكيان من أزمته الاقتصادية الطاحنة . وهكذا أعلنت التزامها بتطبيق اتفاق السلام بكل بنوده دون شروط .

بليانا بلافشتش صربية أرثوذكسية تبلغ من العمر ٦٨ عاما - فى ذلك الوقت - كانت فى ملامحها تشبه إلى حد كبير جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل الراحلة ، كانت تتحدث بهدوء مبالغ فيه وبكلمات بسيطة ، ربما بسبب لغتها الانجليزية المتواضعة ، لكنها - شأنها شأن أى من قيادات صرب البوسنة - متمسكة فى أعماقها بحق الصرب التاريخى فى الأرض والسيادة فى البوسنة .

كنت قد أعددت لها قليلاً من الأسئلة حيث حدد لى رئيس مكتبها نحو ١٥ دقيقة فقط .. لكن لقاءنا امتد لنحو الساعة - بناء على طلبها - فقد كانت تدرك أن مصر لها مكانتها ، وكانت تدرك أن تحسين صورة صرب البوسنة فى المنطقة العربية والإسلامية لن يتم إلا عن طريق مصر والإعلام

المصـــرى .. وقد وجدتها فرصة لأن تبعث برسالة إلى الجمهور العربى وهى رسالة لم تستطع بشكل كامل أن تنقلها إلى السفير المصرى .

عـــندما طلـــبت من المترجمة التى كانت تعمل معى طوال فترة عملى فى البوســـنة أن تـــبدأ فى تـــرجمة أســـئلتى ، وكنت أتحدث بالانجليزية ، تدخلت بلافشـــنتش قائـــلة أنـــنى أفهمـــك جيدا ، دع الحوار يكون مباشرا والتفتت إلى المـــترجمة وســـألتها عـــن اسمها فأجابتها ، أليسا بلوتشو ، ورددت بلافشنتش الاسم .. ثم سألتها مجددا .. أنت من سراييفو ؟ وعندها ردت الفتاة بإصرار لم يخـــلو مـــن عناد أنا مسلمة من بلدة هراسنتسا فى سراييفو ، وهنا قالت رئيسة الكيـــان الصـــربى للفتاة : طبعا أعرفها .. ثم وبابتسامة واسعة استطرد قائلة " ســـنلتقى فى ســـراييفو قريبـــا " وأتبعتها بتعبير بوســـنوى يعرفه الجميع من الطوائف الثلاث (AKO BOGDA) ومعناه : إذا أراد الله : ونظرت الفتاة إليها بابتسامة مقتضبة دون تعليق . وعندما غادرنا مكتبها قالت لى أليسا إن بلافشنتش ســـوف تـــأتى إلى سراييفو ، فهى عندما تقول شيء تعنيه ، وبعد هذا التاريخ بثلاثة أشهر زارت بلافشنتش سراييفو لمدة ساعة واحدة بعد أن خرجت منها قبل ثمـــانى سنوات ، وماتزال تمتلك شقة فى وسط العاصمة وربما تعود إليها من جديد مرة أخرى .

مـــا قالته لى بلافشنتش كان مفاجأة لى .. فقد كشف حديثها عن الكثير من علاقـــات الدول الإسلامية – مثل ليبيا والعراق وتركيا – مع الكيان الصربى ، وعـــن مدى علاقات الدول الغربية وخاصة الولايات المتحدة مع الكيان ، ومن المؤكـــد أن علاقة الصرب مع روسيا كانت قد تقلصت إلى حد كبير ربما أثار سخط بلجراد أحيانا كما فهمت من بلافشنتش .

كـــانت بلافشـــنتش تدرك جيدا أنه بدون الصرب فلا سلام .. لكنها كانت تـــدرك أيضـــا أنـــه بـــدون أوربـــا والولايات المتحدة فلا مستقبل لجمهورية

صربسكا .. وهكذا راحت تتحدث عن محاولاتها إصلاح العلاقات مع الغرب . وعندما سألتها عن علاقتها بالدول الاسلامية ومصر قالت " أن تاريخ الصرب الطويل يؤكد رسوخ هذه العلاقات ، وأن الكثيرين من الصرب يعملون فى ليبيا والعراق ، وأن هناك مشروعات كثيرة مع تركيا كما أنه ليس لدينا خلاف مع "إيران " !! وهاتان الدولتان – تركيا وإيران – ستقومان بتنفيذ عدد من المشروعات الاستثمارية على المدى القريب فى صربسكا وقد زارنى سفراء تركيا وماليزيا وليبيا وسيأتى سفير إيران – وقد حدث – أما مع مصر فقد أنشأنا معا حركة عدم الانحياز .. وسوف أزور مصر بمجرد أن توجه لى الدعوة ".

كانت بلافشتش تتحدث وكأنها رئيس يوغسلافيا وليس كرئيس لكيان يشكل جزءا من دولة أخرى هى البوسنة والهرسك . وعندما نبهتها إلى ذلك ابتسمت وراحت تستكمل حديثها . وعندما قلت لها إن السلام لن يحل فى البوسنة إذا لم يُسلّم كارادجيتش للعدالة قالت " هذا الأمر يحدده الشعب الصربى ووفقا لدستور الجمهورية فلا يمكن تسليمه .. لقد قاد كارادجيتش كفاح الشعب الصربى !! وأخشى أنه لن يكون هناك من يجرؤ على اعتقاله وإلا فسيكون لذلك عواقب وخيمة كما أخشى أنه لن يسلم نفسه طواعية " .

كان ذهنى قد شرد إلى سراييفو وأنا أحدث رئيسة الكيان الصربى وكنت أتخيلها تتجول فى شوارع سراييفو وتزور شقتها هناك .. وعندما نقلت إليها ما أفكر فيه قالت "سيحدث يوما ، ربما عندما ينسى الآخرون الجراح ".. وعندما غادرت مكتبها كنت أفكر فى عدد السنين التى يمكن أن ينسى بعدها الآخرون تلك الجراح ، وجاءتنى الإجابة سريعا فقد قالت لى المترجمة البوسنوية وهى تعلق على قول بلافشيش بنظرة كلها إصرار " أما عنى فلن أنسى تلك الجراح .. وسأعلم أبنائى ألا ينسوها " . ووجدت السفير ينتظرنى أمام مبنى

الرئاسة . واستفسر بسرعة عما فعلت وكان موعدنا مع وزير اقتصاد الكيان قد حـــان واكتشفنا بعده أن الجميع فى صربسكا كانوا يرغبون فى أن تتم معاملتهم على أنهم دولة فى مستقلة . وللمرة الثانية رفض السفير بحزم لكننا كنا قد تأكدنا أن وقتا طويلا سيمر قبل أن تهدأ جراح البوسنة .

سيلايدجتش ومصر

أعـــتقد أن حـــارث ســـيلايدجتش هو أبرز شخصية سياسية على الساحة البوســـنية الآن – بعد اســـتقالة الرئيس على عزت بيجوفيتش – وكنت قد رأيته للمرة الأولى فى زاجرب قبل انتقالى منها إلى ســـراييفو فى صيف عام ١٩٩٦ . وقـــبل إجـــراء أول انـــتخابات عامـــة فى البوسنة .. وفى ذلك اليوم أعلن ســـيلاديجتش رسميا أنشقاقه عن حزب العمل الديمقراطى واستقالته من منصب وزير الخارجية وإنشاء حزبه الجديد ZA BOSNIA I HERCGOVINA (من أجل البوسنة والهرسك) . كان سيلايدجتش وزيرا للخارجية عندما وقع الخلاف بيـــنه وبيـــن قيـــادات حـــزب العمل الديمقراطى – الذى يتزعمه على عزت بيجوفيـــتش – فى أوئـــل عام ١٩٩٦ بشأن السياسات التى يتعين على البوسنة اتباعها مع بداية السلام ، وفى المستقبل فقدم استقالته من منصبه الذى شغله من بعده محمد شاكر بيجوفيتش – سفير البوسنة فيما بعد فى الأمم المتحدة – وقرر دخول الانتخابات الأولى مستقلا عن حزب العمل ، وقد تسبب ذلك فى ألم عظيم لعـــلى عزت بيجوفيتش وعلى الرغم من محاولات بعض أعضاء حزب العمل الديمقـــراطى تصـــوير مـــا قام به سلايدجتش بأنه إنشقاق لضرب إسفين بين الرجلين إلا أن حكمة السنين والقدرة على رؤية المستقبل التى يتمتع بها الرئيس جعلته يحتفظ بعلاقاته الجيدة مع سيلايدجتش إذ كان يرى فيه مستقبل البوسنة ..

وعقب الانتخابات كان وراء اختياره كرئيس مناوب لأول حكومة مركزية فى البوسنة والهرسك .

منذ اللحظة الأولى التى رأيت فيها سلايدجدتش فى مطار زاجرب قبل الانتخابات العامة رحت أتتبع شخصيته وكتبت عنه للمرة الأولى فى يوليو من نفس العام ، وكان تقديرى أنه سوف يصبح فى غضون سنوات قليلة قائدا للبوسنة ومفكرها وأنه بلا جدال الرجل الذى سيأخذ البوسة إلى أوربا الحديثة .

كنت قد تعلمت منذ تجربة سفرى الأولى إلى الولايات المتحدة عام ١٩٨٥ أن كل دولة ينبغى أن تكتشف وقبل سنوات طويلة من هى الشخصيات القادمة فى الطريق فى الدول الأخرى ومن ثم فهى تعتنى بهذه الشخصيات وتبدأ فى الاتصال بها مبكرا حتى إذا ما تبوأوا مناصب مرموقة فى بلادهم يكون التعامل معهم أسهل وأسرع وتكون العلاقات أكثر قوة . وكان هذا اعتقادى بالنسبة لسيلايدجتش الذى تبنته الولايات المتحدة وقربته إليها وكانت ترى فيه الشخص المناسب لمستقبل البوسنة ، وعندما انتقلت إلى سراييفو فى أكتوبر من العام نفسه كان حارث سيلايجدتش قد أصبح رئيسا مشاركا للوزراء فى حكومة البوسنة والهرسك المركزية .

يتمتع سيلايدجتش بشخصية فريدة .. فالقريبون منه يعرفون عنه البساطة الشديدة ، فهو يقود سيارته الصغيرة الرسمية بنفسه ، ويفضل فى أمسيات الصيف أن يسير فى شارع الباشتشارشيا وسط المدينة القديمة بلا حراسة ودون إزعاج للآخرين أو العكس ، فالناس قد تعودوا منه ذلك وهم يلقون عليه التحية باسمه مجردا ويمضون فى الطريق ، أما بالنسبة لخصومه فهو شخصية متعجرفة متعالية والسبب فى ذلك ثقافته غير المحدودة إذ يعد واحدا من أوسع الشخصيات ثقافة فى البوسنة وأكثرها إدراكا بواقع بلاده ومستقبلها وبالتناقضات

الـــتى أوقعتها فيها الظروف .. وهو لم يكن أبدا أحد الشيوعيين القدامى ولا هو أحـــد أفـــراد الحرس القديم . وقد تلقى سيلايدجتش جانبا من تعليمه فى مصر وواصــــل دراســـته فى ليبيا وقضى فى البلدين نحو خمس سنوات فأتقن العربية وأصـــبح على علم واسع بالمنطقة العربية والإسلامية ثم حصل على الدكتوارة فى الـــتاريخ مـــن أسبانيا ودرس الاقتصاد والفلسفة ويجيد عدة لغات من بينها الإنجـــليزية والإسبانية ، وهو ذو ميول غربية وعربية فى الوقت ذاته وهو ما جعلـــه أمـــر محير للكثيرين ، وخلال أزمة الفساد التى اجتاحت البلاد فى عام ١٩٩٩ كـــان سيلايدجتش ، وباعتراف خصومه قبل مؤيديه ، على رأس قائمة الأطهار .

فى فـــبراير ١٩٩٨ كـــان مجـــلس وزراء الحكومـــة المركـــزية للبوسنة والهرســـك – شـــأنه شأن باقى مؤسسات الدولة المشتركة – يجتمع فى إحدى حجرات المتحف الوطنى المطل على شارع تيتوفا ، وعلى الرغم من أن نصف الحديقـــة الخـــلفية لهذا المبنى كان مزروعا بالألغام إلا أن جميع زوار البوسنة الرسميين عقدوا إجتماعاتهم فيه . وفى ذلك الوقت كانت قد تجمعت لدى الكثير من الأسئلة والاستفسارات عن الأوضاع فى البوسنة فى ظل الخلاف الشديد بين رئيســـى الوزراء المناوبين . وعقب أحد اجتماعات مجلس الوزراء طلبت من سيلاديجتش أن ألتقى به وقال إنه يمكننا الالتقاء مساء اليوم نفسه أو أن نتحدث فى ســـيارته لمدة نصف ساعة أثنـــاء توجهه لاجتماعه التالى ، إلا أننى طلبت أن يكـــون اللقاء فى المســـاء حتى يكون هناك متسعـــا من الوقت فوافق على الفور .

لـــم أغـــادر مكتـــبى فى ذلك المساء وعندما بلغت التاسعة مساء غادرت المكتب يائسا من إتمام اللقاء وتوجهت إلى مطعم مجاور لمنزلى كنت قد تعودت

تــناول طعـــامى فيه .. وقبل أن أبدأ فى تناول العشاء جاءنى صاحب المطعم يبلغنى أن مكتب حارث يطلبنى .. وقال لى مستشاره الإعلامى الصديق ياسين رواشـــدة - وهـــو صـــحفى أردنى الأصل - إن فخامة الرئيس - كان يقصد سيلايدجتش - يطلب حضورك فورا إلى مقر الرئاسة وبدون عشاء ، واعتذرت لصـــاحب المطعم وتوجهت من فورى إلى مقر الرئاسة . كان سيلايدجتش فى اجتماع ومن ثم جلست فى غرفة الانتظار الملحقة بمكتبه حيث كان هناك أيضا رجل ضخم الجثة يضع فوق رأسه طاقية من الفراء على الطراز الروسى كانت تخــفى نصف وجهه لكنى شعرت أنه ليس غريبا عنى ، وما أن لمحنى الرجل حتى هب واقفا وهو يرحب بى بلهجة عرب شمال أفريقيا ولما لم أتعرف عليه فـــورا خـــلع طاقيته فعرفته وتبادلنا الأحضان .. كان الرجل هو الفنان العربى التونسى القدير لطفى بوشناق . وجلسنا نتحدث كأصدقاء قدامى على الرغم أن تـــلك هى المرة الأولى التى ألتقى به فيها . وعندما أنهى سيلايدجتش اجتماعه خرج إلينا معتذرا ومبتسما وبادرنى قائلا : اليوم لا أسئلة فى السياسة .. ستكون أمسيتنا فنية فقط .. وبعدها توجهنا إلى مطعم على قمة تل فى شمال سراييفو .. وامتدت سهرتنا طويلا .

تـــناول حديثنا أوجها ثقافية مختلفة .. وتحدثنا عن الشعر العربى والسينما المصــــرية .. خاصة وأن سيلايدجتش كان يأمل فى أن تقوم البوسنة بإنتاج فيلم عـــالمى عـــن تـــاريخ الحـــرب فى البوسنة ، وكان يفكر فى أن يقوم بإخراجه المخرج العالمى مصطفى العقاد ، أما أنا فقد اقترحت أن يتولى إخراجه المخرج المصـــرى العـــالمى يوسف شاهين ، وأستحسن لطفى بوشناق الفكرة .. وفكر رئيـــس الـــوزراء مليا .. وقال : بالفعل إنه مخرج جيد . واكتشفت فى رئيس الوزراء جوانبه الثقافية والفنية والإنسانية التى زادتنى إعجابا به .. وغنى لطفى بوشناق أغنيات كثيرة بناء على طلب من سيلايدجتش .. وعلى الرغم من مرور

ساعات طويلة على هذه الجلسة الطويلة - التى تخللها عشاء على الطريقة البوسنوية - لم يتطرق أى منا إلى موضوعات سياسية ، لكن سيلايدجتش راح يتحدث عن مصر بإسهاب وعن حى الأزهر وأغنيات أم كلثوم وعبد الوهاب ، وفجأة قال لى إنه يريد أن يزور مصر بعد نحو شهر ولكن الظروف لا تسمح بذلك . وكانت تلك خاتمة جلستنا الجميلة . وعندما كنا فى طريق العودة مستشاره الاعلامى وأنا - قال لى المستشار : أعتقد أن الرئيس يرغب فى زيارة مصر لأمر ضرورى إلا أن عقبات البروتوكول تعوق تنفيذ ذلك بأسرع وقت ، وهو يعتقد أنك كصحفى يمكن أن تساعده فى ذلك خاصة أنه لا يستطيع أن يعرض الأمر بشكل رسمى على السفير المصرى .. ثم قال لى ياسين رواشدة بحزن شديد " إن هناك بعض الدوائر السياسية فى البوسنة لا تريده أن يذهب إلى مصر ، وأنه لذلك أصبح أكثر إصرارا على القيام بهذه الزيارة على أن توجه إليه الدعوة " . وكنت أعرف مدى الخلافات بين رئيسى الوزراء وخاصة تجاه العلاقات مع الدول العربية .

وفى الصباح كنت قد كتبت بما دار من حوار إلى مصطفى نجيب رئيس تحرير الوكالة ، ولم أعرف مصير ما كتبت إلا بعد أسبوعين عندما دعيت مرة أخرى إلى مكتب رئيس الوزراء ، وكانت الدعوة هذه المرة لاجراء حديث بمناسبة الزيارة التى سيقوم بها سيلايدجتش إلى مصر . وفى هذا الحديث عرفت منه أنه معجب بالتجربة المصرية فى عملية خصخصة مؤسسات القطاع العام وأن زيارته ستتركز على طلب معاونة مصر فى تطبيق التجربة المصرية الناجحة فى البوسنة .

وعقب هذه الزيارة قام عدد من خبراء الخصخصة المصريين بزيارة البوسنة ، وكان سيلايدجتش حريصا على أن يلتقى بكل منهم فى جلسات مطولة ليستمع إلى التجربة عن قرب ، وليعرف بشكل أكبر ما هى المعوقات

التى تعترض البوسنة فى هذا المجال ، وأعتقد أنه عرف الكثير من هؤلاء الخبراء .

مصر والبوسنة

على الرغم من أن الكثيرين ربما لم يسمعوا عن البوسنة والهرسك قبل أن تشتعل الحرب هناك ، إلا أن العلاقات بين هذه الجمهورية السابقة من جمهوريات الاتحاد اليوغسلافى كانت على علاقة عميقة بمصر شأنها شأن باقى جمهوريات ذلك الاتحاد ، إلا أن البوسنة ظلت تحتفظ بمكانة خاصة فى مصر والعكس كذلك ، فيندر أن تجد من بين كبار علمائها المسلمون من لم يتلق تعليمه فى الأزهر الشريف ، بل أن الكثير من السياسيين تلقوا جانبا من تعليمهم فى بعض جامعات مصر ، وعلى الجانب الآخر كانت جامعة سراييفو تضم الكثيرين من الطلاب العرب وبشكل خاصة كلية الطب ، ويحتفظ البوسنويون بذكريات طيبة عن مصر ، وهم لم ينسوا أنه خلال عهد الرئيس جمال عبد الناصر عادت إليهم بعض حقوقهم الدينية وأعيد فتح الكثير من المساجد عندما تدخل ليقنع الرئيس تيتو بمنح مسلمى البوسنة بعض الحريات التى كانوا يفتقدونها منذ إعلان الاتحاد فى أعقاب الحرب العالمية الثانية .

وقد استمر النهج المصرى فى الاهتمام بالبوسنة بعد ذلك فتم التوسع فى المنح الدراسية لطلابها ، وفى الوقت نفسه كانت منتجعات البوسنة الصحية هى المكان المفضل للمصريين للاستشفاء . وعندما اندلعت الحرب كانت مصر من أولى الدول التى سارعت بالمشاركة فى قوة حفظ السلام الدولية التى قررها مجلس الأمن فى منتصف عام ١٩٩٢ ، وكانت القوة المصرية مشكلة من كتيبة مشاة وتم إطلاق اسم طابا عليها منذ ذلك الحين .. وكان يرأسها فى ذلك الوقت

ضـــابط برتــبة لواء إلا أنه تم تغييره بعد ذلك بضابط برتبة عقيد إذ أن اللواء المصرى كان يفوق فى رتبته قائد قوات حفظ السلام كلها . وعلى أية حال فقد تمركـــزت الكتيـــبة المصرية فى سراييفو فى معسكر سابق للجيش اليوغسلافى يطـــلق عـــليه اسم البسترك ، وقد تحول المبنى الرئيسى فى ذلك المعسكر إلى وزارة الدفاع البوسنوية بعد الحرب بينما أعيد تمركز القوة المصرية مع غيرها من القوات الدولية فى معسكر الماريشال تيتو وسط العاصمة .

ليس هناك من مواطنى العاصمة البوسنيوية من لا يحمل لهذه الكتيبة قدراً مـــن الحب والاحترام ، فعلى مدى السنوات السبع التى ظلت فيها الكتيبة هناك كـــانت ســـندا معـــنويا وماديا للمحاصرين أثناء الحرب وبعدها . ويعتقد أهل ســـراييفو أنـــه لولا وجود القوة المصرية فى سراييفو خلال الحصار لكانت قد ســـقطت منذ بداية الحرب .. ولم يعد سرا أن أفراد الكتيبة تعرضوا لكثير من الانـــتقادات مـــن القيـــادة الفرنسية لقوات حفظ السلام إذ كانوا الوحيدين الذين يتمتعون بالشجاعة الكافية لرد الهجمات التى كانوا يتعرضون لها من قبل القوات الصربية التى تحتل الجبـــال المحيطة بالمدينة مما دفع الصرب فى النهاية لأن يمتنعوا عن إطلاق النار فى كل منطقة البسترك وهكذا وجد السكان المحاصرين الأمـــان فى تـــلك المنطقة .. وقد حكى لى كثير من مواطنى سراييفو عما كان يفعله جنود الكتيبة المصرية لمساعدتهم بالمواد الغذائية والمياه لدرجة أن الجنود كـــانوا يقتســـمون طعامهم مع السكان . وهو ما كان يثير حفيظة بعض قيادات القـــوات الدولية إلا أنه كان يجبرهم أيضا على احترام هذه القوة . ويكفى القول أنـــه بعـــد إنتهاء الحرب ظلت الكتيبة المصرية تقدم مساعداتها للسكان فى كل المجـــــالات ، فعـــلى مـــدى عامين فقط تم علاج نحو خمسين ألفا من سكان ســـــراييفو – من المسلمين والكروات والصرب – بما فى ذلك حصولهم على الأدوية .

فى أواخــر عــام ١٩٩٧ كــانت يــبدو للعالم أن الأمور قد استقرت فى البوســنة ، ولــم يكن ذلك صحيحا ، وفى إحدى أمسيات شهر ديسمبر الباردة صدرت الأوامر للكتيبة المصرية بالعودة إلى البلاد وإنهاء مهمتها فى البوسنة . ولم أكن أدرك وقع مثل هذا النبأ فى البوسنة وبشكل خاص فى سراييفو . وفى الصباح التالى كان جزء من الكتيبة قد تحرك بالفعل تجاه ميناء بلوتشا الكرواتى حيث تنتظر سفينة مصرية لنقل الوحدات إلى الأسكندرية ، وبدا أن الأمور تسير بسرعة ولكن بهدوء ، وعلى الرغم من أن الوقت كان لا يزال مبكرا إلا أن خبر مغادرة الكتيبة المصرية سرى فى العاصمة كلها بسرعة البرق وعلى الفور كان هناك عشرات من أهالى المدينة الذين كانوا يتلقون العلاج والمساعدات الغذائية اليوميــة من الكتيبة يتزاحمون أمام البوابة الرئيسية ، وعندما تأكدوا من الخبر عــم حزن بالغ بينهم . وكنت بين هؤلاء الناس لأسألهم عن مشاعرهم تجاه ما قدمته الكتيبة لهم .. وكانت مفاجأة لى من بعضهم أنهم كانوا يفكرون فى إعاقة خــروج الكتيــبة مــن المعسكر وكان كل ما يفكرون فيه أن كارثة ستحدث ، والغــريب أننى سمعت شائعة بينهم تقول إن القوات المصرية ستنسحب لتأكدها مــن أن الحــرب سوف تندلع من جديد وأن القرار تم لخلاف بين هذه القوات المســلمة وبين القوات الأوربية ، ثم توجهت إلى الجنرال لويجى كانتونى قائد الــلواء الايطالى الذى كانت الكتيبة المصرية تعمل فى إطار مهامها فى تأمين العاصمة ، فأكد لى أن القرار كان مفاجأة وأنه بالفعل يخشى من أن يؤدى غياب الكتيــبة المصــرية إلى إحداث نوع من الخلل فى التوازن بين القوات ، إذ أنها القــوات الوحيــدة التى تنتمى إلى العالم الإسلامى التى تعمل فى سراييفو بينما القــوة الأردنيــة قوة رمزية تشارك فى حماية المطار فقط أما القوات التركية فكــانت تعمــل بشــكل أساسى فى مدينة زينتسا على الرغم من أن قيادتها فى

سراييفو ، ولذلك فهو يخشى من أن يفسر المسلمون القرار على أنه مضاد لهم وبالتالى يتغير سلوكهم نحو القوات الدولية ليصبح سلوكا عدائيا . بعد لقائى مع الجنرال تأكدت من ضرورة بقاء القوة المصرية التى كان لها الفضل فى رفع اسم مصر عاليا بين القوات الأوربية بكفائتها وقدرتها القتالية والتدريبية باعتبارها أول وحدة عسكرية مصرية تشارك فى مهمة فى القارة الأوربية .

عقب هذا اللقاء طلبت من وزير داخلية الاتحاد المسلم الكرواتى عبده حبيب أن يفسر لى مخاوف المواطنين فى المدينة ففاجأنى بقوله أن لديه معلومات بأن عددا من المنظمات والجمعيات والأحزاب فى البوسنة قررت إجراء مظاهرة أمام مبنى الرئاسة البوسنوية للمطالبة ببقاء الكتيبة المصرية . وقال "لو أنهم لم ينظموا هذه المظاهرة لطالبت أنا بتنظيمها والسبب فى ذلك أننا كوزارة داخلية نعتمد بشكل كبير على الكتيبة المصرية لتأمين سراييفو استراتيجيا وخاصة على المحاور المشتركة مع الكيان الصربى أما مهمتنا الآن فلا تتعدى تنظيم المرور والأمن الداخلى" .. كان حبيب يرى أن الكتيبة المصرية لابد أن تبقى . وعندما سألته عن رأى الرئيس على عزت بيجوفيتش قال لى اساله بنفسك . ومن مكتبه حاولت الاتصال بالرئيس ولم أفلح فقد كان اليوم ما يزال فى بدايته والرئيس مشغول باجتماعاته ولكن مدير مكتبه قال لى اتصل بعد ساعة . وبعد ساعة قال لى أن الرئيس يبلغك بما يلى " إن قرار سحب الكتبة المصرية وقع علينا وقع الصدمة ، ونحن ندرك أن مصر قد تكلفت كثيرا بسبب بقاء الكتيبة لكل هذه السنوات ونحن نشكر مصر لكل ما قدمته لنا القوات المصرية فى الحرب والسلم وعلى الرغم من احتياجنا لها فإننا نقدر ونحترم قرار الرئيس مبارك ونتفهم دوافعه " . وعندما سألته عن رد فعل الرئيس إزاء ما أثير عن تنظيم مظاهرات فى اليوم التالى للمطالبة ببقاء الكتيبة قال لى الرجل أن الرئيس سوف يشرح للناس دوافع مصر .

وعدت إلى الشارع أسأل الناس عن رد فعلهم إزاء مغادرة الكتيبة وما قيل لـم يكـن مفاجـأة . كان الناس وكأنهم يشعرون بأن ظهرهم أصبح للحائط .. ولا أريد هنا أن أبالغ فى ما قدمته الكتيبة .. الا أننى شاهدت بنفسى فى الجبال المحيطـة بسراييفو وفى مناطق لا يمكن لأى سيارة يمكن أن تصلها كيف كان مهندسـو وجنود الكتيبة المصرية يحفرون الشوارع فى درجات حرارة وصلت إلى ١٥ درجـة تحـت الصـفر لـكى يقوموا بتوصيل خطوط الغاز للمناطق المحـرومة من التدفئة وكم كان الخطر الذى يتعرضون له كبيرا بسبب انحدار الطرق ومخاطر وجود ألغام هنا وهناك .

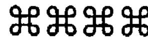
وأخيـرا كتـبت تقريـرا شاملا عن كل ما حدث ذلك الصباح إلى رئيس الـتحرير والذى رفعه على الفور إلى الجهات المسئولة دون أن ينشر معظمه . وبعدهـا كان على أن أتوجه إلى السفارة ، وسألنى أبو طالب السفير عما فعلت وعدت أروى له ما حدث بالتفصيل .. كان السفير يدرك باعتباره عسكريا سابقا أهمية استمرار وجود الكتيبة فى البوسنة وكان من ناحيته يجرى اتصالات مكثفة مع المسئولين فى مصر للعدول عن القرار .

فى المسـاء كـنت مـع أفـراد الكتيبة التى كانت تحزم أمتعتها ومعداتها اسـتعدادا لمغـادرة الجزء الأكبر منها فى الصباح ، كان قد تم تحميل المعدات الثقيـلة على سيارات شحن ضخمة تابعة للواء الإيطالى ، وكأنما كانت الطبيعة نفسها ترفض مغادرة الكتيبة إذ تعرضت سراييفو فى تلك الليلة لعاصفة ثلجية لم تشـهد العاصـمة مثلها منذ سنوات طويلة ، وكان يبدو أن تلك العاصفة ربما سـتعيق الرحـلة الطويلة إلى ميناء بلوتشا ، وفى السابعة من مساء نفس اليوم وبمصـادفة بحتة عندما كنت أجلس مع العميد حمدى الدسوقى قائد الكتيبة فى مكتـبه تلقى الأمر ببقاء الكتيبة . وفى اليوم التالى كان خبر قرار الرئيس مبارك

ببقاء الكتيبة المصرية يتصدر جميع الصحف المصرية .. وفى البوسنة كذلك . وبقيت الكتيبة عاماً آخر بعد أن تم تخفيض جانب من قوتها .

ومرة أخرى يتعين على أن أقول إن ما ساهمت به مصر فى البوسنة ربما لا يصـــل إلى ما ساهمت به دول أخرى غنية ، لكن مساهماتها كانت دائما فى المكان المناسب ولم تكن المساهمات فقط من جانب الدولة . والواقع أن البوسنة ســوف تذكـــر ولسنوات طويلة قادمة ما قدمه الشعب المصرى من مساعدات إنســانية إلى إخوانهم ، وسوف يكون صرح الصداقة المصرية البوسنوية الدائم هو ذلك البناء الرائع الذى قررت السيدة سوزان مبارك قرينة الرئيس بإقامته فى مديــنة موســــتار وهو قرية الأطفال من أبنــاء الشهداء والذى دفعت تكاليف انشاءاته جمعية الهلال الأحمر المصرى – نحو عشرة ملايين جنيه مصرى – من تبرعات الشعب المصرى .

وهــناك الكــثير مــن تلك اللفتات الإنسانية الكثيرة التى كان يتعين على الإشارة لها لولا أن القضية التى أتعرض لها فى الأساس هى مستقبل البوسنة .



خاتمـــة

فى غضون الأشهر الأولى من عام ٢٠٠٠ شهدت منطقة البلقان الكثير من التطورات الهامة التى يمكن أن يقال أنها سوف تؤثر وبشكل كبير على مجريات الأمور فى تلك المنطقة لسنوات طويلة قادمة . ولعل أهم وأخطر هذه التطورات عـلى الإطلاق هو طرد سلوبودان ميلوشيفيتش من حكم يوغسلافيا بعد أن أدى دوره التاريخى فى إشعال أربع حروب فى المنطقة وتفتت الاتحاد اليوغسلافى القديـم ومقتل مئات الآلاف من البشر . وعلى الرغم من أن الاتجاه السائد الآن فى يوغســلافيا هــو العودة إلى الحظيرة الأوربية بإرساء نهج ديمقراطى جديد يســاير الــنهج الأوربى إلا أنه يتعين علينا القول بأن الثورة الشعبية فى صربيا والـتى أنهــت وجــود ميلوشــيفيتش لم تنه فكره السياسى ولا سيطرة الحزب الاشــتراكى الصــربى عــلى الكــثير من مقاليد الأمور . وعلى الرغم من أن الإطاحــة به كانت أحد الأمور الضرورية للوصول إلى قدر من الاستقرار فى المــنطقة إلا أن فكــره وممارســات نظامه ومؤسساته ستظل تسيطر لفترة من الــزمن ، ولــن يكون غريبا أن إصراره على الاستمرار فى قيادة الحزب ليس إلا مجرد التفاف تكتيكى على رغبة الجماهير الصربية فى التخلص من حكمه ، وعــلى رغبة العالم فى التخلص من شروره إلى الأبد ، حتى يحين الوقت ليقفز مــن جديــد – ســواء بشخصه أو عن طريق أحد أتباعه – إلى السلطة . وفى اعــتقادى أنــه على الرغم من اصرار ميلوشيفيتش وحزبه على السيطرة على مقاليد الأمور فى صربيا فإن العالم وأوربا على وجه التحديد ليسوا على أى قدر مــن السذاجة بحيث يسمحوا بعودة نظام ميلوشيفيتش – آخر النظم الشمولية فى أوربا – من جديد .

وما يهمنا هنا هو أن ماحدث ويحدث فى صربيا إنما له تأثير مباشر على الأوضاع السياسية والاقتصادية والأمنية للدول المجاورة وبشكل خاص البوسنة والهرسك . ولقد شهدت المنطقة أيضا فى نفس الفترة استمرار العنف العرقى فى كوسوفو ، وعلى الرغم من أن الأمور تبدو قد أستقرت إلى حد ما ، فمن المؤكد أن نار العرقية لم تخبو بعد و ربما لن تخبو إلا إذا تخلى ألبان كوسوفو عن مطلب الاستقلال وإلا إذا تخلى الصرب عن بقاء الإقليم كما كانت عليه الأمور من قبل ، وفى اعتقادى أن أيا من المطلبين لا يمكن تحقيقه فى الوقت الحالى ونيران الحرب لم تزل هناك . ولن يضمن بقاء الوضع كما هو إلا استمرار وجود القوات الدولية فى الاقليم وهو ما ينطبق على البوسنة نفسها .. فعلى الرغم من مرور نحو خمس سنوات على اتفاق السلام فليس هناك من يضمن استمراره إذا ما قرر الناتو أنه قد حان الوقت لمغادرة البوسنة ، وهو فى اعتقادى أمر لن يتم ، إذ أن هناك أيضا ، كما هو الأمر فى كوسوفو ، كثير من النيران تحت الرماد ، فضلا عن أن دولة كبرى مثل الولايات المتحدة لايمكنها أن تترك تلك المنطقة الاستراتيجية فى الوقت الحالى كما سبق أن أوضحت ، ومن ثم ففى اعتقادى أن بقاء تلك القوات لفترة لا تقل عن خمس سنوات قادمة هو ضرورة يمليها الوضع السياسى غير المستقر فى المنطقة .

فى تلك الفترة أيضا شهدت المنطقة غياب الزعامات التقليدية فى المنطقة ، فى البداية تودجمان ثم ميلوشيفيتش ثم على عزت بيجوفيتش . ولعل الأخير هو الذى ترك الساحة بإرادته ، ورغم مطالب جماهيرية ببقائه ، إلا أنه آثر وقد أدى واجبه أن يعطى درسا آخر ربما هو آخر الدروس بأن الفارس الحقيقى هو الذى يدرك متى ينبغى عليه أن يسلم الراية إلى الجيل الجديد . و إذا كان هناك من لا يزال يتمسك – من الجيل القديم – بأهداب السلطة والمجد فأنه سيجد

نفسه مرغما على ترك الساحة ، سواء من قبل الشعب أو من قبل المتغيرات السريعة فى العالم والتى لا يمكن أن تدركها الأفكار القديمة . وفى اعتقادى أن هناك فى البوسنة من يمكنه أن يقود البوسنة إلى الأمام من أبنائها .. وإذا كان الشعب بمسلميه وكرواته وصربه لا يزال يتمسك بنزعات قومية لا يخفى على المرء أسبابها ، فانه ولهذا السبب تحديدا يحتاج إلى من يقوده من هذا الكهف المظلم إلى نور الحرية الحقيقية بالعيش فى سلام اجتماعى تختفى فيه تلك النعرات ، وربما يتطلب الأمر وقتا وربما لن يتم تحقيق ذلك فى الجيل الحالى ، إلا أنه ليس أمام البوسنة إلا طريق واحد هو طريق الوحدة وقد خطت فيه خطوات كبيرة ولذلك فعليها أن تتمسك بكل ما تحقق .

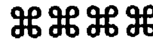
إن قصة البوسنة لم تنته بعد ، وإذا كنا ننظر إلى الأمام بحذر فيجب علينا أن نتحسس مواقع خطواتنا ، فلا تزال هناك كثير من الألغام ، وهناك الكثير من الشر الكامن فى نفوس البعض الذين يحاولون سرقة أحلام الأجيال القادمة فى العيش بسلام . وهؤلاء الذين يرفضون إلا أن يكونوا وحدهم هناك سيكونوا أكثر الناس تعاسة ، فهم لن يتمكنوا من إعادة عقارب الساعة إلى الوراء لأنهم فى محاولتهم الفاشلة تلك سوف يفوتهم الركب المسرع إلى آفاق المستقبل .

وعلى أن أشير فى نهاية هذا الكتاب إلى أن علاقات العالم العربى مع البوسنة لا تزال محدودة ، ويخطئ الكثيرون إذا أعتقدوا أن مهمة مساعدة البوسنة قد أنتهت . فالبوسنة لا تزال فى احتياج لنا . وبعد سنوات ليست بالقليلة سوف نكون باحتياج لها . وعلى الرغم من ذلك فنحن نترك الساحة ونبتعد وكأنه لم يعد لنا شأن بها ، على الرغم من أن القدر قد وفر لنا - فى العالم العربى فرصة ربما لن تتكرر - فى أن يكون لنا وجود وتأثير كبيران ، اقتصاديا وثقافيا وسياسيا . لقد ساهمنا فى الكثير هناك ، ولا ينبغى علينا أن نهمل هذا الاستثمار الكبير للآخرين ليجنوا ثماره .

لقد خضنا الكثير من التجارب نفسها . ونحن في مصر قد عانينا كثيرا لفترة من الفترات عندما توغلت إسرائيل فى أفريقيا وفى آسيا بعد أن كنا قد اطمأننا أننا كسبناها إلى صفنا . ونحن نترك المجال مرة أخرى لإسرائيل وغيرها لأن تدخل البوسنة منفردة بعد أن زرعنا الكثير من الأشجار . و إذا لم نستطع أن نستثمر تلك الحالة الفريدة فسوف نفقد إلى الأبد أرضا واسعة فى ميدان المعركة الاقتصادية ، فالبوسنة تحتل مكانا استراتيجيا من أوربا ، والبوسنة لديها مستقبل اقتصادى مبشر ، والبوسنة تحمل لنا – فى العالم العربى – الكثير من الحب والاحترام والامتنان ، ولكن أى دولة فى العالم سوف تتعاون مع من يستمر فى التعامل معها والوجود فيها وباستثمار كل تلك العوامل التى يمكن أن تضيع مع الوقت .

وليس سرا أن مجموع التجارة العربية – ٢٢ دولة – لا يمثل نحو ثلاثة فى المائة من التجارة الخارجية مع البوسنة . فهل عدمت مصر وهل عدمت الدول العربية ما يمكنها من أن ترفع هذا الرقم إلى أضعافه ؟ . هل عدمت الدول العربية رؤوس الأموال الضخمة التى تمكنها من الاستثمار هناك ، مع العلم بأن معدل الخطر قد تناقص ولا يزال يتناقص باضطراد ؟ .

نحن أمام فرصة تاريخية للوجود فى البوسنة ، وأستطيع أن أؤكد أن البوسنة يمكن أن تصبح الأندلس الجديدة ، تمتزج فيها الثقافات وتتعدد ثم تعود لتنتشر من جديد فى كل ربوع أوربا .

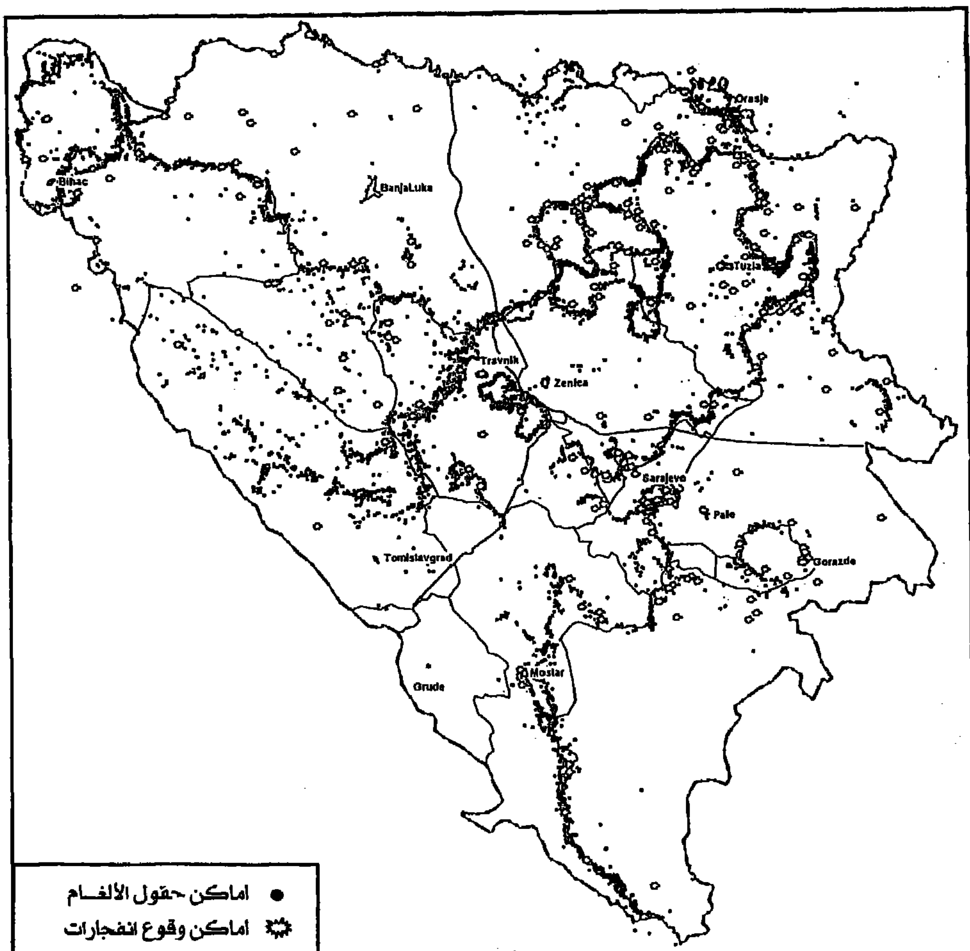


ملحــق الصــور



خريطة توضح موقع البوسنة والهرسك بين دول أوروبا


V. Kladuša
Bužim
B. Novi
B. Dubica
B. Gradiška
Srbac
B. Brod
Cazin
Prijedor
Bihać
B. Krupa
S. Most
Laktaši
Prnjavor
Derventa
Modriča
Šamac
Banja Luka
Čelinac
Doboj
Gradačac
Brčko
Bijeljina
B. Petrovac
Ključ
K. Varoš
Teslić
Tešanj
Maglaj
Srebrenik
Lopare
Ugljevik
Lukavac
Tuzla
Zvornik
M. Grad
S. Vakuf
Žepče
Zavidovići
Živinice
Kalesija
Drvar
Jajce
Šipovo
Travnik
Zenica
Kladanj
Šekovići
B. Grahovo
D. Vakuf
Vitez
Kakanj
Vareš
Olovo
Vlasenica
Bratunac
Glamoč
Bugojno
Busovača
Visoko
Breza
Han Pijesak
Srebrenica
Kupres
Fojnica
Kis.
Sokolac
Žepa
G. Vakuf
SARAJEVO
Livno
Prozor
Kreševo
Hadžići
Pale
Rogatica
Višegrad
Tomislavgrad
Jablanica
Konjic
Trnovo
Goražde
Rudo
Čajniče
Kalinovik
Foča
Posušje
Mostar
Široki Brijeg
Grude
Čitluk
Ljubuški
Nevesinje
Gacko
Čapljina
Stolac
Ljubinje
Neum
Bileća
Trebinje
1
2
3
4
5
6
7
8
9
10
الحدود الدولية
الحدود بين الكيانين
ارقام كانتونات الاتحاد المسلم الكرواتى



خريطة توضح اماكن حقول الألغام فى البوسـنة

PERSONS INDICTED FOR WAR CRIMES

WARRANTS FOR THEIR ARREST ARE HELD BY THEIR RESPECTIVE CAPITALS

IF YOU ENCOUNTER ANY OF THESE INDICTED WAR CRIMINALS IN THE COURSE OF YOUR REGULAR DUTIES AND THE SITUATION PERMITS, DETAIN THEM AND CONTACT YOUR CHAIN OF COMMAND!

NENAD BANOVIĆ

GORAN BOROVNICA

SLOBODAN MILJKOVIĆ

DRAGAN FUŠTAR

RADOMIR KOVAČ

DRAGAN KULUNDŽIJA

DRAGOLJUB PRCAĆ

MIROSLAV RADIĆ

PREDRAG BANOVIĆ

DUŠKO SIKIRICA

ZORAN MARINIĆ

KNEŽEVIĆ DUŠAN

DAMIR DOŠEN

MOMČILO GRUBAN

WANTED

ZORAN VUKOVIĆ

DRAGAN ZELENOVIĆ

WANTED

THE FOLLOWING PERSONS INDICTED FOR WAR CRIMES HAVE BEEN ARRESTED

NAME	NATIONALITY	ARRESTED
ALEKSOVSKI Zlatko	BOSNIAN CROAT	28 APR 97
BLAŠKIĆ Tihomir	BOSNIAN CROAT	01 APR 96
ČERKEZ Mario	BOSNIAN CROAT	10 JUN 97
DELIĆ Hazim	BOSNIAC	02 MAY 96
DOKMANOVIĆ Slavko	CROATIAN SERB	27 JUN 97
ERDEMOVIĆ Dražen	BOSNIAN CROAT	07 MAR 96
FURUNDŽIJA Anto	BOSNIAN CROAT	18 DEC 97
JELIŠIĆ Goran	BOSNIAN SERB	22 JAN 98
JOSIPOVIĆ Drago	BOSNIAN CROAT	06 OCT 97
KOVAČEVIĆ Milan	BOSNIAN SERB	07 OCT 97
KRNOJELAC Milorad	BOSNIAN SERB	15 MAY 98
KUNARAC Dragoljub	BOSNIAN SERB	03 APR 97
KUPREŠKIC Mirjan	BOSNIAN CROAT	10 JUN 96
KUPREŠKIC Vlatko	BOSNIAN CROAT	18 DEC 97
KUPREŠKIC Zoran	BOSNIAN CROAT	10 JUN 96
KVOČKA Miroslav	BOSNIAN SERB	08 APR 98
LANDŽO Esad	BOSNIAC	02 MAY 96
MUCIĆ Zdravko	BOSNIAN CROAT	18 MAR 96
PAPIĆ Dragan	BOSNIAN CROAT	10 JUN 96
RADIĆ Mladen	BOSNIAN SERB	08 APR 98
ŠANTIĆ Vladimir	BOSNIAN CROAT	10 JUN 97
ŠIMIĆ Milan	BOSNIAN SERB	14 FEB 98
TADIĆ Dušan	BOSNIAN SERB	14 FEB 98
TADIĆ Miroslav	BOSNIAN SERB	14 FEB 98
TODOROVIĆ Stevan	BOSNIAN SERB	27 SEP 98
ZARIĆ Simo	BOSNIAN SERB	24 FEB 98
ZARIĆ Zoran	BOSNIAN SERB	16 APR 98

OSLOBOĐENJE • NEDJELJA, 22. XII 1996.

USKLADIŠTENO NAORUŽANJE IZ EGIPTA

Artiljerija za vojnu ravnotežu

Naoružanje koje je za VFBiH darovao Egipat smješteno je u Hadžiće i Zenicu • Početak buduće suradnje

Egipatski ambasador Ahmed Abu Talib u subotu je u krugu remontnog zavoda u Hadžićima zapovjedniku Združenog zapovjedništva Vojske Federacije BiH, armijskom generalu Rasimu Deliću, svečano predao naoružanje koje je Egipat poklonio za VFBiH. Dvanaest haubica kalibra 120 mm D-30 i 12 dalekometnih topova od 130 mm M-59 konačno je smješteno u Hadžiće, a 18 protuavionskih topova kalibra ZU-23 uskladišteno je u Zenici.

Ambasador Talib je izjavio kako bi "ovo naoružanje za federalnu vojsku trebalo pomoći stvaranju ravnoteže sa srpskom stranom", te izrazio nadu da će sve strane u BiH poštivati sve aspekte vojnog sporazuma kako bi se stabilizirao mir i obnovila zemlja. Posebno je naglasio kako Egipat bosanskom narodu pomaže pružajući političku potporu u međunarodnim odnosima, dajući tehničku pomoć svim ministarstvima Vlade FBiH te prisustvom svog egipatskog bataljona još od 1992. godione pomaže čuvanju mira u BiH. Govoreći o poklonjenom naoružanju, egipatski je ambasador napomenuo kako su topovi od 130 mm upotrijebljeni 1973. u pripremnoj paljbi pri napadu na "prljavu liniju" protiv Izraela, na Sueckom kanalu. Dodao je da bi Egipat mogao Federaciji pomoći i u obuci vojnika "čim se završi dogovaranje sa stranama".



Zvanice pored darovanog topa *(Snimio: D. Babić)*

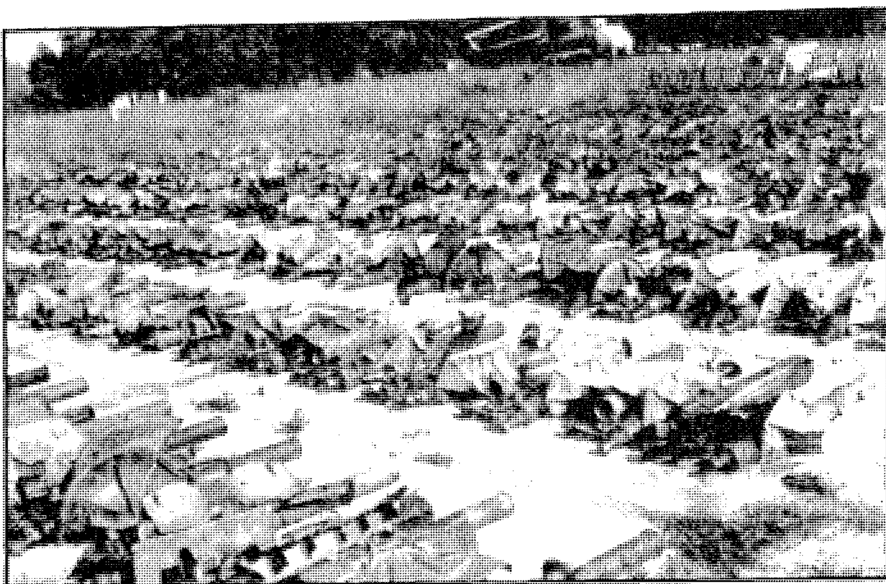
"Ovo je znatna podrška u artiljerijskom naoružanju kojom će se poboljšati i vatrena efikasnost naše vojske", kazao je tom prilikom general Delić. "Haubica D-30 je savremeno oruđe koje je (i prije) posjedovala naša armija i koje je dalo značajan doprinos u odbrani prostora BiH, a dobili smo i dalekometne topove 130 mm koji treba da poboljšaju efikasnost artiljerije na većim daljinama. Protivavionska sredstva su dovezena u Zenicu, jer je, po Daytonu, predviđeno da se sva protivavionska sredstva grupiraju na manji broj lokacija radi zaštite civilnog vazdušnog saobraćaja. Ova je pošiljka došla bez municije, ali sa rezervnim dijelovima. Naša namjenska industrija ima mogućnosti za proizvođenje ovakve vrste municije. Ova sredstva zamjenjuju ko zna koliko sredstava manjeg kalibra koja moramo reducirati u našoj armiji".

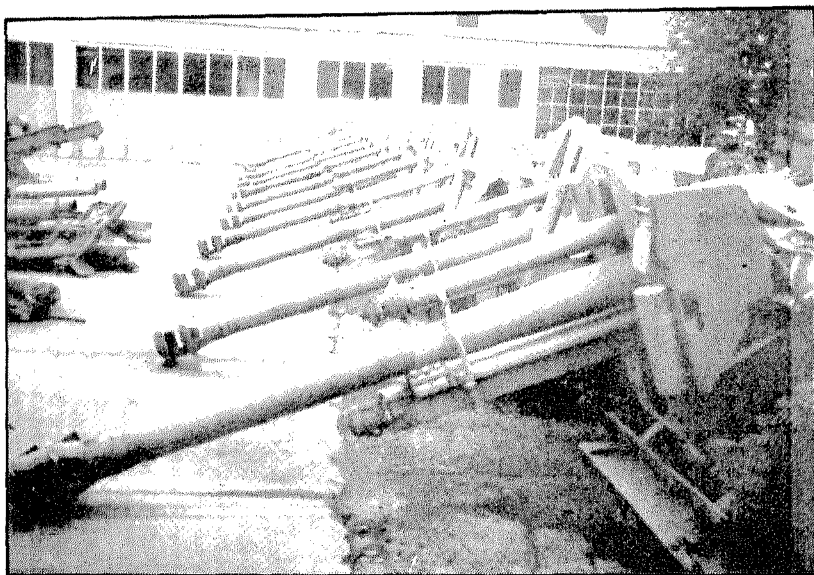
"Mogu reći da je ovo otvaranje novog procesa u saradnji dviju prijateljskih zemalja", konstatirao je Delić, dodajući kako Egipat ima stoljetnu vojnu tradiciju te "kompatibilnu namjensku industriju s kojom vojna industrija BiH može uspostaviti odgovarajuću saradnju".

Inače, u Hadžiće je uz američko naoružanje nedavno iz Ujedinjenih Arapskih Emirata dovezeno 36 haubica od 105 mm, model 56, dok je municija odvezena ka Livnu. Iz UAE se još očekuju tenkovi i samohodna oruđa, čija se doprema očekuje od 10. siječnja. Delić je dodao kako je jednu isporuku naoružanja najavio Katar te da se naredne godine očekuje pomoć Malezije i još nekih zemalja Zaljeva.

A. PRLENDA

الصحف البوسنية تبرز حفل تسليم الأسلحة المصرية إلى جيش الاتحاد المسلم الكرواتى
وفى الصورة الجنرال راسم ديليتش قائد الجيش وسـفير مصر فى البوسنة

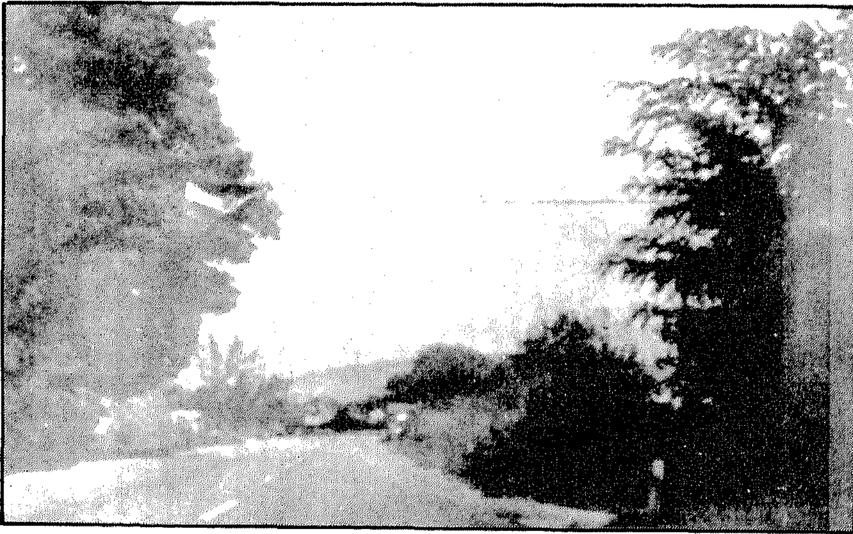




آلاف من قطع المدفعية والأسلحة التى تم جمعها وتدميرها فى إطار اتفاق
خفض التسلح فى البوسنة تحت رعاية منظمة الأمن والتعاون فى أوربا



صورة لإحدى المقابر الجماعية التى يتم الكشف عنها بين حين وآخر فى البوسنة



علم كروات البوسنة - والذى يمثل ما كان يسمى بجمهورية الهرسك بوسنة - لا يزال مرفوعا فى المناطق التى يسيطر عليها الكروات فى الاتحاد المسلم الكرواتى بدلاً من علم الاتحاد



لا تزال هناك آلاف من المنازل المدمرة التى تحتاج إلى إعادة
البناء حتى يمكن عودة اللاجئين والمشردين إليها



جنود الكتيبة المصرية (طابا) قاموا بأعمال جليلة فى حراسة
العاصمة البوسنوية فى الحرب والسلم والصورة أثناء حراسة
أحد الشوارع الهامة لدى زيارة بابا الفاتيكان لها عام ١٩٩٧



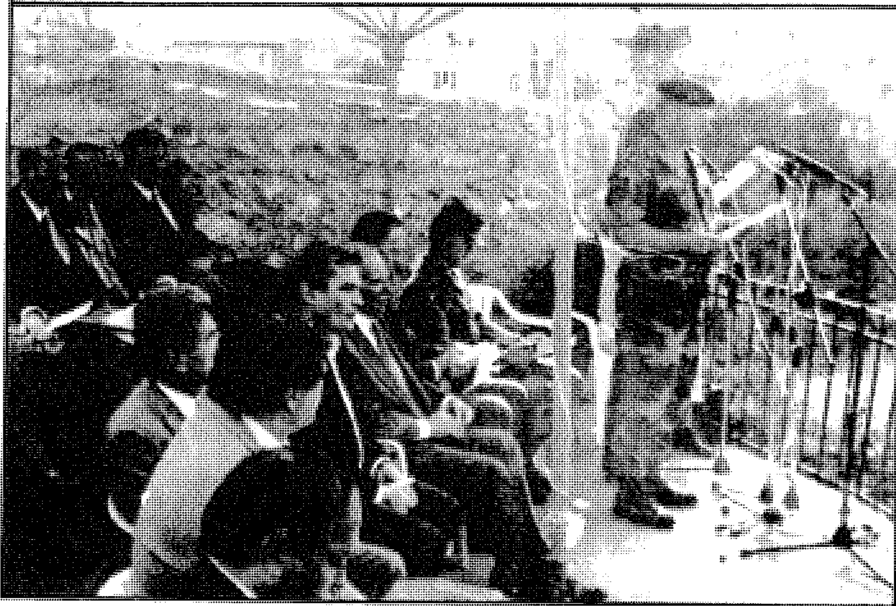
جنود الكتيبة المصرية ساهموا بالكثير من أجل رفع المعاناة عن الشعب البوسنوى وهم هنا
يقومون بمد أنابيب الغاز إلى المناطق التى أضيرت فى سراييفو كهدية من الشعب المصرى



السيدة سوزان مبارك حرم رئيس الجمهورية فى حفل افتتاح
قرية الأطفال اليتامى فى مدينة موستار باعتبارها رئيس جمعية الهلال الأحمر
المصرية التى قامت بإنشاء القرية من تبرعات أفراد الشعب المصرى



اهتمت مصر بإعادة بناء عدد من مساكن ضحايا الحرب والمستشفيات التى دمرت وفى الصورة سفير مصر فى البوسنة احمد عبد الرحمن ابو طالب فى حفل تسليم المرحلة الثانية من المساكن التى اعيد بناؤها على نفقة الهلال الأحمر المصرى من التبرعات الشعبية



المؤلف يشارك فى حفل بدء العمل فى إعادة بناء كوبرى موستار التاريخى الذى دمر أثناء الحرب .. وفى الصورة الرئيس على عزت بيجوفيتش ورؤساء وزراء البوسنة والاتحاد الفيدرالى وقائد القوات الدولية فى البوسنة



المؤلف فى لقاء مع الشيخ مصطفى تسيرتش رئيس العلماء ومفتى البوسنة



المؤلــف فى صــورة تذكـارية مع الســيد حــارث ســيلايدجتش
رئيس وزراء البوسنة والفنان التونسى البوسنوى الأصل لطفى بوشناق

الفهـرس

المؤلف فى سطور

زكريا السيد عبيد



* من مواليد القاهرة فى ٢٤ اغسطس ١٩٥١ .

* تخرج من قسم الفلسفة بكلية الآداب جامعة عين شمس كما حصل على دورات دراسية فى الصحافة بجامعتى جاكسون وبوسطن بالولايات المتحدة عام ١٩٩٢.

* التحق بوكالة أنباء الشرق الأوسط المصرية عام ١٩٨٢ حيث يعمل حتى الآن . قام بتغطية حرب الخليج الثانية كما عمل مديرا لمكتب الوكالة فى كل من زاجرب (كرواتيا) وسراييفو (البوسنة والهرسك) و بلجراد وبرشتينا (يوغسلافيا) وذلك فى الفترة من يناير ١٩٩٦ إلى نهاية عام ١٩٩٩ .

* وقام منذ ذلك الحين بنشر العديد من التحقيقات الصحفية والابحاث والتراجم فى الصحف والمجلات والدوريات المصرية والعربية . كما نشرت له الهيئة المصرية العامة للكتاب مجموعة قصصية بعنوان " للمدينة وجه آخر " عام ١٩٩٠ .

البوسنة والهرسك
وأشواك السلام

يطرح هذا الكتاب عددا من التساؤلات عن وضع البوسنة والهرسك بعد نحو خمس سنوات من إقرار السلام هناك ويحاول الإجابة عنها .. ولعل أهم تلك التساؤلات هى هل حقا انتهت الحرب فى البوسنة بتوقيع اتفاق دايتون للسلام ؟ وهل يمكن للبوسنة أن تصبح دولة موحدة بدلاً من التقسيم الذى تشهده حالياً ؟ وما هى إمكانيات عودة البوسنة كدولة مستقلة آمنة ؟

إن الكتاب هو محاولة لاستقراء آفاق المستقبل فى البوسنة فى ظل الحرب التى عانت منها طوال أربع سنوات دمرت فيها بنيتها الأساسية . وهو كذلك محاولة لتحليل الأوضاع هناك بعد سنوات من السلام وعلاقات هذه الدولة الوليدة بجيرانها فى البلقان وأوربا وانتماءاتها إلى الشرق والغرب .. وبحثا عن الهوية .. وهو تحديد للطريق المليء بالأشواك الذى تسير فيه من أجل السلام النهائى بين طوائفها وفصائلها التى طال عداؤهم لقرون طويلة .

وهو أيضا محاولة لاستقراء العلاقات العربية مع البوسنة فيما بعد الحرب .. ولعل هذا الكتاب هو الأول من نوعه الذى يتناول أحداث البوسنة فيما بعد الحرب نقدمه للقارئ العربى فى محاولة جادة لإعادة وصل ما انقطع من خيوط بين بلادنا العربية والإسلامية وهذا البلد الوليد ، وحتى لا تسقط البوسنة فى براثن النسيان وتتوه معالم قضيتها لنفاجأ بعد سنوات بكارثة جديدة هناك .

والكاتب هو صحفى بوكالة أنباء الشرق الأوسط المصرية وعمل مديرا لمكتب الوكالة فى زاجرب وسراييفو وبلجراد فى الفترة من يناير ١٩٩٦ إلى نهاية عام ١٩٩٩ وكان شاهد عيان لكل ما شاهدته البوسنة والهرسك فى فترة صنع السلام .

الناشر